


الكتاب التاسع والستون - يوليو ٢٠٠٧

# المجلات الثقافية
## مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

(الجزء الأول)

# المجلات الثقافية
# مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

الجزء الأول



رئيس التحرير

## د. سليمان العسكري




سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات
والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعا واحدًا تتناوله عدة أقلام.

عنوان الكتاب: المجلات الثقافية مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة «الجزء الأول»

تأليف: نخبة من الكتاب العرب

الناشر: وزارة الإعلام - مجلة العربي

الطبعة الأولى:١٥ يوليو ٢٠٠٧

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
Depository Number: 2007 /280

ردمك: ٥-٣٢-٣٨-٩٩٩٠٦-٩٧٨
ISBU: 978 -99906-38-32-5

العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة -
الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ شارع ٤٧ - قسيمة ٣



Al -Arabi Book, 68 th
Cultural magazines... The task of Reform and
the question of knowledge
15 july .2007
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.

E. mail: alarabimag@alarabimag . net

الغلاف: رسم الفنان : حلمي التوني
تصميم الكتاب : حافظ فاروق

# المجلات الثقافية
# مهمة الإصلاح .. وسؤال المعرفة

الجزء الأول

# المجلات الثقافية ودورها الإصلاحي

## بقلم: د. سليمان إبراهيم العسكري

بالرغم مما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من أن الحديث عن المجلات الثقافية هو حديث خاص، لا يهم إلا أفرادًا قلائل، هم الذين نطلق عليهم صفة المثقفين، أحيانًا بدافع الاحترام، وأحيانا بباعث من التندر، لأنهم هم وحدهم الذين يهتمون بهذه النوعية من المجلات القليلة التوزيع، الجادة المواضيع، التي لا تهتم بالخبر أو بالصورة إلا فيما ندر، كما هو الحال في بقية الصحف السيارة، فإنني أختلف معهم في هذا الرأي، فالتوزيع لم يكن أبدًا مقياسًا لأهمية المجلة الثقافية، بالرغم من أن العديد منها قد حقق أرقامًا عالية في هذا المجال، ولكن مقياسها الحقيقي هو مدى تأثيرها وتحقيقها للغرض الذي أقيمت من أجله. فهي بخلاف الصحف الأخرى لا يمكن أن تنهض وفق منظور تجاري، ولكن من أجل توجيه رسالة معينة والتعبير عن تيار فكري محدد، وهي تدرك منذ البداية أن انتشارها الورقي قد يكون محدودًا، ولكنها تأمل أن يكون انتشارها الفكري بلا حدود. والمجلة الثقافية مهما بلغت من درجة تخصصها لا تبتغي ولا تهدف للتوجه إلى شريحة المثقفين بمفهومها الضيق، ولكن إلى كل طلاب المعرفة والاستنارة من مختلف الشرائح. من أجل ذلك نرى أن الكثير من المجلات في تاريخنا الثقافي، بالرغم من قصر عمرها، ومحدودية انتشارها قد لعبت دورًا مؤثرًا لدرجة كبيرة في تطور الفكر العربي.

والأمثلة كثيرة على ذلك، ولكنني لا أريد أن أذهب بعيدًا، وسوف أسوق المثال بمجلة «العربي»، التي أشرفت على طبيعة هذا الكتاب، والذي هو حصيلة ندوة ثقافية حافلة أقامتها تحت عنوان «المجلات

الثقافيــة ودورها في الإصلاح الثقافــي»، بحكم خبرتي وعملي في هذه المطبوعــة العتيدة، والتي قارب عمرهــا الآن على نصف قرن من الزمان.

كانت «العربي» هي أول رســول للثقافة، ينطلق من أرض الكويت، دون حاجة إلى تأشــيرة أو تصريــح ليدخل إلى كل بيت عربي. وقد حرصت دولة الكويت على إصدارها حتى قبل أن تظفر باستقلالها، وقبــل أن تبني الكثير من مؤسســاتها الداخلية. وقــد كانت المجلة جديــرة حقا بتأدية الدور الذي رســمه لها الآباء المؤسســون، فقد كانت واحدة من الروابط الوثقى، التي ربطت الكويت بوطنها الممتد مــن المحيط إلى الخليج، وهي لم تســاعدنا فقط على التأكيد على أننا نعبّر عن شــخصيتنا باللغة ذاتها، ونتوق إلى الحلم ذاته، ولكنها ســاهمت برحلاتها المتعددة في التعرف على التفاصيل الخفية لهذا الوطن الممتد، وكشفت عن تنوّعه ومكامن قوته، ومَن يراجع الأعداد الأولــى لهذه المجلة فسيكتشــف كم كنا نجهل الكثيــر، بعضنا عن البعض الآخر، وكم كنا أســرى للمفاهيم المغلوطة، والنظرة القطرية الضيقة، وقد ســاهمت «العربي» إلى حــد كبير في إزالة فجوة قلة المعرفة والتفاهم وفي التقارب بين المسافات المتباعدة.

ولا يعود الســر في انتشار «العربي» إلى جودة طباعتها، أو رخص ســعرها، فكم من المطبوعات التي صعــدت كانت أكثر فخامة وأقل ســعرًا، ولكن هذا لم يمنعها من الســقوط، غير أن السر الحقيقي هو تلك الحرية التي تمتعت بها «العربي»، وتلك الاســتقلالية، التي منحتها لها دولة الكويت منذ الأيام الأولى لنشــأتها، وأستشهد هنا بالأستاذ أحمد بهاء الدين الكاتب والمفكر المعروف الذي رأس تحرير «العربي» لســنوات عــدة، حين قال : إنه لولا ذلك الســطر النحيل المكتوب على صدر مجلة «العربي» من أنها تصدر عن وزارة الإعلام في دولة الكويت، ما أحسســنا قط أنها مطبوعة حكومية، وأجدني أضم شــهادتي إلى شهادته، فعلى مدى الســنوات التي توليت فيها مســئولية «العربي» لم أقابل أي نوع من التدخل، بل على العكس من

ذلك، لـم أجد إلا كل دعم ومؤازرة وإحساس عميق بأهمية الدور الـذي تقوم به مجلـة «العربي»، وهذا هو بعض سـر قوتها، وطول عمرها.

إن الـدور الذي قامـت به «العربي» ولاتزال، هـو جزء من الدور الـذي يفترض أن تقـوم به أي مطبوعة ثقافيـة، وهو موضوع هذا الكتاب، ففي وقت تنتشـر فيه الثقافة السريعة والسطحية، أصبح مـن المطلوب أن نحرص علـى كل المطبوعات التـي تعزز من قيمة الثقافة العميقة، وتحث الشـباب العربي على التمسك بقيمه وتراثه وهويته. وقد قامت المجلات الثقافية بهذا الدور في بواكير النهضة العربيـة، ومـازال مطلوبًا منها مواصلته في مواجهـة رياح العولمة. فالدور الذي تقوم به هذه المطبوعات من أجل تأصيل الهوية وسـط عالـم متغير، هو دور على جانب كبير مـن الأهمية، ولكن من المهم أيضًا أن تشـارك هذه المطبوعات في عمليات الإصلاح التي نصبو إليها جميعًا.

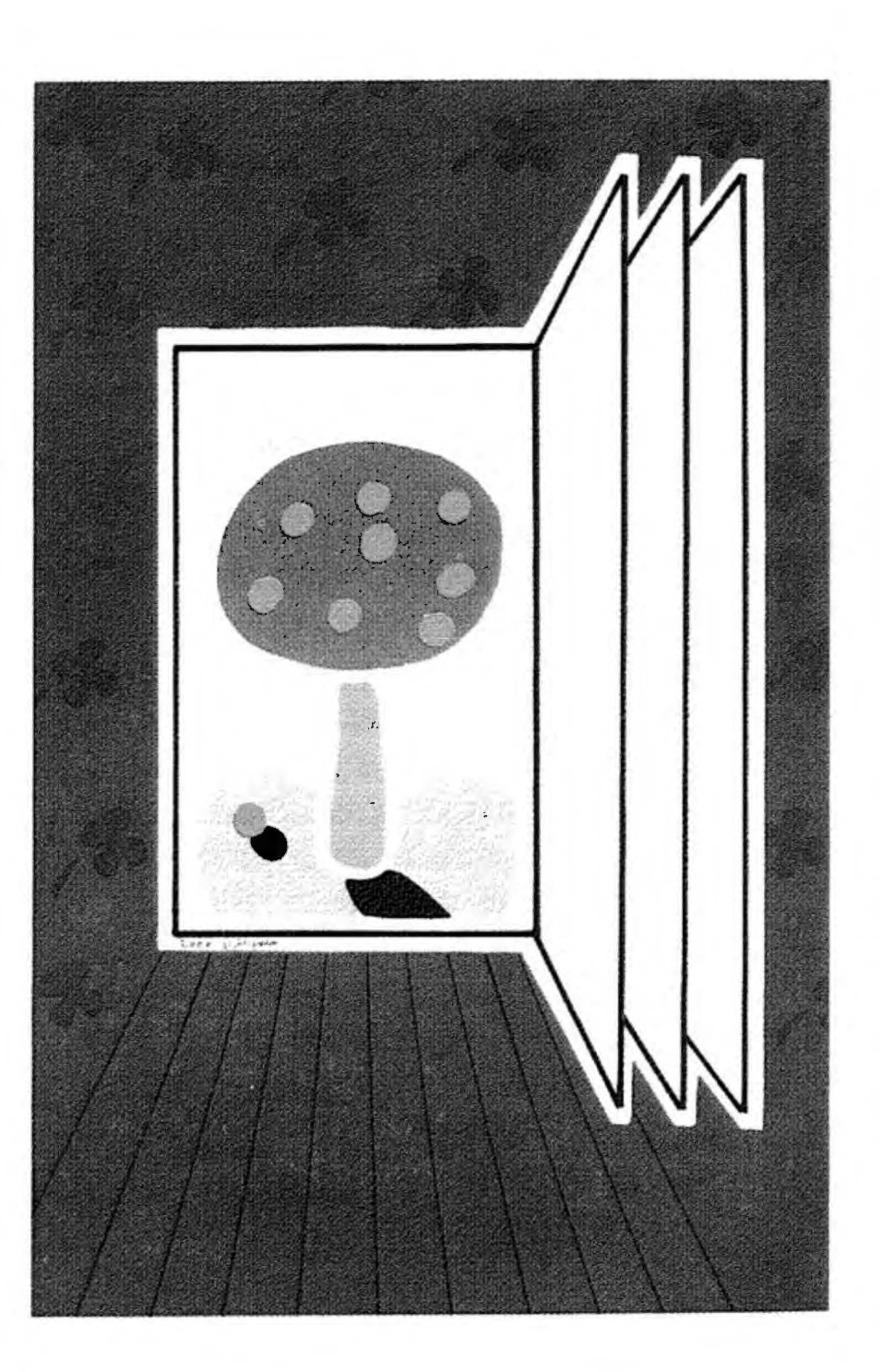
فالإصـلاح أصبح مطلبًـا يهم الجميع، ولا يقتصـر على النخب السياسية وحدها، وهو يحتاج إلى جهد عقلي يخرج عالمنا العربي من حالة الجمود والوهن إلى مشارف عصر من الفعل والحركة والقدرة على الاستجابة لكل المتغيرات، فالتقدم الاجتماعي والاقتصادي في حاجة إلى من يضع أساسًا فكريًا له، والسعي للديمقراطية يجب أن يسبقه تعلّم وتعوّد على ممارستها، وعلى المثقفين جميعًا أن يحوّلوا المجلات الثقافية إلى منابر تدعو للتقدم والحرية.

ولا ننسـى هنا الدور الرائد الذي قامت به العديد من المطبوعات فـي نهضة الإنسـان العربي، فلا أحد ينسـى ما قامـت به مجلة المقتطـف في مصر في أواخر القرن الثامن عشـر حين حاولت أن تنقـل علوم الغرب إلـى عالمنا العربي الـذي كان يرزح تحت تخلف القرن التاسـع عشـر، وقد أصدر هذه المجلة صديقان من دمشـق هما يعقوب صروف وفـارس نمر، كان همّهما نقل علوم الغرب إلى الشـرق حتى يفيق من تخلّفه، ولا الدور الذي قامت به مجلة المنار،

التي أنشـأها الشيخ رشـيد رضا في إحياء الفكر الديني ومقاومة الاحتلال الغربي، استكمالاً للدور الذي قام به أستاذه الشيخ محمد عبـده، كما لا ينسـى أحد ما قامـت به مجلة الهـلال، التي قادت رحلـة التنوير في عالمنا العربي فوق مـا يزيد على قرن من الزمن، وهي المجلة التي لاقت من الانتشار والذيوع ما جعلها تنافس الكثير مـن الصحف غير المتخصصـة، ولا دور مجلة الرسـالة في إحياء الثقافـة العربية وتجديد لغتها، ولا مجلـة الآداب التي رعت حركة التجديد والإبداع في الثقافة العربية من أول الخمسينيات من القرن العشـرين حتى يومنا هـذا، ولن ينتهي عقد المجـلات العربية ولن ينتهي دورها الفعال.

ولكـن علينا أن نعترف أن المجلة الثقافية في العالم العربي تواجه مشكلة حقيقية، فما أكثر هذه المجلات، وما أكثر أسماءها، والأهداف التي كانت تطمح إليها، ولكن - مع الأسـف الشديد - ما كان أقصر عمرها، فقد عاشـت هذه المجلات واقعًا مؤلمًا مهما حسنت النوايا وراء إصدارهـا، فهناك مجلات منها ماتت فور ولادتها دون أن تبلغ سن النضج، أو تشب حتى عن طور الطفولة، وهناك مجلات أخرى لم يشـفع لها طول عمرها، ولا أهميـة الدور الذي قامت به من أن تبطش بها يد نظام قاس أو رغبة حاكم لمجرد أنها خالفته في الرأي، لقـد تعرض الكثيـر من المجلات في عالمنا العربـي إلى العديد من المذابـح، فقد بلغ الأمر أن تقصف أقلام أكثر من مطبوعة في قرار واحد، ولم يحرم القرّاء والكتّاب منها فقط ولكن حرم الفكر العربي، والثقافة العربية من الدور الذي يمكن أن تلعبه في تطوره.

إن المطبوعة الثقافية حتى تقـوم بدورها كاملا، يجب أن تتنفس هـواء الحريـة، لأن التضييق عليها هو ضيـق بالفكر، ومحاصرتها هـي خنق للعقل، وهي لم ولن تزدهر إلا في ظل نظام متفتح، يؤمن بدورها، ويترك لها العنان، من أجل قدح العقول، وإذكاء الحوار.



# المحور الأول

## الإصلاح الثقافي
## تحديات النهضة والسعي للتحديث

- د. جابر عصفور
- د. مسعود ضاهر
- شوقي عبدالأمير
- بندر عبدالحميد

# المجلات الثقافية
# ميراث الماضي وآمال المستقبل

د. جابر عصفور *

من الصعب فصل تاريخ «المجلات الثقافية» عن الصحافة، ليس لأن المجلات الثقافية بعض الصحافة فحسب، وإنما لأن فترة النشأة كانت تحمل تداخلا في المفاهيم، ولذلك كان يحدث أن يُطلق اسم الصحيفة على المجلة والعكس صحيح بالقدر نفسه. وكان ذلك أمرا طبيعيا في الفترة التي لم تكن فيها المسميات قد استقرت بعد بحكم تداخل خيوط البداية ومفاهيمها. وهو الأمر نفسه الذي نلحظه في بداية النهضة حين كان مصطلح «الرواية» و«الروايات» - مثلا - يُطلق على «المسرحية» و«المسرحيات» خصوصا بعد أن تم تعريب اصطلاح «التياترات» الذي استخدمه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) في كتبه الباكرة، وسار على دربه أمثال عبدالله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) وسليم الخوري الذي نشر مقالا عن «الروايات والروائيين» في «الضياء» (أبريل ١٨٩٩) قاصدا إلى المسرح والمسرحيين. ولذلك لن نستغرب كثيرا لو أطلق اسم «المجلة» على الصحيفة أو العكس، خصوصا في مرحلة

* رئيس المركز القومي للترجمة - مصر.

البدايات التي ترجع إلى مطالع النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ونحن نعتمد في فهم مرحلة البدايات هذه على كتاب الفيكونت فيليب دي طرازي «تاريخ الصحافة العربية». وهو كتاب عمدة يضم أغزر مادة يمكن تصورها عن الصحافة العربية منذ ظهورها في مختتم القرن الثامن عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. وقد بذل الرجل جهدا شاقا في استقصاء كل ما كتب قبله عن الصحافة العربية إلى أن صدر الجزء الأول من كتابه عن المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٩١٣، وأكمله بالجزء الثاني سنة ١٩١٤، وظل هذا المؤرخ النادر لنشأة الصحافة العربية يستكمل مادته إلى أن أصبح كتابه أربعة أجزاء، لا غنى عنها لكل من يريد معرفة نشأة الصحافة العربية. وقد عرفنا بفضل دي طرازي أن أول من استعمل لفظة «الصحافة» بمعناها الحديث هو الشيخ نجيب الحداد (١٨٦٧ – ١٨٩٩) منشئ جريدة «لسان العرب» في الإسكندرية، وهي التسمية التي قلّده فيها سائر الصحافيين من بعده، وذلك بعد أن كانت الصحف تُسمى في أول عهدها «الوقائع»، ومنها جريدة «الوقائع الرسمية» كما دعاها رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣) المصري، وسُميت أيضا «جزنته» (Gazzette) نسبة إلى قطعة من النقود بهذا الاسم كانت تُباع الصحيفة بها، فعرفت بمقابلها المادي الذي انتقل إلى اللغة العربية. وعندما أنشأ خليل الخوري (٦٣٨١ – ٧٠٩١) صحيفة «حديقة الأخبار» في بيروت سنة ٨٥٨١ أطلق عليها لفظة «جرنال» (Journal) الفرنسية التي يرجع اشتقاقها، من حيث هي صفة، إلى كلمة «يوم» (Jour). وعندما أصدر أحمد فارس الشدياق (٤٠٨١ – ٨٨٨١) صحيفة «الجوائب» في إسطنبول أطلق عليها اسم «جريدة»، وهي الصحف المكتوبة كما ورد في معاجم اللغة. وقد شاعت التسمية منذ ذلك الوقت، فأصبحت كلمتا «الصحف» و«الجرائد» تتبادلان الوضع والدلالة بلا تفرقة.

ويؤكد دي طرازي أنه لم يكن هناك تفرقة بين «الجريدة» (Journal) و«المجلة» (Revue) أو (Magazine) في الاستعمال، وأصل التداخل أن الأوربيين كانوا يطلقون اسم المجلة (Revue) على الصحف الدورية التي تصدر على شكل كراسة متغيرة الأحجام في أغلب الأحيان، وهو

الأمر الذي قارب بينها وبين الصحف الـتي كانت تصـدر أسـبوعية أو ما أشبه، بعيدا عن دلالة «الدورية» (Periodical) المتاخرة. وقد شاعت دلالة «المجلة» بناء على اقتراح الشيخ إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) الذي أشرف على تحرير مجلة «الطبيب» البيروتية سنة ١٨٨٤ بالاشتراك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل بك سعادة. وهي صحيفة (كذا عند دي طرازي) علمية دينية تاريخية، فشـاعت التسـمية التي أصبحت علامة على المجلات التي صدرت بعد ذلك في الأقطار العربية، فلم يعد يتبادر إلى الأذهان إلا الصحيفة الدورية (كذا) دون سواها.

ومـن الممكن أن نعد مجلة «الطبيـب» مجلة ثقافية، وأن نضعها ضمن أوليات «المجلات الثقافية»، وأن نرى في مضمونها بعض ما تنطوي عليه دلالة «المجلة الثقافية»، وذلك مـن حيث هي مجلة متنوعة الموضوعات، ليس بالمعنى التقليدي القديم الذي يتصل بالأخذ من كل شـيء بطرف، وإنما بالمعنى الأشـمل الذي تسـهم به المجلة الثقافية في تعميق وتوسيع وتطويـر الوعـي الثقافي للقـارئ من ناحية، ووضع هـذا القارئ - من ناحيـة موازية - في حال من الاتصال الفعال بكل توجهات ثقافة عصره وإبداعاتها المختلفة. ولذلك فهي مجلة تجاوز التخصص بمعناه الضيق، وتصـل بين المعارف المختلفة والإبداعات المتباينة التي تجاوز الآداب إلى الفنون، غير غافلة عن العلم الذي أصبح مكونا أساسيا في ثقافة العصر على نحو ما أدرك الرواد. والهدف النهائي من ذلك كله هو جعل القارئ طرفا فاعلا في أفق التنوع الثقافي والحضاري للإنسانية كلها، بعيدا عن العصبية، أو الانغلاق، أو العداء للآخر، ذلك لأن هدف «المجلة الثقافية» - فـي النهاية - هدف إنسـاني، يعبر الحدود والقيـود وحواجز اللغات والأعراق والمعتقدات الجامدة.

وما له دلالة مهمة - في هذا السـياق - أن الرواد الأول الذين أنشأوا المجـلات الثقافية الأولى فـي الوطن العربي، كانـوا ينطوون على وعي بهـذا الهدف، وكانوا مدركـين أهمية «المجلة الثقافية» سـواء من حيث علاقتهـا بالصحافة عموما، أو دورها الموازي الذي جعلوا منه قوة دافعة لمسـار النهضة العربية في القرن التاسع عشر. ولا غرابة في أن يربطوا نهضة الصحافة بوجه عام، والمجلات بوجه خاص، بنهضة الأمة وتمدنها

وسعيها إلى التقدم المنشود والتحرر المطلوب. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يُصدِّر أديب إسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) - الثائر الأبدي الذي انطفأ مبكرا - جريدته «مصر القاهرة» (التي أنشأها على أنقاض «جرية مصر») بشعار «حرية، مساواة، إخاء» ليس تعبيرا عن تأثره بشعارات الثورة الفرنسية فحسب، وإنما تعبيرا عن حلمه في أن ينقل واقعه العربي المتخلف من شروط الضرورة إلى آفاق الحرية والتقدم.

وأي استرجاع لأهم المجلات الثقافية التي صدرت في القرن التاسع عشر يؤكد هذا التكييف، ويؤكد وعي القائمين عليها بدورهم الحضاري في معركة التقدم، كل في مجاله، ومن منظوره الثقافي المائز. ينطبق ذلك على علي مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣) الذي أصدر العدد الأول من «روضة المدارس» في السابع عشر من أبريل سنة ١٨٨٧، وعلى خليل اليازجي (١٨٥٦-١٨٨٩) الذي أصدر مع أمين ناصيف «مرآة الشرق» في السادس من أبريل ١٨٨٢، وعلى عبدالله نديم الذي أصدر «الأستاذ» في الرابع والعشرين من أغسطس ١٨٩٢، وعلى جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) الذي أصدر «الهلال» في مطلع سبتمبر ١٨٩٢، وعلى إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) الذي أصدر «البيان» في مطلع مارس ١٨٩٧ و«الضياء» في منتصف سبتمبر ١٨٩٨، وعلى فرح أنطون الذي أصدر «الجامعة» في الخامس عشر من مارس ١٨٩٩. ولا يختلف عن هؤلاء غيرهم من الذين آمنوا بما نقلوه عن ڤولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) - رمز حركة الاستنارة الفرنسية - من قوله: «الصحافة آلة يستحيل كسرها، وستعمل على هدم العالم القديم حتى يتسنى لها أن تنشئ عالما جديدا».

لقد كانت المجلات الثقافية عند الأسماء التي ذكرتها، والتي تدل على غيرها آلة هدم العالم القديم والتمهيد لبناء عالم جديد، يخلو من كل سلبيات الماضي المتخلف وعوامل جموده. ولذلك خاضت المجلات الثقافية معركة النهضة - في سياق الصحافة بوجه خاص والثورة الفكرية الثقافية بوجه عام - التي اعتمدت على جهود صناع النهضة الذين جعلوا من مجلاتهم الثقافية وصحفهم سلاحهم في معارك الحريات السياسية والاعتقادية، وترسيخ حضور الدولة المدنية وتأكيد حتميتها في مسار التقدم، وأشاعوا مبدأ التسامح في الفكر والاعتقاد، وحاربوا

الطائفية والنزعات العرقية، فضلا عن أشــكال التمييز الراســخة ضد المرأة، ودافعوا عن حق المرأة في التعليم والمشاركة الاجتماعية، وانفتحوا على العالم بكل تياراته، واستبدلوا العلم بالخرافة، كما استبدلوا الأفندي المطربش بالشــيخ المعمم، والتعليم المدنــي بالتعليم الديني، منطلقين مع الموجة الصاعدة للطبقة الوســطى التي اكتســبت من «المدنية» الحديثة ملامحها الأساســية: قبول التعدد العرقي، والتنوع الجنســي، والتباين الثقافــي، والاعتراف بحــق الآخر في الوجود. ولم ينســوا الوقوف في صف أنواع الإبداع الأدبــي والفني الجديدة، فآزروها بما أكد حضورها وجعلها جزءا لا يتجزأ من بناء ثقافة النهضة التي ورثناها عنهم، ونحاول اســترجاعها والانطلاق منها إلى ما بعدهــا، خصوصا في هذه الأعوام التي تتنكر لأعظم ما أنجزته النهضة من منجزات ثقافية.

وطبيعي أن تقتــرب الصحف والمجلات الثقافية - في مرحلة النهضة - وتنتقــل من قطر عربي إلــى غيره، بل من الأقطــار العربية كلها إلى غيرهــا من أقطــار العالم المتقدم الــذي وجدت فيه الأقــلام المهاجرة مــا يتيح لها حريــة التعبير عن آرائها ومعتقداتها السياســية والفكرية. وهي سُــنة ابتدعتها مجلات عصر النهضة، ولا تــزال قائمة إلى اليوم، يتصاعد حضورهــا بتصاعد عوامل الكبت والقمــع والتضييق الفكري والظلم السياسي في هذا القطر أو ذاك، في مرحلة أو أخرى من مراحل تاريخــه الثقافي الاجتماعي. هكذا، نجد مجــلات عصر النهضة تتوزع مــا بين الأقطار الأوربية، خصوصا فرنســا التي اســتضافت أكبر عدد مــن الصحف والمجلات العربية المهاجرة، فرارا من القمع. حســبي ذكر أن باريس وحدها اســتضافت ثلاثا وثلاثــين صحيفة ومجلة، ابتداء من «برجيس باريس» التي أصدرها رشــيد الدحداح (١٨١٣-١٨٨٩) ســنة ١٨٥٨ وانتهــاء بـ «الراية الحمراء» ســنة ١٩٢٧، وما بين الأولى والأخيرة تتراتب «الاتحاد» لإبراهيم المويلحي (١٨٤٦ - ١٩٠٦) و«أبو زمارة» ليعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) «والبصير» لخليل غانم (١٨٤٦ - ١٩٠٣) و«كوكب الشرق» لعبدالله مراش (١٨٣٩ - ١٩٠٠) و«العروة الوثقى» لجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) و«كشف النقاب» للأمير أمير أرســلان (٠٠٠ - ١٩٤٣). ولم يقتصر الأمر على فرنســا،

فقد جاوزها إلى سويسرا وألمانيا ونابولي وإيطاليا وإنجلترا ومالطة وقبرص. وأضف إلى ذلك جرائد ومجلات الذين فروا إلى المهجر الشمالي (الولايات المتحدة) متوزعين بجرائدهم ومجلاتهم التي وصلت إلى خمس وثلاثين صحيفة ومجلة في نيويورك وحدها ما بين ١٨٩٢ و١٩٢١، ناهيك عن بوسطن، ودترويت، وفيلادلفيا، وسان لويس، ومنيا بوليس. وقل الأمر نفسه على كندا، ومنها إلى المهجر الجنوبي، حيث أمريكا اللاتينية، ابتداء من مكسيسكو العاصمة، مرورا بهافانا في كوبا، وبوينس أيرس، وتشيلي، وأورجواي، والبرازيل التي صدرت فيها ثلاث عشرة صحيفة ومجلة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٢٨.

وكانت المجلات والصحف الموزعة ما بين الأستانة والأقطار العربية لا تكف عن المقاومة بالحيلة، مستغلّة «التتكيت والتبكيت» للهروب من مقص الرقيب وسطوته القمعية، الأمر الذي أدى إلى ازدهار الكتابة الرمزية، واستغلال ترجمة الأعمال الروائية الأجنبية التي كانت تُنشر مسلسلة في المجلات الثقافية بعامة والأدبية بخاصة لتسريب المسكوت عنه من الخطاب المقموع سياسيا وفكريا وطائفيا. ومع ذلك، فقد شهد عصر النهضة (من الحملة الفرنسية إلى ثورة ١٩١٩) وفرة دالة في إصدار الصحف والمجلات، وذلك على نحو لم يعد له نظير في زمننا الحالي. يكفي أن نعرف أن مدينة طنطا في مصر شهدت عشرين صحيفة وثماني مجلات، منها «الحرية» التي أصدرها محمود فهمي سنة ١٩٠٣، والمنصورة ثماني صحف وست مجلات، وحلوان أربع صحف ومجلة، والجيزة صحيفتين، ولم تخل مدن صغيرة مثل الفيوم، وبلقاس، وشبين الكوم، والمحلة الكبرى، ودسوق، وطوخ، والقرشية، وكفر الزيات، وشربين، وبلبيس وغيرها من الصحف والمجلات الخاصة بها، فقد كان عصر النهضة فرحا باكتشاف الأداة التي يحطم بها العالم القديم ليبني فوق أنقاضه عالما جديدا واعدا بتحقيق أماني النهضة وأحلامها التي لم يتحقق كثير منها إلى اليوم للأسف.

صحيح أن «المجلات الثقافية» كانت لا تختلف عن الصحف في ميلها إلى هذا التيار السياسي الفكري أو ذاك، فكانت هناك الصحافة الوطنية والعثمانية والموالية لقوات الاحتلال هنا أو هناك، فضلا عن الصحافة

الناطقة بلسان حال الأقليات الدينية، ابتداء من المسيحية واليهودية وليس انتهاء بالماسونية التي كانت لها جرائدها ومجلاتها، ولكن هذا التعدد الذي لم يخل من صراع يمكن أن نجد بين عناصره قاسما مشتركا، نرده إلى قوة الدفع التي انطلقت به روح النهضة في النفوس، كل تيار حسب منظوره الفكري، أو تحيزاته السياسية، أو انتماءاته الطائفية أو الدينية. لكن هذا التنوع والاختلاف لم يمنع من وجود القاسم المشترك الذي أسهمت به المجلات الثقافية على وجه التحديد في الإضافة الإيجابية إلى قضايا النهضة وتحدياتها.

- ٢ -

وأتصور أن التحدي الأول الذي كان على المجلات الثقافية أن تواجهه - جنبا إلى جنب الصحافة الحرة - هو الحريات السياسية وما يتعلق بها. وفارس هذا المجال الأول هو عبدالله النديم في مجلاته التي أصدرها مؤازرا الثورة العرابية، ومدافعا عن الحريات التي كان يطلبها الثوار. وجاء أبو نظارة الذي استخدم سلاح السخرية في مجلاته التي واصل إصدارها في باريس حين حيل بينه وبين مخاطبة القراء المصريين بمجلاته، والنظارة بمسرحياته. ويلمع اسم أديب إسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) في هذا السياق الذي كتب بجسارته المعهودة في «مصر القاهرة»، وهي مجلة شهرية:

«أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق، والمدافعة عن الشرق وآله، وعن الفضل ورجاله، فمسلكي أن أكشف حقائق الأمور، ملتزما جانب التصريح، متجافيا عن التعريض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد.. وأن أوضح معايب اللصوص الذين تسميهم اصطلاحا «أولي الأمر» ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما «أمناء الأمة» ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا «ولاة النظام»، وأن أعين واجبات الإنسان الشرقي بالنسبة إلى نفسه وإلى قومه وإلى بلاده وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق. ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية، وأهيج فضالة الدم العربي، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه، ومالا منهوبا فيطلبوه».

أما الحرية الاعتقادية فقد كانت مجلة الجامعة لفرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) بمدينــة الإســكندرية في طليعــة المدافعين عنهــا، وذلك ضمن دعوتهــا إلى الدولة المدنية الحديثة بوجه عــام وما ينبغي أن تقوم عليه هــذه الدولة، فكريا، من «التســامح» الذي كان يطلــق عليه فرح أنطون اسم «التساهل» ترجمة اجتهادية منه للكلمة الأجنبية toleration. وقد كان ذلــك ضمن حوار فكري، دار بين فــرح أنطون من ناحية في مجلته «الجامعة» التي كانت تصدر بمدينة الإســكندرية، والشــيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) مفتــي الديار المصريــة الذي كان يرد على ما يكتبه فرح أنطــون في مجلة «المنار» التي كان يحررها الشــيخ محمد رشــيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥) تلميذ الإمام ويصدرها في القاهرة تحت رعاية أســتاذه وحمايته من ناحية مقابلة.

وقد بــدأ الحوار الذي أخذ شــكل المناظرة الغنية فــي دلالتها، حين كتب فرح أنطون عن الاضطهاد الديني في النصرانية والإســلام، موازيا بينهمــا، في ثنايا ما كتبه عن ابن رشــد، فردّ عليــه الإمام محمد عبده تفصيلا. وردّ فرح أنطون فأوضــح الكثير من أفكاره، خصوصا العلاقة بين العلم والدين، ســاعيا إلى أن يســتبدل بمحاولة ابن رشــد القديمة فــي الوصل بين الحكمة والشــريعة محاولة حديثة في الفصل بين العلم والدين، محتجا بأن العلم يوضع في دائرة العقل، لأن قواعده قائمة على المشــاهدة والتجربة والاختبار. أما الدين فيوضع في دائرة القلب، وذلك بالنظر إلى مبادئه القائمة على التسليم بما ورد في الكتب السماوية من غير فحص أو مساءلة لأصولها. وليس من الجائز القول إن هذه القسمة بدعة في العلم أو هدم لســلطانه، أو حتى تنطوي على تقليل من شــأن الديــن، بحجة أن نصوص الدين تنطوي على معــارف العلوم، وأن العلم يريد البحث في كل شــيء وكل أصل، فالعلم لا ينكر عجزه في كثير من الأحيان، وينبغــي أن يكون حرا مطلق الحرية في معتقد أصحابه. ولكن ليس من الجائز ولا من المقبول، في الوقت نفســه، أن يتخذ العلم حريته هذه مبررا للعدوان على مبادئ غيره، أو يدعو إلى تطبيقها على مبادئه، أو العكس، فإن برهان العلــم (العقل والتجريب) مخالف لبرهان القلب، والعلم متغير، والدين ثابت، والعلم يتطور، أما جوهر الدين فيظل خالدا

باقيا. ولذلك يجب أن يعيش العلم والدين في وئام وسلام في هذه الأرض جنبا إلى جنب، وذلك من غير أن يرهب ممثلو أحدهما ممثلي الآخر. فكلاهما لا غني عنه للإنسانية في حاضرها ومستقبلها.

ويتأكد مستقبل هذه الإنسانية، فيما يؤكد فرح أنطون، بضرورة مبدأ «التساهل» (التسامح) في مواجهة مبدأ التعصب، فالأول هو الأصل والسبب في تحرير فكر الفرد وتحقيق نهضة الأمة بوجه خاص وتقدم الإنسانية بوجه عام، وذلك لأن «التساهل» (التسامح) يعني أن البشر يعيشون تحت مظلة حضارة إنسانية واحدة، غايتها الرقي بالنوع الإنساني، وهي غاية لا تتحقق إلا بقبول الاختلاف بين البشر، وتحويله إلى تنوع خلاق، يكون مصدر غني للإنسانية، وحافزا من حوافز تطورها المستمر، فقبول الاختلاف يعني التسليم بأن المعرفة كالعلم ليست حكرا على أحد، ولا تتقدم إلا بالمخالفة التي تعني السماحة في تقبّل المغايرة، وتعدد طرق الوصول إلى الهدف نفسه.

وكان الإمام محمد عبده بدأ حواره مع فرح أنطون حول ما كتبه ابن رشد بأن نشر في مجلة «الجامعة» نفسها مقاله الأول الذي نشرته «المنار» في الوقت نفسه، ومضى الاثنان - الإمام وفرح أنطون - في تبادل الردود لأشهر، شهدت واحدة من أغنى المساجلات التي أوضحت مفهوم «الدولة المدنية» والفرق بينها و«الدولة الدينية» وأكدت علاقة العلم بالدين، وأهمية العقل للدين، فالعقل - فيما يراه الإمام - حجة الله على خلقه، وإعماله ضرورة لفهم أمور الدنيا والدين، فهو «ينبوع اليقين» الذي منحنا الله إياه «للنظر في الغايات، والأسباب والمسببات، والفرق بين البسائط والمركبات». ولم يفت الإمام الوصل بين تقدم المسلمين وازدهار العقل وحريته. وبين تخلفهم والحجر على العقل وتقييده بالتقليد.

ونشر الإمام ردوده وتعقيباته في ست مقالات نشر واحدة منها في «الجامعة» والباقي في «المنار» ما بين أغسطس ونوفمبر سنة ١٩٠٢، ولم ينس في مقالاته الست تأكيد أن الجمود في فهم الإسلام هو سبب ضعف المسلمين، وأن هذا الجمود ليس بسبب الدين بل بسبب رجاله، وبسبب الساسة والسياسة، خصوصا في اقتران الجميع بطبائع الاستبداد التي أدّت إلى شيوع التكفير، كما أدّت إلى اضطهاد المجتهدين

الخارجين على التقليد الجامد والاتّباع المتكلس. وكان الإمام يعني بذلك أنه لا سبيل إلى تقدم المسلمين إلا بتخلصهم من آفات التعصب والتقليد، والتحليـق بجناحي العقل والعلم في ظل الدين الإسـلامي الذي هو دين العلم والحضارة والمدنية.

وقد كانت مناظرة الإمام محمد عبده وفرح أنطون فيما يتصل بقضايا حريـة الاعتقاد غير بعيدة عن الحوارات الخصبة التي شـغلت المجلات الثقافية، خصوصا في تناغمها وتجاوبها مع الصحافة، في إثارة القضايا التـي تؤكد النهضة وتندفـع بها إلى الأمام. ومن هـذا المنظور، لم تكن محـاورات الحريات الاعتقادية منفصلة عن الحريات السياسـية، فهذه من تلك أو وجهها الملازم، ولنتذكر ما أكده الإمام عن أن جمود المسلمين وتخلفهم وشـيوع التعصب فيهم يرجع إلى شـيوع التعصب الذي اقترن بالتكفيـر، وكلاهما موصول بطبائع الاسـتبداد ونتيجة لغياب الحريات السياسية. ومن المنظور نفسـه، كانت أفكار فرح أنطون تتوجه إلى ذات الهـدف. ومـن ثم تؤكد ضرورة حضـور الدولة المدنيـة التي تحترم كل الأديان، وتتأسس على الدسـاتير والقوانين، وتبني على التسامح الذي يعني حق الاختلاف، ولا يتباعد عن الفصل بين السـلطات. وهو المفهوم الذي لم ينكره الإمام، بل دعمه حين أكد أنه لا سلطة دينية في الإسلام، وأن المسـلمين من حقهم أن يجتهـدوا في فهم دينهم حقهم في الاجتهاد في أمر معاشـهم وحكمهم. وكان ذلـك هو المنطلق الذي مضى منه علي عبدالرازق بعد ذلك، عندما أصدر كتابه «الإسـلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥، عندما أكّد أن الإسـلام ترك تحديد الشـكل السياسـي للحكم لاجتهاد المسلمين، وحسب متغيرات زمنهم وشروط أوضاعهم، فلا ثبات لما يُطلق عليه «الخلافة» التي ليست فرضا دينيا على المسلمين، ولا ركنا ثابتا من أركان الإسـلام. وكان علي عبدالرازق يقوّض بهذه الأفكار حلم الملك فؤاد بأن يكون خليفة للمسـلمين، بعد سـقوط الخلافة العثمانية، وبعد أن وجد تشـجيعا من رجال الدين الذين آزروه في طموحه. وكانت نتيجة صدور كتاب الشـيخ علي عبدالـرازق أن قامت الدنيا ولم تقعد، وفتحت المجـلات الثقافيـة والصحافة بوجـه عام صفحاتهـا للحوار والجـدال حول معنى الدولة الحديثة، وهل لها سـند مـن الدين، أم أن

الدين يؤكد شكلا واحدا قديما للحكم، هو شكل الخلافة؟ وكالعادة، تدخلت السياسة في النقاش، وساندت الأطماع السياسية توجه التقليد الذي قادته مجلة «المنار» التي دشنت الهجوم على كتاب على عبد الرازق، ولم تفرغ منه حتى استعدت للهجوم العاصف على كتاب طه حسين، «الشعر الجاهلي» الذي صدر بعد كتاب على عبدالرازق بأشهر سنة ١٩٢٦، ولكن في مناخ سياسي متغير، وفي عهد حكومة ائتلافية ما بين الوفد والأحرار الدستوريين، فنجا طه حسين، ولم يلق ما لقيه صديقه على عبدالرازق الذي أسقط عنه الأزهر درجته العلمية، وتم فصله من منصب القضاء الذي كان يشغله في مدينة المنصورة، وذلك كله بسبب السياسة التي لعنها الإمام محمد عبده، خصوصا حين أكد أن اقترانها بالاستبداد هو أصل الخراب.

- ٢ -

في تقديري أنه لم يواز قضايا الحريات السياسية والاعتقادية التي حققت فيها المجلات الثقافية، في علاقتها بنظائرها الداعمة في الجرائد، سوى قضية تحرير المرأة، النصف الثاني من المجتمع الذي كان تحريره يعني اكتمال ركن أساسي من أركان الدولة المدنية الحديثة التي تقوم على المواطنة التي تساوي بين الرجل والمرأة، كما تساوي بين أبناء الأمة، بعيدا عن الفوارق الطبقية، أو الطائفية، أو العرقية، أو الجنسية. وكان تحرير المرأة يعني استكمال معنى المواطنة في الدولة المدنية الحديثة من هذا المنظور، ولا يمنحها الحق الطبيعي الذي هو لها بحكم مواطنتها، وبحكم الدستور والقوانين فحسب، بل كان يعني – في الوقت نفسه – الاعتراف بالآخر المغاير في الجنس، وتقويض الأسس التي تقوم عليها عزلة الأقليات، وتحرير نصف المجتمع الذي كان المضيّ في طريق تحريره الكامل يعني تحرير المجتمع بأسره.

والواقع أن المجتمع العربي قطع طريقا طويلا في مدى تحرير المرأة، وهو مدى بدأه الرجال بحكم جمود المجتمع التقليدي، خصوصا من الرواد الذين دافعوا عن تعليم المرأة ودعوا إليه، وعن ضرورة مشاركتها الاجتماعية، وعن تحريرها الذي يوصل إلى «المرأة الجديدة» التي نراها بفضل تآزر جهود الرواد من ناحية، وبسبب الدور الذي لعبته الصحافة

مــن ناحية ثانية، وبســبب جســارة الرائدات اللائي أسســن الصحافة النســائية ومجلاتها الثقافية من ناحية أخيرة. وربما كان من الأمانة أن نُســجِّل دعوات رائدات مثل زينب فواز (١٨٦٠-١٩١٤) إلى مساواة المرأة بالرجل، قبل أن يصدر قاســم أمين كتابيه بســنوات. وقد سبق للأستاذ حلمي النمنم أن أصدر كتابا عن جهود زينب فواز ودورها الرائد في هذا المجال، وتنقّلها من لبنان، حيث جبل عامل في الجنوب الذي تنسب إليه، إلى سورية، ثم اســتقرارها في مصر التي نشرت في صحفها، وناظرت أعداء تحرر المرأة فيها من قبل أن يكمل القرن التاسع عشر أعوامه.

ويبــدو أن أول مــن دخل هذا المعترك هو بطرس البســتاني (١٨٠٤-١٨٨٨) الذي ألقى خطابه الشــهير «في تعليم النســاء» سنة ١٨٤٩، في مدينــة بيروت وكان بذلك ســابقا على ما كتبه أحمد فارس الشــدياق (١٨٠٤-١٨٨٨) ومــا كتبه رفاعــة الطهطاوي عن «تشــريك البنات مع الصبيان في التعلم» في كتابه «المرشــد الأمين في تعليم البنات والبنين» ســنة ١٨٩٧ . ويرصد الأستاذ محمد كامل الخطيب في المجلدات الثلاثة التي نشــرها عن «قضية المرأة» ضمن سلسلة «قضايا وحوارات النهضة العربيــة» التي أصبحت مصــدرا لا غنى عنه في دراســة تطور الوعي الثقافي والاجتماعي والإبداعي في الوطن العربي، أقول: يرصد الأستاذ الخطيب المقالات التي شــهدتها المجلات (والجرائد) الثقافية عن تعليم النساء، على نحو ما وجد في مجلة «الثريا» التي كتب فيها موسى صيدح عــن المرأة والتعليم ســنة ١٨٩٧، وما أثارته مجلــة «المقتطف» من جدل حول الرجل والمرأة سنة ١٨٨١، وهو الجدل الذي أظهر أكثر من رأي في المقابلة بين أوصافها وأوصاف الرجل الجسدية. ومضت مجلة «المقتطف» في هذا الاتجاه، فنشــرت مقالا للدكتور شــبلي الشميل (١٨٥٣-١٩١٧) بعنوان «المرأة والرجل : هل يتســاويان؟». وذهب شــبلي الشميل إلى أن مــخ الرجــل أكبر من مخ المرأة بمــا يمنحه ميزة عليها. وما إن نشــرت المقتطف مقاله ســنة ١٨٨٦ حتى تتابعت المقالات المعارضة من النســاء في المقتطف طوال ســنة ١٨٨٧، فكتبت م. أ. ي. دفاعا عن النساء، كما كتبت راحيل حجار ومريم مكاريــوس ومريم مطر، ودخل المناظرة خليل ســعد، وحاول شبلي الشــميل التعقيب والدفاع عن رأيه الذي نسبه إلى

العلم بوصفه طبيبا، والذي أهاج عليه المثقفات من نســاء العصر اللائي رفضــن رأيه وفنّدنه بالحجة المقنعــة. ويبدو أن مجلة «المقتطف» أخذت على عاتقهــا طرح قضية المرأة أكثر من غيرهــا، ودليل ذلك المناظرات التــي دارت علــى صفحاتها، ما بــين عامــي ١٨٨٤ و١٨٨٦، حول تعليم النســاء، فكتبت فيها سلمى طنوس عن «تعليم النساء وتربيتهن» وحرمي جرجي إليان عن «حقوق النســاء ووجوب تعليمهن». وأسهم فيها يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧) الذي أنشأ مع زميله فارس نمر (١٨٥٦-١٩٥١) مجلة «المقتطف» في لبنان سنة ١٨٧٦، وانتقل بها إلى مصر سنة ١٨٨٥، حيث ازدهرت وحققت تأثيرها الفاعل بسبب تحيزها إلى قضايا التقدم من ناحية، وتأكيدها شــئون «العلم والعمران» الذي أصدر فيها صروف كتابا مســتقلا من ناحية موازية. وكان تعقيب صروف بعنوان «النظر في حاضرنا ومســتقبلنا». وهو عنوان يخرج مــن المناظرة إلى الأفق الواعد الذي تتطلع إليه المجلة، وتسعى إلى تحقيقه، وذلك غير بعيد عن السياق الذي أضافت فيه إلى المناظرة شــمس شــحادي بعنوان «الحق أولى أن يقال» ومريان ماريا عن «واجبات المرأة». وهي مناظرة تتجاوب مع غيرها الذي دار على صفحات «المقتطف» التي يستحق دورها التاريخي تسليط الضــوء عليــه، وإظهاره للوعــي للحديث، خصوصا في تعــدد مجالاته وتوجهاته المتقدمة في عصرها.

وكان مــن الطبيعــي أن تفتح مثل هذه المناظرات أفق الكتابة للنســاء المتعلمات، كي يســهمن في الدفاع عن تعليــم المرأة أولا، وضرورة عملها ثانيا، وعلاقة المســاواة التي لابــد أن تربطها بالرجل ثالثا، بل عن نظرة المــرأة إلــى قضيتها أخيرا. وهو الموضوع الشــائك الذي لــم تتردد في اقتحامه عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢) ولبيبة هاشم (١٨٨٠-١٩٤٧) التي أنشــأت مجلة «فتاة الشــرق»، ونشــرت مقالا دالا بعنوان «خطاب للســيدات» في مجلــة «الجنان» ســنة ١٨٩٧، ولم تكــن وردة اليازجي (١٨٣٨-١٩٢٤) الشاعرة بعيدة عن القضايا الجديدة التي أخذت تثيرها حركة تحرير المرأة، وذلك في موازاة الداعية الجســورة زينب فواز التي قرنــت تقدم المرأة بتقدم الأمة، جنبا إلى جنب الجيل التالي من النســاء الذي كانت هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧) على رأسه، وطليعته، خصوصا

في الدور السياسي للمرأة، وتجميع جهودها في الاتحاد النسائي الذي أنشأته، وتصدرها مظاهرات ثورة ١٩١٩ في مواجهة جنود الاحتلال البريطاني، وذلك في سياق الثورة الوطنية العارمة التي أدّت إلى تغيرات جذرية في المجتمع المصري، وحسمت قضية النقاب الذي رفعته المرأة المصرية الثائرة، متحدية التقاليد البالية، المرأة التي سرعان ما رفعت الحجاب كذلك، وذلك على الرغم من استمرار الخلاف حول الحجاب والسفور. وهو الخلاف الذي بدأ في الاحتدام مع صدور كتاب قاسم أمين عن «تحرير المرأة» سنة ١٨٩٩.

ولا أدلّ على الحيوية التي أثارتها المجلات الثقافية (مع الصحافة) حول قضايا المرأة من مشاركة أصحاب الرأي ورجال الفكر فيها، ابتداء من بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وإبراهيم الأحدب (١٨٢٦-١٨٩١) وولي الدين يكن (١٨٧٣-١٩٢١) ومحمد فريد وجدي (١٨٧٨-١٩٥٤)، وليس انتهاء بفيلكس فارس (١٨٨٢-١٩٣٩) وعشرات غيرهم من الذين أسهموا بالتأييد أو المعارضة أو التحفظ على قضايا تحرير المرأة. وكانت «المقتطف» - مرة أخرى - رائدة في هذا، سواء في إثارتها القضية في عمومها العربي، أو في خصوصها الذي يتصل بهذا القطر أو ذاك، كما فعلت في المناظرة التي دارت على صفحاتها حول بنات سورية، واشتركت فيها مريم سركيس ومريم مكاريوس إلى جانب سليم موصلي وغيره. ولم تتردد «المقتطف» في الكتابة عن «مخترعات النساء» سنة ١٨٨٧ لكي تؤكد لقرائها أن الاختراع في العلم ليس مقصورا على الرجال، وإن إمكانات تفوق المرأة وإبداعها فيه مفتوحة بلا حدود، دليلها على ذلك مدام ماري كوري (١٨٦٧-١٩٣٤) التي نالت مع زوجها بيار كوري (١٨٥٩-١٩٠٦) جائزة نوبل سنة ١٩٠٣ بعد سنوات معدودة من حديث «المقتطف» عن مخترعات النساء، فكانت مصدر إلهام للمجتمعات المتطلعة إلى تحرير نسائها، وللنساء المتحرقات شوقا إلى اقتحام مجال العلوم الذي ظل لوقت طويل مغلقا في أوجههن، شأنه في ذلك شأن مجالات أخرى كثيرة غيره، حالت بين المرأة وبينها العقول الجامدة في المجتمعات العربية.

ولم يكن من الغريب - والأمر كذلك - أن تُنشئ المرأة العربية مجلاتها

الثقافيـــة الخاصة، بعد أن أســـهمت بقلمها في الصحافـــة اليومية مع الرجال، وفي مواجهة المقاومين لتحررها. وكان إقبال المرأة على إنشاء مجلاتها تعبيرا عن رغبتها في تأكيد حضورها الثقافي المستقل، بوصفه بعض التنوع الذي اتسمت به المجلات الثقافية في تطورها، وفي علاقتها بحركة تحرير المرأة التي أدّت إلى ازدهار ما أصبح يُعرف - فيما بعد - باســـم «الصحافة النسائية». وقد شـــهدت مدينة الإسكندرية البداية الأولى للمجلة الثقافية النسائية ســـنة ١٨٩٢. وكان ذلك حين أنشـــأت هند نوفل مجلة «الفتاة» الشهرية التي صـــدر عددها الأول في العشـــرين من نوفمبر ســـنة ١٨٩٢. وبعد ذلك بسنوات أنشأت الأميرة ألكسندرا إفيرنوه (١٨٧٢-١٩٢٧) اللبنانية الأصـــل مجلـــة «أنيس الجليس» التـــي صدر عددهـــا الأول في الحادي والثلاثين من يناير سنة ١٨٩٨ في مدينة الإسكندرية التي احتضنت نشأة المجلات الثقافية دون غيرها من المدن المصرية، وذلك في الســـياق الذي شـــهد مجلة «السيدات والبنات» التي أنشأتها روز أنطون، وصدر عددها الأول في مطلع مارس ١٩٠٣، وبعدها مجلة «ترقية الفتاة المصرية» التي أصدرتها نبوية موسى من الإسكندرية في الخامس من يونيو ١٩٢٣.

وانتقلت حركة إنشـــاء المجلة الثقافية النســـائية من الإســـكندرية إلى القاهرة، وإلى بيروت، فتتابعت المجلات منذ أواخر القرن التاســـع عشر، فصـــدرت مجلة «الفردوس» التي أصدرت لويزا حبالين عددها الأول في القاهرة في الخامس عشـــر من يونيو ١٨٩٦، وبعدها «مرآة الحســـناء» لمريم مزهر(اســـم مستعار) التي ظهر عددها الأول في الأول من نوفمبر ١٨٩٦، ثم مجلة استير مويال «العائلة» التي شهدت القاهرة عددها الأول ســـنة ١٨٩٩. وكان ذلك كله في التتابع الذي أصدرت فيه أنيسة عطاالله مجلة «المرأة» في الســـادس من يوليو ١٩٠١. وهو التتابع الذي وصل إلى ذروته مع ثورة ١٩١٩ وفي أعقابها، خصوصا بعد أن فجّرت الثورة كثيرا من الحواجز التي كانت تعرقل تقدم حركة المرأة.

وكان ذلك في الســـياق الذي ظهرت فيه «فتاة الشـــرق» للبيبة هاشـــم (١٨٨٠-١٩٤٧) ســـنة ١٩٠٦ و«الريحانـــة» لجميلـــة حافظ ســـنة ١٩٠٧ ومجلـــة «ترقيـــة المرأة» لفاطمة راشـــد ســـنة ١٩٠٨ و«الجنس اللطيف» لملكة ســـعد في العام نفسه و«فتاة النيل» لسارة المهية سنة ١٩١٣ ومجلة

«المرأة المصرية» لبلسم عبدالملك ١٩٢٠، وتبعتها مجلات «شجرة الدر» لمنيرة منصور سنة ١٩٢٢، و«الأمل» لمنيرة ثابت سنة ١٩٢٥، وفي موازاة ذلك، شهدت بيروت مجلة «المرأة الجديدة» لجوليا طعمة دمشقية سنة ١٩٢١، ومجلة «منيرفا» لماري ينّي سنة ١٩٢٣، و«الفادة» لإيليا بارودي سنة ١٩٠٣.

ومن السهل تبرير نشأة المجلات الثقافية النسائية في الإسكندرية بسبب انفتاح مجتمعها الثقافي على العالم المتقدم أكثر من القاهرة التي لم تخل من نزعات محافظة، فضلا عن الجاليات الأجنبية التي أكدت بسلوكها وثقافاتها حضور حركة تحرير المرأة ودعّمتها. وأخيرا، الدور الذي لعبه المهاجرون الذين تركوا لبنان بسبب الفتن الطائفية، واستقروا بالإسكندرية التي وجدوا في مجتمعها المفتوح أفقا واعدا لأفكارهم عن الدولة المدنية الحديثة التي تنبني على المساواة بين المواطنين، ولا تمايز بينهم على أساس طائفي أو عرقي أو جنسي. ولذلك أصدرت هند نوفل اللبنانية الأصل مجلتها «الفتاة». وأصدر فرح أنطون القادم من طرابلس مجلته «الجامعة»، وقبلهما سليم تقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) وبشارة تقلا (١٨٥٢-١٩٠١) اللبنانيان اللذان أنشآ جريدة «الأهرام» في مدينة الإسكندرية أولا سنة ١٨٧٦، قبل انتقالها إلى القاهرة. وقد لحق بهما جرجي زيدان الذي عمل مصححا في «الأهرام» - أيام أن كانت في الإسكندرية - وانتقل منها إلى القاهرة التي أنشأ فيها مجلته «الهلال». وقل الأمر نفسه عن اليازجي وصاحبي «المقتطف» التي شهدت ازدهارها الحقيقي في مصر، ومئات غيرهم من الذين رعتهم الديار المصرية، وفتحت لهم حضنها، وأتاحت لهم أن ينجزوا فيها ما أضاف إليها وما أفادت منه حركة الاستنارة بوجه عام وازدهار المجلات الثقافية بوجه خاص.

- ٤ -

والواقع أننا لا يمكن أن نترك دور «المجلات الثقافية» في تأسيس النهضة دون الإشارة إلى ثلاثة إنجازات: أولها فتح أفق الحوار الثقافي مع العالم المتقدم كله، وتقديم أفكاره وتياراته وفنونه الإبداعية الجديدة إلى القارئ العربي، الأمر الذي أخرج هذا القارئ من عزلته، وعمّق

فيه الوعي بأنه ينتسب إلى المعمورة الإنسانية التي لا يتناقض انتسابه إليها مع انتمائه إلى وطنه أو إلى عروبته أو دينه. ولذلك كانت مجلات مثل «الهلال» و«المقتطف» و«الجامعة» وغيرها تقدم أشهر زعماء العالم، وأبرز تياراته وأحداثه الثقافية والاجتماعية والسياسية، عمادها في ذلك التعريف والمقارنة. التعريف بالجديد غير المعروف في الثقافة العربية (من أفكار مثل الاشتراكية وإنجازات الحركات النقابية العمالية على سبيل المثال)، ولذلك شاعت حتى في عناوين الصحف والمجلات كلمات مفتاحية مثل «العصر الحديث» و«الدنيا الجديدة» و«التقدم» و«التطور» و«الحياة العصرية». وكان ذلك في موازاة المقارنة بين واقع الحال في العالم المتقدم وواقع الحال عندنا، الأمر الذي طرح السؤال عن سر تقدم الغرب وتخلف الشرق، وذلك في سياق يستعيد إنجازات الماضي العربي العظيم، ويقوم بتسليط الضوء على الإسهام العربي الحضاري الذي بدأت أوربا من حيث انتهى مدّه الصاعد، فانطلقت هي وتخلّف العالم العربي.

ويتصل ثاني هذه الإنجازات بإعادة تأصيل حضور «العلم» في الثقافة، والتعريف بتطوره في العالم المتقدم، وتأجيج رغبة السير في الطريق الذي أفضى إلى تقدم «العلم الغربي» الذي بدأ من حيث توقف العلم العربي، لكن ليس من منظور البكاء العاجز على الماضي الذاهب، وإنما من منظور الرغبة الملتهبة في اللحاق بالمتقدم. ولابد - مرة أخيرة - من الإشادة بالدور الذي قامت به مجلة «المقتطف» في هذا المجال، فقد كانت أكثر المجلات اهتماما بأمور العلم الجديد وتقديم مخترعاته، وذلك بحكم التكوين العلمي لمحرّريها الأساسيين. وهو الأمر الذي تابعتها فيه مجلات أخرى مثل «الهلال» وغيرها من المجلات التي اهتمت بجعل «العلم» مكونا من مكونات الوعي الثقافي العام الذي سعت هذه المجلات إلى ترسيخه. وهو هدف اقترن بإنشاء المجلات المتخصصة في فروع العلم المختلفة التي وجدت إقبالا عليها من القراء المهتمين. والدور الذي قام به طبيب وفيلسوف اجتماعي مثل شبلي الشميل (١٨٥٣-١٩١٧) لا يمكن إغفاله في هذا المجال، فهو رائد نظرية التطور في العالم العربي، أصدر مجلة «الشفاء» (١٨٨٦-١٨٩١)، وعرّف بمذهب داروين،

وقدمه في كتب من مثل «فلسفة النشوء والارتقاء» و«شرح بخنر على مذهب داروين». وكان في ريادته استهلالا لما أكمله إسماعيل مظهر (١٨٩١-١٩٦٢) الذي أصدر مجلة «العصور» ورأس تحرير «المقتطف» في فترة من فتراتها، وكتب في مذهب النشوء والارتقاء، مثلما كتب عن «معضلات المدينة الحديثة» كتابا لا يقل أهمية عن كتابه «المرأة في عصر الديموقراطية» و«نزعات الفكر الأوربي». ولذلك لم يكن من الغريب أن نجد طبيبا شاعرا هو أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢-١٩٥٥) ينشئ مجلة في العلوم، توازي مجلة الشعر «أبوللو» التي كان لها دورها البارز في حركة التجديد الشعري.

ولا ينفصل عن هذا الإنجاز، والذي سبقه، الدعوة إلى إنشاء الجامعة الحديثة، وهي الدعوة التي لا يكتمل حضور «العلم» دونها. وقد شهدت بواكيرها مجلة «الهلال» ومجلة «المنار» التي دعا فيها محمد عبده إلى إنشاء جامعة مدنية حديثة على النمط الأوربي، تُسهم في التقدم العلمي وتحقق وعوده، وتواجه جمود مشايخ الأزهر الذين اشتكى منهم الإمام وعانى من جمودهم. وقد اتفق الإمام بالفعل مع عدد من الأثرياء على إنشاء الجامعة، ولكنه توفى سنة ١٩٠٥ قبل أن يحقق حلمه، فانتقل الحلم إلى الطليعة التي ضمت سعد زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧) وقاسم أمين (١٨٦٥-١٩٠٨) وغيرهما من الذين واصلوا الطريق إلى نهايته، فكانت «الجامعة الأهلية» التي افتتحت في أواخر ١٩٠٨ «إن لم تخني الذاكرة».

ويوازي هذا الإنجاز، لكن في مجال مغاير، أن المجلات الثقافية فتحت الأبواب لترجمة الأنواع الإبداعية الجديدة التي لم يعرفها العرب، على الأقل في شكلها الحديث، فقامت هذه المجلات بترجمة فنون الرواية عن الأدب الأوربي، في موازاة ترجمة المسرحيات. وكان كلا النوعين تعبيرا إبداعيا موازيا لصعود الطبقة الوسطى وصعود الأفندية الجدد في المدينة الحديثة، متعددة الأعراق واللغات والمصالح، المدينة التي أصبحت فضاء فئات الأفندية المطربشين التي أخذت تحل تدريجيا محل طوائف المشايخ والمعممين. أقصد إلى الفئات التي تعلمت تعليما مدنيا، وأخذت تقبل على الأنواع الأدبية الجديدة التي تولّت المجلات

الثقافية في ترجمتها، فلم تجتذب الذكور من القراء فحسب، بل اجتذبت النساء القارئات اللائي أقبلن على الروايات المترجمة، خصوصا الروايات «الحبّية» بلغة العصر.

وكما أدى تبنّي المجلات الثقافية العامة لقضية المرأة إلى تتابع إنشاء المجلات الثقافية النسائية، في سياق النهضة، أدى اهتمام هذه المجلات بالفنون الأدبية الجديدة إلى إنشاء مجلات متخصصة في ترجمة الروايات أولا، ومختصة بفن المسرح ثانيا، وذلك في السياق الذي أدّى، أخيرا، إلى ظهور المجلة الأولى المهتمة بفن السينما.

وقد أحصيت - بفضل قوائم الفيكونت دي طرازي - صعود مجلات الروايات التي استهلّت نشرها مجلة «الجنان» التي نشرت روايات سليم البستاني التي لم تنشر منفصلة إلى اليوم. وكانت خطوة «الجنان» بداية الطريق الذي مضت فيه مجلة «سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات» التي نشرها نخلة قلفاط في بيروت سنة ١٨٨٤، و«ديوان الفكاهة» الشهرية التي شملت روايات تاريخية وغرامية، أنشأها سليم شحادة وسليم طراد في بيروت سنة ١٨٨٥، وتولى تعريب رواياتها شاكر شقير، و«حديقة الأدب» التي أنشأها نجيب جرجور لينشر فيها الروايات التي ألّف بعضها وعرّب بعضها الآخر عن أشهر ما كتبه الإفرنج. وانتقل هذا النوع من المجلات من بيروت إلى القاهرة في التتابع الذي بدأته سلسلة الروايات التي أصدرها محمود خضر وبشير شوكتلي، وظهر عددها الأول في الخامس من أغسطس ١٨٩٩، ويصل التتابع بين «الروايات الشهرية» ليعقوب جمال (١٩٠٥) و«حديقة الروايات» (١٩٠٩) و«سلسلة الروايات» (١٩٠٩) و«الروايات الجديدة» لنقولا رزق الله (١٩١٤) و«الروايات الأسبوعية» (١٩١٦). وأضيف إلى ذلك مجلات المسرح التي بدأت مع مطلع القرن العشرين بمجلة «التمثيل» التي أصدرها محمد أمين في القاهرة ١٩٠٠، وبعدها بسنوات أصدر إبراهيم رمزي «الأدب والتمثيل» في أبريل ١٩١٦، وبعدها «المسرح المصري» (١٩١٩) ثم «التياترو» لإدوارد كحيل ومحمد شكري (١٩٢٤). ولا نصل إلى سنة ١٩٢٤ حتى تقابلنا مجلة «معرض السينما» التي أنشأها محمد عبداللطيف. وكانت الحلقة الجديدة في سلسلة المجلات التي اتسمت بآفاق المعرفة الأدبية، وتوسعت

فــي المفاهيم الثقافية بما وصل الأدب بالفنون من ناحية، ووضع القارئ في الوضع نفسه للمشاهد الذي أخذ يسمع عن السينما، ويقرأ أخبارها العالمية، ويُقبل على ما أتيح له مشاهدته منها.

- ٥ -

كانت تسمية «مرايا الأحوال» تسمية لائقة بالصحافة التي تكرر وصفها بالمرآة والمرايا على لسان روادها ورائدتها. والواقع أن هذه التسمية دالة على جانب مهم من دور المجلات الثقافية في حياتنا. وذلك منذ نشـأتها التي كانت بها المجلات - كالصحافة بوجه عام - مرايا لزمنها، ولا تزال مرايا لزمننا الحاضـر. وأتصور أن هذا البعد بالغ الأهمية في الحديث عــن الدور الذي تقــوم به المجــلات الثقافية في التاريــخ الثقافي بكل مجالاتــه والتاريخ الاجتماعي بكل لوازمــه. أقصد إلى أن هذه المجلات تقدم تفاصيل المشاهد والأحداث التي تغيب عن كتب التاريخ الإجمالي، وتضع المتابع لتغير أشـكال الوعي المجتمعي والثقافي في قلب المشــهد الحي لهذه اللحظة التاريخية أو تلك، فيطالعها كما لو كان يُطالع شاشة حيــة، يرى فيها ما لا يراه في المصادر والمراجــع التقليدية. ويزداد هذا البعــد أهمية، حينما ندرك أن ما لا نعرفه من سـياقات الفكر والثقافة فــي تاريخنا العربي الحديث أكثر بكثير مما نعرفه، وأن العناصر التكوينية لهذه السـياقات أشبه بجبل الجليد الذي يبدو طافيا على سطح الماء، لا نرى منه إلا أقله، بينما لا نرى الجزء الأكبر منه الذي يختفي تحت سـطح الماء. وقد سبق لي إدراك هذه الحقيقة حين أشرفت على إعادة طبع مجلة «روضة المدارس» التي شـعرت بأهمية إعادة نشرها حين أتيح لي الإشراف على دار الكتب المصرية. وقد خرجت من تأمّل صفحات هذه المجلة بمئات من التفاصيل التي لم أكن أعرفها عن الأوضاع الثقافية والإبداعية في عصر النهضة، وازددت بالاطلاع عليها معرفة بما كنت أحسـب أني أعرفه عن تاريخ الاسـتنارة المصرية والعربية، بل اكتشفت أن ما لا أعرفه أضعاف ما أعرفه. وقد دفعتني صدمة المعرفة الجديدة إلى مراجعة مجلات مثل «الهلال» و«المقتطف» و«المشرق» و«البيان» و«الزهور» و«الضياء»، إضافة إلى «الجامعة» و«المنار» ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. وقد خرجت من هذه المراجعة بثروة

هائلــة من الزاد المعرفي، وإدراك مســتقر أنه لا غنى لمن يريد أن يعرف التفاصيل، ويرى التاريخ الثقافي حيــا في وقائعه وصراعاته وعلاقاته، من العودة إلى المجلات الثقافية للعصر.

وعلى ســبيل المثال، نحن نقرأ إجمالا ما ذكر عن أزمة كتابي «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق و«الشــعر الجاهلي» لطه حسين، ولكن عــودة متأنية إلى مجلة «المنار» أو «الزهور» ومقارنتهما بصحافة الجبهة الأخرى مثل «السياســة» اليومية والأســبوعية تبرز الصورة من منظور مختلف، أكثر حيوية في علاقاته المتداخلة المتشابكة، وصراعاته الفكرية التي يختلط فيها الديني بالسياسي والسياسي بالاجتماعي، غير بعيد عن مراكز القوى الموجودة في المجتمع، ابتداء من القصر الملكي والاســتعمار وليس انتهاء بالقوى الوطنية.

ويبدو أن تزايد الوعي بأهمية المجلات الثقافية التي أشير إليها - على سبيل التمثيل - في استكمال تتابع المشهد الثقافي وتغير علاقاته هو الذي دفع إلى إعادة طبع مجلات مثل «المنار» و«الجامعة» و«التنكيت والتبكيت» و«الأستاذ» و«الضياء» و«البيان» و«الزهور» و«أبوللو» و«الرسالة» وغيرها مــن المجلات التي لعبت دورا مهما في تاريــخ الثقافة العربية الحديثة. ولكن لا تزال عملية إعادة طبع هذه المجلات عملية عشوائية بوجه عام، لا تخضــع لمخطــط دقيق ولا رؤية شــاملة، تصل ما بــين عيني الطائر وعدســة المجهر في إدراك العلاقات المتشابكة بين الجزئيات المعلوماتية مهما كان حجمها.

وقد أكدت هذا الجانب من تاريخ المجلات الثقافية في مقال نشــرته بمجلة «العربي» في مايو ١٩٩٨، بعنوان «أهمية الجريدة والمجلة». وأكدت في هذا المقــال أن الفارق كبير بين من يعرف زمنا من الأزمنة، حقبة أو فترة أو مرحلة، بواســطة اســتعادته في كتاب لمؤرخ من المؤرخين والنفاذ إلى ذلك الزمن مباشــرة بواســطة مجلاته وجرائده. في الحالة الأولي، تُخْتَزل ملامــح الزمن وتفاصيله في ملامح عامــة لا تخلو من التجريد بالضرورة، وتتبنى على صياغة هي - في النهاية - رؤية المؤرخ التفسيرية التــي لا تخلو من قدر من التحيُّــز، صغر أو كبر، يدفع إلى تصغير دلالة وقائــع وتكبير أخرى بالقدر الــذي يُعيد بناء الأحداث بمــا يبرز نظرة

المؤرخ ومقصدها. وفي الحالة الثانية، يدخل القارئ، مباشـرة، بواسطة صفحات الجرائد والمجلات إلى الواقع الحي لتفاصيل المشهد التاريخي للزمن الذي يسترجعه، ويتحرك حركة حرة ما بين الوقائع والأحداث بما يسمح له أن يرى أسبابها ونتائجها من أكثر من منظور أو زاوية. وكل ذلك فـي موازاة ما يُتاح له من مراقبـة علامات التحول البطيء الذي يتراكم دون أن يلفت الانتباه إلى أن يفرض نفسه فيغدو تغيرا حاسما.

ولذلـك نتائج بالغة الأهمية في إعادة قراءة تاريخنا الثقافي الـذي لا نـزال نجهل الكثير مـن ملامحه، ولا نزال نستسـلم لضعف الذاكرة القومية التي تنسـى من أحداث تاريخها القريب ما يمكن أن يكون عونا لها في مواجهـة تحديات التاريخ الحاضر وتراجعاته وانتكسـاته. ومن الـذي يمكن أن ينكر الحيوية الثقافيـة لما أطلق عليه «العصر الليبرالي» بالقياس إلى التراجع الثقافي الذي أخذنا نعاني منه منذ سـنوات ليست قليلة بسبب عوامل متعددة، متضافرة ومتآزرة. إن المراجعة هنا لا تهدف إلى إحياء ماض أو اسـتعادته، وإنما إلى إنعاش ذاكرة ثقافية لا تنفصل عن تراثها الخلّاق، وتبدأ من حيث انتهى السـابقون، صعودا إلى القادم الواعد بتحقيق ما لم يتحقق من أحلام التقدم.

وقـد ضربت على ذلـك مثالا ببعـض القضايا التي شـغلت المجتمع الثقافي المصري كله، لكنها سرعان ما نُسيت بعد أن حسم أمرها، وظلت دلالة النقاش نفسـها فـي حاجة إلى المزيد من الكشـف. أعني - على سـبيل المثال - قضية الاختيار بين العمامـة والطربوش والبرنيطة التي احتلت من النقاش مـا تداخلت فيه دوافع الوطنية والقومية مع الدوافع الدينية. ويتصل بذلك ثورة أبناء مدرسة «دار العلوم» على زيهم التقليدي، وهجرهم العمامة إلى الطربوش. ووصل الأمر بالثائرين إلى عقد مؤتمر بأحد مدرجات المدرسة، قرروا فيه توجيه الدعوة إلى جميع أولياء الأمور، يدعونهم إلى تأييد حركتهم في استبدال زي الأفندية بزي المشايخ. وقد تعاطفت معهم بعض مجـلات العصر وجرائده، خصوصا بعد أن تعاهد الطـلاب على أن يأتوا جميعا بالزي العصـري، متخلين تماما عن الزي القـديم. ودارت معركة بينهم وحماة الزي القديم من مشـايخهم الذين استعانوا بالشرطة لمواجهة المتمردين. لكن الحياة الثقافية انتصرت لهم،

ودافــع عنهم مــن دافع من المثقفين الليبراليــين، وتحفّظ من تحفظ من أمثــال محب الدين الخطيب الذي صاغ رأيه فــي عدد مجلة «الزهراء» الصادر في جمادي الثانيــة ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م). ولكن تحفظ المتحفظين سرعان ما انداح تحت اندفاع حركة التجديد في مدرسة دار العلوم التي انتقلت من زي المشايخ إلى زي الأفندية، ومن لقب مدرسة إلى لقب كلية الذي لا تزال عليه إلى اليوم.

وأتصــور أن صفحة حية مثل هذه الصفحة من تاريخنا الثقافي يمكن أن تبــين لنا عن الدوافع المتصارعة التــي انتقلت من الزي إلى التيارات الفكريــة التي لا تــزال تنطوي عليها كلية «دار العلــوم» إلى اليوم. وهي صفحة تضيف إلى حيوية وعــي الذاكرة الثقافية العامة بماضيها الذي لم نعد نعرفه، والذي نسـيته مع الأســف، فنسيت بعض مكونات قوتها. أقصد إلى هذه القوة التي يمكن أن تستعيدها عندما تجتلي هذه الذاكرة ميراثها من خــلال «المجلات الثقافية» التي هي مرايــا زمنها، ولا تزال مرايا زمننا الذي ســوف يرى فيه أبناؤنا وأحفادنا مشـكلاتنا وهمومنا وتحدياتنــا وأحلامنا. وما أنجزناه على طريق التقدم وما لم نســتطع أن ننجزه إلى اليوم. وتحول بيننا وبينه عقبات كأداء، نرجو أن يتخلص منها الآتون بعدنا.

- ٦ -

ويقودنا ذلك كله إلى حاضر «المجلات الثقافية» التي تزايدت وتعددت وتنوعت، وأصبحت موضوعا للمنافســة الإيجابية بين الأقطار العربية. ولا يزال زمننا يشهد من جوانب السلب والإيجاب الكثير الذي يدفع هذه المجلات إلى الأمام أحيانــا، ويجرها إلى الخلف في أحيان أخري. على مســتوى الإيجاب، هناك التقدم التكنولوجي الذي انعكس على الطباعة المتقدمــة، موصــولا بثورة الاتصــالات التي اقترنت بحضــور الإنترنت الــذي صنعت مجــلات متكاثرة مواقع لها عليه، فاتســع بدوائر قرائها، واختــرق حواجز الزمــان والمكان. وهناك اتســاع هوامش الحرية الذي اقترن بمتغيرات التاريخ الحديث ومجالاته المتعددة، سياســيا واجتماعيا وثقافيــا وفكريا، وذلك فــي موازاة تراكم الخبــرات الفنية الذي يتجلى فــي الإخراج الفني للمجلة الذي يتزايــد إتقاناوجمالا، في موازاة تراكم

الخبرات التحريرية التي تقترن بشمول المنظور، وعالمية الوعي، وابتداع أبواب جديدة، تفتح أمام القارئ من الآفاق المعرفية ما لم يكن متاحا له من قبل.

ولكن هناك عوائق لا تزال قائمة على مستوى السلب: أولها عائق الحريات الذي يجعل لكل مجلة ثقافية سقفا لا تجاوزه، شأنها في ذلك شأن غيرها من وسائل الإعلام. ويختلف هذا السقف، ارتفاعا وانخفاضا، ما بين قطر عربي وغيره، حسب عوامل ليس هنا محل رصدها، وما بين المجلات المطبوعة في العالم العربي عموما والمطبوعة خارجه، خصوصا في أوربا التي لا يزال يصدر في عواصمها عدد من المجلات الثقافية. وقد تحايلت بعض المجلات على هذا العائق بإصدار أكثر من طبعة، تناسب كل منها هذا البلد العربي أو ذاك. كما فعلت مجلة «الآداب» البيروتية في فترة من فتراتها. ولكن أصبح هذا الاختيار مُلْغيً بسبب تقدم الاتصالات الإلكترونية، وإمكان قراءة المجلة على الإنترنت فور صدورها، ومن ثم ملاحظة أي اختلاف في طبعاتها. وهو الأمر الذي قضى على هذه الحيلة التي لم تعد تفلح مع تراكم المحرمات التي لم تعد تشمل المحرمات التقليدية، الدين والجنس والسياسة. بل تزايدت على نحو ملحوظ آخذ يهدد حرية الفكر.

وأتصور أن عائق الحريات هو أهم العوائق التي لا تزال تواجه المجلات الثقافية، تستوي في ذلك المجلات المدعومة من حكومات غنية، تتيح لمجلاتها دعما ماليا يتيح لها مدى أوسع من الانتشار والتوزيع، والمجلات الأقل دعما التي لا تصل إلى المدى نفسه من الانتشار.

ويبدو أن نجاح المجلة الثقافية في مواجهة هذه العقبة يعتمد على مرونة هيئة التحرير التي تُوفِّق بين الممكن والمباح والمسكوت عنه، ساعية إلى توسيع دوائر الحرية على نحو تدريجي، لا يستفز أعداء الحرية، فيدفعهم إلى الانقضاض على المجلة، والعمل على إغلاقها. وقد سبق للشاعر أحمد شوقي أن صاغ هذه المرونة في التعامل مع الواقع ومراوغة مخاطره بقوله:

إن الأراقم لا يُطاق لقاؤها
وتنال من خلف بأطراف اليد

وأعتقد أن هذه المرونة هي الشـرط الأول في نجاح المجلات الثقافية، وهو شـرط مقرون بشـمول نظرة رئيس التحرير، وتبنّيـه رؤية ثقافية، واعية بشروط مجتمعه، ساعية إلى تجاوزها في الوقت نفسه. ولا جدال فـي أن مكانة رئيس التحريـر وثقله الثقافي يضيف قوة دفع خلاّقة إلى انطلاق المجلة الثقافية. وهي قوة دفع تتزايد بمعاونة هيئة تحرير واعية، ذات خبـرة معرفيـة وفنية وتقنية وتحريرية عاليـة. ودليل ذلك ما نراه من انحدار عدد من المجلات الثقافية بسـبب تغير رئيس تحريرها الذي يُضفـي على المجلة من حضـوره الثقافي الذي لابـد أن يكون بارزا، أو بسـبب ضعف هيئة التحرير التي هي عـون لرئيس التحرير على إنجاز غايته.

وهناك عائق التمويل، خصوصا مع تغير الأحوال الاقتصادية، والارتفاع المذهل في التكلفة المالية لإنشاء المجلة، الأمر الذي أدى إلى عجز الأفراد عن إنشـاء مجلاتهـم الخاصة، مثلما فعل فرح أنطون أو محمد رشـيد رضا أو شـبلي الشميل وغيرهم. وكانت شروط إصدار المجلة، في حالة الأفراد ولا تزال، معتمـدة على دعم خارجي، وإلا توقفت المجلة، وقصر عمرهـا، أو ارتبكت مواعيـد صدورها. وقد أدّى الارتفـاع المذهل في التكلفة المالية، خصوصا في زمننا، إلى قصر عملية إصدار المجلات على الحكومات، أو على المؤسسـات الثقافية الغنية إلا في حالات اسـتثنائية نادرة لا تكسر القاعدة. وغير خافٍ على من يتابع تاريخ الصحافة - إلى اليـوم - أن رأس المـال يفرض منطقه، ويحدد اتجاه الحركة المجانسـة لتوجهـه في أحـوال كثيرة. ولذلـك تظل المجلة دائرة فـي فلك مصدر التمويل، كما لو كانت ترقص في سلاسـل، واسـعة أو ضيقة، لا تسمح لها بحرية انطلاق لا حدود لها في النهاية. وسـواء كانت المجلة حزبية، مثـل «أدب ونقـد» المصرية، أو صادرة عن مؤسسـة مثل «حوار العرب» الصادرة عن «مؤسسـة الفكر العربي»، فالقاعدة واحدة، لا تختلف كثيرا عن القاعدة التي تجعل بعض القنوات التلفزيونية حرة إلى أبعد حد في نقد الحكومات المغايرة للحكومة التي تنفق عليها، متحفظة إلى أبعد حد في الحديث عن الحكومة التي تتولى تمويلها. ولا حاجة إلى تقديم أمثلة، فهي أوضح من أن يُشار إليها.

وغير عائق التمويل، هناك عائق الوعي الاجتماعي الذي قد لا يساوق في تطـوره تطور الوعي الذي تتبني عليه المجلة، أو تنطلق منه. ويحدث ذلك حـين تغدو القوة السياسـية الحاكمـة في ناحيـة وحركة الوعي الاجتماعي المقابلة أبطأ حركة. وتكون النتيجة تشـكل مجموعات ضغط متعددة، تمارس تأثيرها السـلبي على أجهـزة الإعلام، ومنها المجلات، وتغدو بمنزلة رقابة غير رسمية من مجموعات موازية للدولة، ومعارضة أو معادية لتوجهاتها، باسـم العقيدة السياسية المغايرة أو التأويل الديني المختلـف، فيتزايـد حصار الأفـكار، ورقابة الأقلام. ويمكـن أن ينقلب الحصـار إلى قمع يجاوز الكلمـة المخالفة إلى الفعـل القمعي، ويجاوز التهديد إلى الجرم الذي قد يصل إلى حد الاغتيال، كما حدث في بعض الأقطار العربية. وتكون النتيجة تضخم دور الرقيب الداخلي، ليس لهيئة التحريـر وحدها، بـل للكتاب الذي ينطوي كل منهـم - في هذا الوضع - علـى رقيبـه الداخلي الذي يحول بينه والوقوع فـي المهالك. ولم يكن من الغريب - والوضع كذلك - أن يعلن كاتب مثل يوسـف إدريس أن كل الحرية المتاحة في العالم العربي لا تكفي كاتبا واحدا.

ولكن لحسـن الحظ، فإن قدرة المجلات الثقافية القائمة (والناجحة) على المواءمة والمناورة هي التي تنجيها من مخاطر التوقف، أو المصادرة، وتدفعهـا إلى المضي إلى الأمام على الرغم مـن كل المصاعب والعوائق، فتواصل طريقها، وتمضي في تحقيق أهدافها حسـب شروط الضرورة التـي تتـحرك في سـياقاتها. ويُحسـب للناجح من هـذه المجلات - وما أقله بالقياس إلى عدد قراء العالم العربي - أنه لا يتوقف أو يسـكن إلى وضع محلك سـر، بل يعمل جاهدا على تطوير نفسـه، وعلى توسيع آفـاق قرائه، مدركا أن التغيير الإيجابي للوعي الثقافي للفرد القارئ هو المقدمة المنطقية لتغيير الوعـي الثقافي العام وتطويره، في كل مجالاته التي تخاطبها المجلةالثقافية، وذلك بما يسـهم - ولو على المدى الطويل - مـن المتغيرات الكمية التي تؤدي إلى متغيرات كيفية - في عملية التغيير العام للمجتمع في كل مجالاته التي تخاطبها المجلة الثقافية.

والسعي إلى التطوير الدائم مسألة بالغة الأهمية في مستقبل المجلات الثقافية، من هذا المنظور. وهي مسـألة توازي في أهميتها إدراك رئيس

التحرير وهيئة التحرير للزاويــة التي ينفذون منها إلى الدوائر المتزايدة الاتســاع من القراء، حريصين على ملامسة العصب الحي للاحتياجات الثقافية المتجـددة والمتغيرة بتغير العصر. وذلك بما لا يغفل التوازن بين المســتويات الثقافية المتباينة للقــراء، فالمجلة الثقافيــة لا تتوجه - في النهايــة - إلى دارس متخصص، وإنما إلــى مثقف. متغاير الخواص في مكونات وعيه الثقافية، ولذلك فملامسة العصب الحي للحاجة الثقافية هو الوجه الآخر من الوعي بتغير تجليات هذه الحاجة وتنوع مســتوياتها المعرفية. فضلا عــن فضاءاتها المرتبطة بخرائــط المعرفة المتوزعة بين الأقطار التي لا تتجانس مستوياتها الثقافية في كل الأحوال.

واحتــرام المجلة الثقافيــة لقارئها أمر حتمي في هــذا المجال. ويبدأ بالالتــزام الصارم بموعد وصولها إليه، واحترام عــقله ومخاطـبته بــما لا ينطــوي على اســتخفاف بهــذا العقل، أو التقليل من شــأنه، حتى لو فرضــت الأهداف النهائية للمجلة إحداث نوع من الصدمة الإيجابية في وعي هذا القارئ. والســبيل إلى ذلك المجادلة بالتي هي أحســن، وبناء النتائج على الأسباب، وعقلانية الخطاب الذي يبدأ مما هو واقع لينتهي إلــى ما هو ممكن. وإذا كان العقل هو أعدل الأشــياء توزعا بين الناس، فيما ذهب الفيلســوف ديكارت، فمخاطبة عقــل القارئ بالدرجة الأولى هو شــرط الاحتــرام المتبادل بين المجلة الثقافيــة وقارئها الذي لابد أن يجد فيها ما يرقى به من وهاد الضرورة إلى آفاق الحرية. وينتقل به من الإظلام إلى الاستنارة، ومن التقليد إلى الابتكار، ومن الوعي المنغلق إلى الوعي المنفتح على كل جديد أصيل على امتداد الكرة الأرضية. وأخيرا، تحقيق المجاورة المطلوبة بين الوعي المحلي والوعي الإنســاني، خصوصا بعد أن أصبحــت الكرة الأرضية قرية كونية، لا تعرف العزلة أو الحدود الفاصلــة بين أقطارها وقاراتها. هكــذا، تغدو المجلة الثقافية عاملا من عوامل التقدم المتصل الذي لا نهاية له أو حد. ويغدو إصدارها مسئولية معرفية، وطنية وقومية وإنســانية في الوقت نفســه، خصوصا من حيث ضرورة انحيازها المعلن لكل ما يحرر الإنسان من قيود التعصب والتحيُّز، وأشــكال التخلف والنكوص، مؤكدة كل ما يغنــي التنوع الثقافي الخلّاق للإنسانية كلها.

ومن هذا المنظور، يتحدد مســتقبل المجلــة الثقافية، وتتحرك الدوافع التي أتصور أنها لابد آن تقترن بالملامح التالية:

أ- اتساع أفق الحرية.

ب- اتساع المساحة المتزايدة للعلم الذي لا يتوقف عن التطور.

جـ- البحث عن حلــول تقنية وتكنولوچية جديدة، تتولى تثوير شــكل المجلــة، وتنقلها مــن واقــع الصفحات الورقيــة إلى واقــع الصفحات الإلكترونيــة، وذلك في المدى الذي يجاور بين مجلة «on line» ومــجلة لا تكف عن تطوير طباعتها الورقية إلى ما لا نهاية له أو حد.

د- البحث عن مصادر غير تقليدية في التمويل، تتيح المزيد من الحرية في توجهات المجلة الثقافية.

# الإصلاح الثقافي كمدخل للتنمية والتغيير: دروس من تجارب التحديث الآسيوية

مسعود ضاهر *

بعد نجاح تجربة التحديث اليابانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتجددها في النصف الثاني من القرن العشرين، تحولت تلك التجربة إلى نموذج يحتذى لكثير من الدول الآسيوية.

بدورها، حققت الصين، ومعها دول النمور الآسيوية، نماذج تحديث ناجحة انطلاقًا من خصوصياتها المحلية، وبدأت الهند مسيرة ناجحة لتحديث شمولي يطول أكثر من مليار إنسان، فشكلت تلك التجارب نماذج متنوعة تنتسب جميعها إلى الثقافات الآسيوية التي تضم أكبر كتلتين بشريتين هما الصين والهند، وقرابة ٤٠٪ من شعوب العالم.

وبسبب نجاح تجارب التحديث الآسيوية من خارج المركزية الغربية، نشرت حولها دراسات أديولوجية متناقضة. فمنهم من عزا نجاحها إلى خصوصياتها الثقافية المحلية من جهة، وانفتاحها التام على العلوم العصرية وتجارب التحديث الغربية من جهة ثانية. ومنهم من اعتبرها

* كاتب من لبنان.

خالية من أي تجديد نظري ورأى فيها مجرد تطبيق لمقولات التحديث الغربية بالاعتماد على نقل تكنولوجيا الغرب، وعلومه، ومناهجه.

على جانب آخر لم يبق العالم العربي بعيدًا عن ذلك السجال النظري. وفي السنوات القليلة الماضية بدأت بعض المؤسسات الثقافية والإعلامية العربية تظهر اهتمامًا متزايدًا بالنهضة اليابانية التي شكلت العمود الفقري والنموذج الأكثر رسوخًا في تجارب التحديث الآسيوية بعد صمودها لأكثر من قرن ونصف القرن، وتعرضها لاحتلال أمريكي لم يستطع تغيير بناها الثقافية والتربوية، ولا التقليل من دور ثقافاتها التقليدية في حماية المجتمع ومؤسسات الدولة.

ولعل أفضل منهجية لتحليل تجارب التحديث في الدول الآسيوية هي المنهجية الثقافية التي أطلقها المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي والمعروفة بمقولة «التحدي والاستجابة».

فنجاح تجارب التحديث الآسيوية تقدم الدليل النظري والتطبيقي على استجابة الشعوب الآسيوية للتحدي الحضاري الذي فرضته المركزية الأوربية والأمريكية على العالم طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، وتبني الإصلاح الثقافي كمدخل للحداثة السليمة.

وبعد النجاح الذي حققته في بناء حداثة سليمة لم تفض إلى التبعية، كان على الجانب العربي أن يجيب على السؤال الثقافي المهم الذي طرحه الأمير شكيب أرسلان منذ قرابة المائة عام: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟». وعلى الرغم من مرور أكثر من قرن على نجاح النهضة اليابانية، وثلث قرن على نجاح تجارب الصين، ودول النمور الآسيوية، مازال مشروع التحديث العربي ومقولاته النظرية يتعثر.

بعبارة أخرى. لا بد من إسناد نجاح مقولة التحدي والاستجابة إلى العوامل الموضوعية، وفي طليعتها العامل الثقافي، بالإضافة إلى العوامل الديموغرافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية وغيرها. وقد لعبت الدور الأساسي في نجاح تجارب التحديث الآسيوية جميعًا، وفي بناء حداثة حقيقية مازالت تتطور باستمرار. ويظهر دور العامل الثقافي في

إبراز التباين بين حركة التحديث المستمر الموصلة إلى التبعية والاستلاب من جهة، ومراحل التحديث التي أوصلت إلى حداثة راسخة لدى الجانب الياباني، ومن ثم لدى الصين ودول النمور الآسيوية. فالتحديث سيرورة مستمرة لم تتوقف لدى الجانبين، إلا أنها كانت شمولية لدى الآسيويين، في حين اقتصرت على جوانب معينة في المجتمعات العربية، واتخذت أشكالاً اقتصادية واجتماعية وثقافية غير متداخلة أو متفاعلة بعمق.

يحكم اليابان اليوم الحزب الليبرالي الديموقراطي وفق تقاليد خاصة مستمرة منذ أكثر من نصف قرن دون انقطاع. إلا لفترة عرضية لم تتجاوز الأشهر. وهو يمثل المصالح اليابانية بامتياز التي تقودها بورجوازية عريقة. قامت على خلفية ثورة صناعية. ومؤسسات مالية وصناعية من أكثر الموسسات تطورًا في العالم. ومنذ إصلاحات الإمبراطور المتنور مايجي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تبنت البورجوازية اليابانية سياسة دعم العلوم العصرية، وتشجيع إنتاج التكنولوجيا المتطورة جدًا. وتطوير نظام تعليمي يوظف أعلى نسبة من الأموال لتطوير مراكز البحث العلمي في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية. ومن أهم إنجازات تلك البورجوازية المتنورة أنها أسلمت شئون اليابان ومستقبل أجيالها إلى إدارة نظيفة تعتمد الكفاءة الشخصية دون سواها، وتحصن إدارات الدولة من الطبقة السياسية الفاسدة على غرار مثيلاتها في الدول الرأسمالية، وإن بدرجات متفاوتة من حيث شكل الفساد وسبل ممارسته ما بين دولة رأسمالية متطورة وأخرى نامية. وفي أواخر سبتمبر ٢٠٠٦ وصل المحافظون الجدد إلى سدة الحكم في اليابان بعد انتهاء ولاية رئيس الوزراء السابق كوئيزومي، الذي أطلق عليه لقب «الشعبوي».

فهو لم يكن من سلالة بورجوازية على غرار الأمين العام الجديد ورئيس الوزراء، شينزو آبي.

الرئيس الحالي من قادة صقور «المحافظين الجدد»، وابن وزير خارجية اليابان لسنوات طويلة.

وهو يرى أن أمام اليابان فرصة تاريخية لاستعادة دورها الطليعي كقوة آسيوية كبيرة، في مختلف المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية. فتدابير الحرب العالمية الثانية قد انتهت في جميع دول العالم،

ومنها ألمانيا التي عاشت ظروفًا مشابهة لأوضاع اليابان. وتخلصت ألمانيا من عقدة الدونية التي تعانيها اليابان. وتعاون الدول الآسيوية مع اليابان يضمن احترام سيادتها التامة وقرارها السياسي المستقل. وعلى تلك الدول أن تتجاوز مرحلة العقوبات التي فرضت على اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ومنعتها من امتلاك القدرات العسكرية الضرورية لحماية نفسها وإقامة تحالفاتها الإقليمية والدولية بما يتلاءم مع مصالحها الواسعة الانتشار في عصر العولمة.

يعمل الحزب الديمقراطي الليبرالي الحاكم منذ سنوات طويلة على تعديل دستور اليابان، خاصة المادة التاسعة منه التي تحرم عليها التسلح أو المشاركة في أعمال عسكرية خارج حدودها الإقليمية. ولكنها شاركت أخيرًا في مهمات عسكرية في أفغانستان، والعراق. وهي تحضر الشعب الياباني لمرحلة جديدة تظهر فيها اليابان كدولة قوية وقادرة على مواجهة التحديات العسكرية دون اللجوء الدائم إلى مظلة الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تفرض إتاوة مالية مذلة على اليابان بلغت أكثر من١٣ مليار دولار بعد حرب الخليج الثانية.

تضمن برنامج رئيس وزراء اليابان الجديد خطوات تنفيذية لاستثمار نتائج المعارك الضارية التي خاضها سلفه كوئيزومي من أجل إنجاز مشاريع الخصخصة بصورة شبه تامة في جميع قطاعات الإنتاج. وقد واجهت تلك الإصلاحات معارضة شعبية وسياسية كبيرة لأنها أضعفت الطبقات الوسطى بصورة ملحوظة، وأدخلت الرعب في صفوف الطبقات الفقيرة التي تعاني المزيد من البطالة، والحرمان، والتشرد، وهي سياسة تنذر بتزايد الآفات الاجتماعية كالمخدرات، والجريمة، والمافيا، والعمالة في السوق السوداء.

على الجانب الثقافي، بدأ إصلاح النظام التعليمي منذ سنوات عدة واتخذت قرارات جذرية في العام ٢٠٠٤. وهي تحضر الإنسان الياباني للمشاركة في عصر العولمة من موقع تربوي وثقافي فاعل، على المستوى الكوني. فقد كان النظام التربوي السابق يعد اليابانيين للعمل، وبصورة شبه حصرية داخل اليابان، ووفق القيم التقليدية اليابانية الموروثة في حين أن الإصلاحات الجديدة التي أقرت أخيرًا فتحت نوافذ كانت شبه مغلقة

لاستيعاب ثقافات الآخرين، وتعلم لغاتهم، والمشاركة بصورة أكثر فاعلية في ثقافة عصر العولمة.

**البعد الثقافي في تجارب التحديث الأسيوية**

انطلاقًا من أن الإصلاح الثقافي هو المدخل السليم للتنمية والتغيير، يمكن تقديم الكثير من الأدلة الدامغة على أن نهضة الدول الآسيوية قد انطلقت أساسًا من إصلاح البنى التربوية والثقافية الذي أسس لحداثة غير قابلة للارتداد. فالحداثة السليمة هي نتاج نضج في البنى الثقافية والتربوية أولاً. وهي تقاس بالمراحل غير القابلة للارتداد، وتؤسس كل منها لمرحلة أكثر تطورًا وثباتًا من سابقتها. وقد اقترنت بكثير من مظاهر التحديث على المستوى العمراني والاقتصادي والسياسي.

فتجاوزت بسرعة معوقات التنمية والتغيير الشمولي التي تمنع تحول حركة التحديث فيها إلى حداثة مكتملة. وأقامت دولاً عصرية على أسس نظم قانونية سليمة تعتمد معيار الكفاءة الشخصية، والولاء للوطن. وليس من شك في أن العرب بحاجة ماسة إلى الاستفادة من التجارب الناجحة للشعوب الآسيوية، وفي طليعتها تجربة التحديث في كل من اليابان والصين.

وبسبب نضج مقولات التحديث وعدم تعارضها مع القيم التراثية الموروثة، استعادت كل من اليابان والصين ودول النمور الآسيوية موقعها بسرعة خلال فترة زمنية قصيرة من بداية حركة التحديث. فبنت تلك الدول ركائز اقتصادية ثابتة لعملية التنمية والتغيير بنسبة من النمو السنوي كانت الأعلى في العالم طوال ثلاثة عقود متتالية. وتصنف اليابان اليوم في خانة الدولة الثانية في العالم على المستوى الاقتصادي، والأولى في عدد من المنجزات التكنولوجية المتطورة جدًا وصناعة الروبوت أو الإنسان الآلي. كما تصنف الصين في خانة الدول الأكثر نموًا وتأهيلاً للعب دور طليعي في النظام العالمي الجديد.

**١ - الإنسان الحر قاعدة التغيير الاجتماعي:**

تميّزت المقولات الثقافية في كل من اليابان والصين بتوجيه حركة التحديث لقيام دولة عصرية تتجاوز النظم الفيودالية السابقة. وأنجزت

كل منهما حركة نمو شـمولية أدت إلى تراكم اقتصادي هائل، وإلى تغيير جذري فـي جميع البنى الاقتصاديـة خلال عقود قليلـة. لكن التوظيف السياسي لتلك المقولات لم يخل من خلل فاضح في مسيرة كل منها. ففي اليابـان، تم توجيـه التراكم الاقتصادي لمصلحة العسـكر، وليس لمصلحة جميع شـرائح المجتمع. ومنذ مطلع القرن العشـرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تحولت اليابان إلى واحدة من أقوى الدول الإمبريالية. وقد دفع الشـعب الياباني ثمنًا باهظًا من جراء تلك السياسـة التي اعتمدتها حكومـات اليابان إبان مرحلـة مابين الحربين العالميتين، وبشـكل خاص منذ بداية الأزمة العامة للرأسـمالية عام ١٩٢٩ وحتى هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥. وعرفت تلك المرحلة من التاريخ الياباني باسـم «وادي الظلمات» لكثرة حروب الإمبرياليـة اليابانية ضد جيرانها. وتعرضت الدول الآسـيوية لمظالم النزعة التوسـعية حتى سقوط اليابان تحت الاحتلال الأمريكي عام ١٩٤٥. لكن الشعب الياباني عرف كيف يبني نهضة ثانية في دولة منزوعة السـلاح ومحرومة من التسلح. وهي نهضة لمصلحة المجتمع ومستمرة بقوة حتى الآن.

بالمقابل، تميّزت مقولات التحديث في الصين بنزعة أيديولوجية متشددة إبان الثـورة الثقافية ١٩٦٦ - ١٩٧٦. لكنها صوّبت مسـارها منذ «حركة الإصـلاح والانفتاح» التي بدأت عام ١٩٧٨، ومازالت مسـتمرة بقوة حتى الآن. وتبنت مقولات ثقافية ذات توجهات سلمية واضحة، والعمل على حل المشكلات بين الدول بالطرق الدبلوماسية.

وعلـى الرغم من تباين التوجهات العامـة بين كل من مقولات التحديث في اليابـان والصين، فإنها تتلاقى على خلفية ثقافية مشـتركة ترى بأن الإصـلاح الثقافي يشـكل العمود الفقري فـي عملية التنميـة والتغيير الاقتصادي والاجتماعي.

وبالإشـارة إلى أبرز مكونات تلك العملية، يمكن التأكيد على أن أبـرز مـا توصلت إليه مقـولات التحديث في اليابان والصـين أن نجاح عملية التحديث رهن بتنمية العنصر البشـري. فقد اعتبـر المتنورون اليابانيون والصينيون أن الإنسـان الحر والمثقف ثقافة عصرية قادر على بناء تنمية مسـتدامة غير قابلـة للارتداد. لذلـك، أعطى هؤلاء أهمية اسـتثنائية

لامتــلاك أحدث العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة، مع التشــبث بكل ما هو إيجابي في تاريخ وتراث وحضارة البلدين.

وبالتالي، فالإنسان المزود بثقافة عصرية وتكنولوجيا متطورة هو المؤهل أكثر من ســواه على تحقيق التنمية الاقتصاديــة والاجتماعية. أما الموارد الطبيعيــة، مهما كانــت غنية ومتنوعة، فقد تســاعد في تســريع عملية التحديث لكنها تبقى عاجزة بمفردها عن إنجاز تنمية شــمولية مستدامة تتطلب توافر كفاءات بشرية قادرة على إنجاح عملية التنمية والتغيير.

وبما أن المجال لا يســمح هنا بتقديم الأدلة الكافية على نجاح تجربتي التحديــث في اليابان والصــين، فإنني أكتفي هنا بتحليــل بعض النماذج الســريعة. فكفاءة العنصر البشــري هي التي ســاهمت في بناء النهضة اليابانية الأولى وتجديدها بعد ســقوط اليابان تحت الاحتلال الأمريكي. إذ كانت اليابان بلدًا شــبه مهدم بالكامل عند نهاية تلك الحرب. وفرضت عليها إدارة الاحتلال الأمريكي تدابير انتقامية قاسية طالت شرائح واسعة من شعبها، ومؤسساتها الدســتورية، والعسكرية، والإدارية، والاقتصادية، والتربوية وغيرها. وأوقفت العمل بالدستور القديم لعام ١٨٨٩ الذي جمع كل الســلطات بيد الإمبراطور، واســتبدلت به دستورا جديدا عام ١٩٤٦ جعل من الشعب الياباني مصدر جميع السلطات، ومن البرلمان أو «الدايت» مركز ســن القوانين وأعلى ســلطة في البلاد. وبموجب هذا الدستور تم اعتماد مبدأ الانتخاب الحر، والعمل السياسي المستند إلى أحزاب جديدة تؤمن بالممارسة الديمقراطية المقتبسة عن النماذج الغربية.

كما أن كفاءة العنصر البشــري في الصين كان لها الدور الأساســي في اســتيعاب مقولات التحديث بسرعة، وتوظيفها في خدمة التنمية والتغيير الشــمولي. فحققت الصين قفزة نوعية علــى مختلف الصعد الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية خلال فترة قصيرة لم تتعد ربع القرن. وهي تحقق الآن نســبته نمو مرتفعة هي الأعلى في العالم منذ أكثر من عشر سنوات، وهي تتراوح ما بين ٧ - ٩٪ سنويًا.

دلالــة ذلك أن المفتاح المنهجي الأساســي لفهــم أولويات نجاح النهضة في جميع الدول الآســيوية هو الإنسان الحر، الواعي والمبدع، وهو صمام الأمــان في جميــع تجارب التحديث الآســيوية، على اختــلاف مراحلها،

وخصوصياتهــا المحلية. وهناك دراســات علمية لا حصر لها تؤكد أهمية ســلوكيات هذا الإنســان، وثقافته الشــخصية، وفضوله للمعرفة، وحبه للتواصل مع الآخر. وتبرز تجارب التحديث الآســيوية مدى اهتمام الدول هناك ببناء الإنســان، والعمل على إلغاء كل مظاهر الأمية، وتوسيع دائرة الأبحاث والمراكز العلمية، وتوظيف نسبة كبيرة من الدخل القومي لأغراض البحث العلمي والتي تصل في اليابان إلى أكثر من ٦ ، ٣٪، وهي من النسب الأعلى في العالم.

علــى جانب آخــر، عرف اليابانيــون والصينيون كيــف يحافظون على تقاليدهم الموروثة، وقيمهم التقليدية، وســلوكهم الاجتماعي المتميز. وهي ســلوكيات خاصة لم يتنازلوا عنها حين كانوا بأمس الحاجة إلى اســتيراد التكنولوجيا والعلوم الغربية المتطورة. فتمسكت العائلة بكثير من تقاليدها في تربيــة الأطفال، وطرائق التعليم، والحرص الشــديد على إتقان اللغة القومية، والحفاظ على التراث التقليدي، وغيرها.

هــذا بالإضافــة إلى تشــجيع العمل الجماعــي، والحفــاظ على قيم التراتبيــة الاجتماعية والوظيفية، والتضحية في ســبيل الوطن، واحترام التقاليــد الأخلاقية الاجتماعيــة الموروثة. ومازالت وســائل الإعلام في جميع الدول الآســيوية، خاصة المرئية منها والمسموعة، تشجع على حماية التقاليــد الثقافية الموروثة. فهي تدعو باســتمرار إلى الحفاظ على نظام القيم الأخلاقي الذي يشكل الركيزة الأساسية لضمان استمرارية النهضة وتحصين عملية التنمية والتغيير من سلبيات التحديث السريع المفضي إلى التغريب والاستلاب.

**٢ - توظيف الثقافة في التنمية الاقتصادية:**

في بداية نهضتهم، كان اليابانيون والصينيون بحاجة ماسة إلى الاقتباس عن الغرب وبناء القاعدة الماديــة لعملية التغيير الاقتصادي والاجتماعي. وكانت لهم رغبة عميقة جدًا في الاســتفادة القصوى والسريعة، من العلوم العصريــة والتكنولوجيا المتطورة لدى الغــرب. ومن المعروف جيدًا أن كلا من اليابان والصين قد بنت نهضتها الأولى بالاعتماد على العلوم والتقنيات الغربية.

وبســبب تلك الرغبة العميقة، لــم يمض أكثر من عقد واحد على بداية

التحديث في كل من اليابان والصين حتى بدأ اقتصاد كل من الدولتين ينمو بسرعة قل نظيرها في البلدان المتطورة نفسها.

وليس من شك في أن الفضل الأكبر في ذلك يعود إلى كفاءة الإنسان الياباني والصيني أولا، وتفانيه في العمل لنجاح الشركة التي يعمل فيها، والتضحية الكبيرة التي يقدمها في توظيف و تأطير الطاقات البشرية والموارد الاقتصادية المحلية ضمن مشروعات كبيرة للتنمية الشمولية والتغيير الجذري. ولم تكن تلك العملية سهلة على الإطلاق، بل رافقتها مآس كبيرة، وتدابير قاسية طالت شرائح واسعة من المجتمعين الياباني والصيني. وتعرّضت القوى الريفية، وفقراء المدن في كلا البلدين إلى استغلال بشع لسنوات طويلة. وتشير دراسات علمية موثقة إلى أن عملية التنمية الاقتصادية في كلا البلدين كانت نتاج ثمرة الإنسان الواعي بأهمية التغيير الشمولي الذي يولّد بدوره مشكلات اقتصادية ذات نتائج اجتماعية سلبية. لكن عملية التنمية والتغيير تقود، على المدى الزمني الطويل، إلى الاستقرار النفسي والمهني والوظيفي. ويحصل المواطن بعدها على رواتب وضمانات ممتازة، بعد أن يقدم تضحيات كبيرة لمصلحة بناء الدولة العادلة، دولة التنمية والرفاه الاقتصادي والعدالة الاجتماعية.

**٣ - العامل الثقافي في خدمة التغيير الشمولي:**

تضافرت عوامل إيجابية كبيرة ساهمت مجتمعة في استنهاض اليابان مجددًا بعد الحرب العالمية الثانية. وأبرزها: القوى العاملة المثقفة والمدربة تدريبًا جيدًا، والاستفادة القصوى من الرساميل الأجنبية الوفيرة التي قدمت إلى الدول الآسيوية اليابان بهدف الربح السريع، ودور الإدارة النظيفة وذات الكفاءة البشرية العالية في استغلال الظروف الإقليمية والدولية المساعدة.

لذلك، حقق الاقتصاد الياباني «معجزة اقتصادية» خلال عقدين من الزمن، بعد أن انطلق الفكر السياسي الياباني من مقولة سليمة ترى أن الإنسان هو الرأسمال الأكبر في التنمية المستدامة.

وأعطت اليابان، ومعها ألمانيا الغربية، دروسًا بليغة في كيفية النهوض مجددًا من ويلات حرب مدمرة، وهي دروس يمكن تعميمها والاستفادة منها في كثير من الدول النامية، ومنها الدول العربية.

كما أن الصين ودول النمور الآسيوية حققت تراكمًا اقتصاديًا هائلاً خلال أقل من ربع قرن.

**٤ - أهمية العامل الثقافي في نشر التنمية اللامركزية:**

ليس من شك في أن الجامع المشترك بين التجارب الآسيوية هو التركيز على الإنسان الحر، والمؤمن بقدرة شعبه على مواجهة التحديات. وهو مؤهل للاستجابة على التحدي الحضاري بعد تملكه للعلوم العصرية، والتكنولوجيا المتطورة. وتقدم النخب الآسيوية، في مختلف المجالات، دروسًا مهمة للعرب بعد أن نجحت في إقامة نوع متطور من اللامركزية الإدارية بهدف إنعاش جميع المناطق، والابتعاد قدر الإمكان عن الشكل السائد في الرأسماليات الغربية من حيث تبعية الأطراف شبه المطلقة للمركز، أو المدن الكبرى. وفي جميع عمليات التنمية والتغيير، لم يتخل الشعب في أي من الدول الآسيوية عن «الثقافة الآسيوية» التي مازالت تطبع حركة التحديث والحداثة بطابع التقاليد الآسيوية منذ القرن التاسع عشر حتى الآن. وقد آن الأوان لصنّاع القرار في الوطن العربي أن يستفيدوا من مقولات تجارب التحديث الآسيوية، والانتقال من التحديث الذي يهدد الأصالة إلى الحداثة السليمة القادرة على حماية التراث عبر امتلاك العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة في آن واحد. وهذا ما فعلته اليابان وجميع الدول الآسيوية طوال قرن ونصف القرن.

**٥ - الإصلاح الثقافي مدخل لتعزيز الروابط الثقافية مع الدول الآسيوية:**

بعد أن أثبتت تجربة التحديث اليابانية قدرتها على الصمود، تركت تأثيرًا مباشرًا على استنهاض عدد كبيرمن دول جنوب وشرق آسيا. وباتت مساعدات اليابان، المالية والتكنولوجية، هناك تشكل حجر الزاوية في استراتيجية طويلة الأمد لبناء آسيا الجديدة أو «الوحدة الآسيوية» على مشارف القرن الحادي والعشرين. وسرعان ما قلصت اليابان من حجم توظيف رساميلها في الدول الصناعية المتطورة منذ أواخر عقد الثمانينيات لتنقل قسمًا كبيرًا منها إلى فضائها الآسيوي.

وعملت اليابان على الارتقاء بنشاطها الثقافي في الدول الآسيوية بحيث يتلاءم مع طبيعة عصر العولمة الذي يشهد ولادة وحدات جغراسية

عملاقة. وتظهر كثير من الدراســات العلمية أن مقولات الثقافة الآسيوية تشــكل العمود الفقري في بناء الوحدة الآســيوية التي يجري الإعداد لها بكثير من التروي بســبب مشــكلات التاريخ العبء الذي يثقل كاهل جميع الشعوب الآسيوية والناجح عن النزعة التوسعية للعسكرتاريا اليابانية إبان مرحلة ما بين الحربين العالميتين.

نخلص إلى القول إن الدول الآســيوية، بعــد أن تملكت العلوم العصرية والتكنولوجيــا المتطورة، قدمت الدليل الملموس على أن تلك العلوم ليســت حكــرًا على الغرب. وبالتالــي، فإن النموذج الغربــي للتحديث ليس قدرًا مفروضًا على جميع دول العالم، ومنها دول الشرق الأوسط، لتبنيه والعمل بمقولاته التي تبين بالممارسة العملية أنها تقود إلى التغريب والتبعية وليس إلى الحداثة السليمة والتحرر الاقتصادي والاجتماعي.

لذلك، دعــا المثقفون اليابانيون إلى فتح باب الحوار على مصراعيه مع مثقفي جميع الشــعوب الآســيوية. وهم يرفضون بشــدة تجاهل الشعوب العربية والإســلامية، أو إبعادها عن القرارات المصيرية التي تطول أيضًا ثقافاتهــا. وعبــر الحوار الإيجابــي البنّاء يحاول الآســيويون أن يصنعوا لأنفســهم موقعًا متقدمًا في عصر العولمــة، ولن يقبلوا بما يفرضه عليهم الغرب من مقولات وثقافات.

فالعولمــة لا يمكن أن تكون حكرًا على الغــرب أو على الثقافات الغربية فقط،بل تنفتح أيضًا على جميع الثقافات الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية. وتشــترك الثقافات الآســيوية مع تلك الثقافــات في كثير من المقولات الثقافية ذات الطابع الإنساني المشترك.

**٦ - دور العامـل الثقافـي فـي تنميـة الوعـي لدى الآسـيويين بالقضايا العربية والإسلامية:**

تجدر الإشارة هنا إلى أن العالم العربي لا يشكل وحدة بحثية مستقلة بل مدمجة ضمن الدراســات اليابانية عن منطقة الشرق الأوسط إلى مرحلة الثلاثينيات من القرن العشــرين. فقد شهدت تلك المرحلة نزوعًا واضحًا لــدى الإدارة الإمبريالية اليابانية إبان فترة ما بين الحربين العالميتين حين بلغت الإمبراطورية اليابانية أقصى مداها خلال سنوات ١٩٣١ - ١٩٤٢.

عملــت الإدارة الإمبراطورية اليابانية على تشــجيع الباحثين اليابانيين

لدراســـة تاريخ وثقافات الدول الإســلامية، وأنشــأت الكثير من المراكز الثقافيــة والبحثية لنشـر الدعاية اليابانية وإيجاد أفضل الســبل لإدارة المناطــق الإســلامية التي خضعت لســيطرة الجيش اليابانــي. لكن تلك النشــاطات أصيبت بضربة أليمة بعد هزيمــة اليابان في الحرب العالمية الثانية، وإغلاق أو حل جميع الموسســات ومراكز الدعاية التي كانت تروج للنزعة التوســعية اليابانية. وخلال ســنوات ١٩٤٥ - ١٩٤٩ أعيد تنظيم المؤسسات اليابانية وفق توجيهات الإدارة العليا الأمريكية، وتحولت اليابان إلى دولة منزوعة الســلاح محرومة من كل أشــكال التسلح بموجب المادة التاسعة من دســتور اليابان السلمي لعام ١٩٤٦ الذي بدأ تنفيذ بنوده في مايو ١٩٤٧.

في عقد الخمســينيات استمرت قلة فقط من الباحثين اليابانيين تقدم أبحاثًا شــمولية عن منطقة الشرق الأوسط، وفي ظروف غير مريحة على الإطلاق. كما أن الرأي العام الياباني لم يكن يشــعر بأهمية هذه المنطقة حتى بروز الأزمة النفطية في الســبعينيات. فبدأ عدد الباحثين اليابانيين يتزايد فــي هذا المجال. لكن الجهــود لتنظيم الدراســات اليابانية حول منطقة الشرق الأوسط كحقول متخصصة في الجامعات ومراكز الأبحاث اليابانية كانت تتعثر لأسباب محلية ودولية.

حرص المثقفون اليابانيون، منذ البداية، على رؤية تاريخ الشعوب العربية والإســلامية وثقافاتهــا بعيون يابانيــة وليس بعيون استشــراقية غربية. وأصروا على تعزيز التواصل الإنســاني مع مثقفي هذه الشــعوب وإقامة حوار مباشــر معهم. دليلنا على ذلك أن أول مؤتمرات الحوار الثقافي بين مثقفين يابانيين من جهة، ومثقفين من الدول العربية والإسلامية من جهة أخــرى قد عقدت في طوكيو بدءًا من العام ١٩٧٨. ونشــرت أوراق العمل التي قدمت إليها باللغتين اليابانية والإنجليزية دون أن ينشــر العرب سوى القليل منها باللغة العربية. والمحصلة العامة لأكثر من خمسة عشر مؤتمرًا ثقافيًا عقدت حتى الآن تقدم الدليل على جدية الجانب الياباني فقط في التعاطي مع مســألة الحوار الثقافي. ولعل السبب في ذلك يعود إلى زيادة اهتمام الحكومة ورجال الأعمال في اليابان والصين ودول النمور الآسيوية بالعالم العربي. وازداد ذلك الاهتمام بصورة كبيرة بعد الأزمة النفطية لعام

١٩٧٣. فقد عرت تلك الأزمة هشاشة «المعجزة الاقتصادية» اليابانية لفترة الستينيات وأظهرت مدى تبعيتها لمصادر الطاقة المستوردة بشكل أساسي من منطقة الشرق الأوسط.

فالاقتصاد الياباني، ومعه الغالبية الساحقة من اقتصادات دول جنوب وشرق آسيا، مازال يعتمد بصورة شبه حصرية على تأمين مصادر إمدادات الطاقة. نتيجة لذلك، تميّزت سياسات اليابان وباقي دول تلك المنطقة بكثير من البراغماتية لتأمين مصادر الطاقة لمصانعها، والأسواق المفتوحة لسلعها التجارية، والتوظيف المجزي لرساميلها الوفيرة. وأعطت المؤسسات الحكومية والشركات الخاصة دعمًا كبيرًا لمراكز الأبحاث اليابانية المهتمة بمنطقة الشرق الأوسط.

كانت الدول الآسيوية بحاجة ماسة إلى دراسة هذه المنطقة عبر تعاون باحثين متخصصين في حقول المعرفة كعلوم البيئة، والتكنولوجيا، والعلوم الإنسانية، والعلوم الاجتماعية، وعلوم اللغات أو المعجمات، والثقافة، والأديان، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم السياسية، والاقتصاد، والتواصل وغيرها.

كانت اليابان بحاجة إلى ضمان التواصل والتعاون الإيجابي بين الباحثين اليابانيين وجميع الباحثين المهتمين بهذه المنطقة، خاصة الآسيويين منهم، وبصورة أكثر تحديداً الباحثين العرب والأتراك والإيرانيين. وكان معظم الباحثين اليابانيين في هذا المجال قد نقلوا علومهم الأكاديمية العليا في الغرب واطلعوا عن كثب على مختلف المدارس والتيارات الإستشراقية بجناحيها الأمريكي والأوربي. وقد تولدت لديهم نزعة عميقة للتمايز عنه وبلورة مدرسة يابانية، أو بالأحرى آسيوية، تشدد على الاستعراب وليس الاستشراق في الدراسات الشرق أوسطية، وتتميز بكثير من خصائصها عن المدرسة الاستشراقية الغربية. ولعب بعض المستعربين اليابانيين من أمثال يوزو إيتاغاكي Yuzo Itagaki، وسانئيكي ناكاؤوكا Sen Eki Nakacka، وواتارو ميكي Wataru Miki وغيرهم دورًا أساسيًا في توليد تيار جديد من الباحثين يعمل على تعريف اليابانيين بتاريخ شعوب منطقة الشرق الأوسط وثقافاتهم، والتعاون مع الباحثين فيها، وتجاوز النظرة إليها كمنطقة جغرافية فقط تضم كميات كبيرة من النفط والغاز.

وصـــدرت بعض المجلات العلمية للقيام بهـــذه المهمة، وكانت أبرزها مجلة «الشـــرق Oriento»، التي مازالت تصدر حتى الآن، وبالرغم من أهميتها العلمية، فإن أبحاثها متخصصة جدًا، وتهتم بنتاجها فئة قليلة من الباحثين المتخصصين بقضايا التاريخ والآثار القديمة في منطقة الشـــرق الأوسط، لذلك برزت حاجة موضوعية لتجميع المهتمين بقضايا الشـــرق الأوســـط، ثم الباحثـــين من مختلـــف حقول المعرفـــة، بالإضافة إلـــى ذوي المصالح الاقتصادية المباشرة.

آنـــذاك، كان عـــدد الباحثين اليابانيـــين المتخصصين بقضايا الشـــرق الأوسط محدودًا جدًا. فكان للبروفسور إيتاغاكي دور أساسي في الدعوة لتأســـيس «الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط» في العام ١٩٨٤. وقـــد أصدر المجتمعون بيانًا دعوا فيه إلى تأســـيس الجمعية، ومن ثم إلى نشر مجلة سنوية تعبر عن توجهاتها.

كتب بيان تأيس الجمعية في ديســـمبر ١٩٨٤، وتأخر نشره لحين صدور العـــدد الأول من مجلة الجمعية في مارس ١٩٨٦، ومازالت الأعداد تصدر ســـنويًا بصورة منتظمة في التاريخ نفســـه من كل عام لأنه يتزامن مع بدء الســـنة المالية في اليابان، ويلاحظ في هذا المجال أن الســـنوات العشـــر الأولـــى من عمر المجلة، شـــهدت في الغالب، إصدار أعداد شـــمولية من الحجـــم الكبيـــر، والطباعة الأنيقة، واللغات المتعـــددة، في حين أن أعداد الســـنوات العشـــر الثانية تميزت بإصدار عدد مزدوج كل عام مع التركيز على محاور محددة تهم العالم الإسلامي، وكان هدفها تعزيز العلاقات بين الباحثين المهتمين بالدراســـات الشرق أوســـطية في منطقة جنوب وشرق آسيا.

نشـــر البيان التأسيســـي للجمعية على الصفحات ٣-٧ من العدد الأول لمجلة الجمعية Ajames Annals of the Japan Association for Middle East Studies.

وقـــد تضمـــن تعريفًا بأهـــداف الجمعية اليابانية لدراســـات الشـــرق الأوســـط JAMES ، وهي اختصار للعنـــوان بالإنجليزية: The Japan Association for Middle East Studies - JAMES، وقد عملت على تطوير الدراســـات اليابانية عن منطقة الشـــرق الأوسط، التي كانت

في نظر أصحاب المصالح من اليابنيين وباقي الآسيويين مجرد مساحة جغرافية تضم أعدادًاكبيرة من البشر. وهي منطقة نفطية بامتياز، ولديها أسواق تجارية واسعة، ويمكن توظيف رساميل ضخمة فيها. بالمقابل، أصرّ الباحثون اليابانيون على النظر إليها كملتقى للحضارات ومهد أديان التوحيد في العالم. ومنهم من نبه إلى خطورتها على الاقتصاد العالمي لأنها منطقة تضج بالنزاعات، وبكثرة الثورات والحروب، وتعاني سلبيات الحركة الصهيونية والصحوة الإسلامية معًا.

انطلقت الجمعية في عملها من طريق الجميع بين الأكاديميين وذوي المصالح الاقتصادية معًا. وبدأت نشاطها بتنظيم ملتقى سنوي لإعداد نشاطات شمولية وفرعية عن الشرق الأوسط. ساهمت المؤسسات الحكومية والشركات الخاصة في تمويل تلك النشاطات، التي تراوحت بين المحاضرات والندوات الصغيرة المتخصصة، والمؤتمرات الكبيرة، ونشر الكتب العلمية. لم تتجاهل الجمعية ما قامت به الجمعيات العاملة في اليابان والأبحاث المنجزة سابقًا حول منطقة الشرق الأوسط، وقدرت بشكل خاص الجهود الكبيرة، التي قامت بها كل من «الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأدنى»، و«الجمعية اليابانية للدراسات الإسلامية»، و«الجمعية اليابانية للعلاقات الدولية». كذلك قدرت الجمعية النشاط المثمر الذي قامت ومازالت تقوم به كل من «الجمعية اليابانية للدراسات الإفريقية» و«معهد الدراسة المتوسطية». وطمأنت القيّمين على تلك الجمعيات إلى أن ثمرة أبحاثها تشكّل دعمًا مهمًا لجهود الجمعية الجديدة، ولا تتعارض مع توجهات الباحثين فيها.

إلا أنها لاحظت أنه من غير المبرر غياب منتدى خاص بدراسات الشرق الأوسط من وجهة نظر بحثية متنوعة وشمولية. فسعى القيّمون على الجمعية من أجل تحويل مجلتها إلى منبر حقيقي ومتميز لنشر الأبحاث اليابانية والآسيوية الرصينة عن منطقة الشرق الأوسط، والتي لا تشكل تكرارًا للاستشراق الغربي. إلا أن اللجنة التأسيسية للجمعية نبّهت إلى النقص غير المبرر في الدراسات اليابانية حول منطقة الشرق الأوسط بسبب قصور أبحاثها على موضوعات قليلة ومتخصصة. علمًا أن زيادة عدد الجمعيات الأكاديمية المتخصصة في شئون الشرق الأوسط أمر

مستحب نظرًا للنقص الفادح لدى شعوب جنوب وشرق آسيا بتاريخ شعوب الشرق الأوسط وثقافاتها وحضاراتها.

تقدم مسيرة الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط والمجلة، التي مازالت تصدرها بانتظام منذ عشرين عامًا الدليل العملي على كيفية الجمع بين العامل الثقافي والعامل الاقتصادي أو المالي من أجل تطوير العلاقات العربية - اليابانية. فقد ساهمت المؤسسات المالية والاقتصادية اليابانية، الحكومية منها والخاصة في تمويل النشاطات الثقافية لهذه الجمعية وغيرها من الجمعيات، وبرز تعاون وثيق بين الحكومات اليابانية المتعاقبة والشركات الكبرى، التي حققت أرباحًا خيالية في تجارتها مع دول الشرق الأوسط من أجل دعم الباحثين وتمويل نشاطاتهم.

وسرعان ما ظهرت مشاريع بحثية كبيرة ضمت عشرات الباحثين اليابانيين وتدرب فيها مئات الباحثين الجدد خلال السنوات العشرين المنصرمة على تأسيس «الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط»، وتحولت مجلتها السنوية إلى واحدة من أهم المجلات العالمية، التي تعنى بمنطقة الشرق الأوسط، وأبرز تلك المشروعات الثقافية:

أ- مشروع «الإسلام والحداثة» في النصف الأول من عقد الثمانينيات. وقد اقتصر على مجموعة قليلة جدًا من الباحثين بسبب تأخر ولادة الدراسات اليابانية عن منطقة الشرق الأوسط إلى ما بعد الأزمة النفطية لعام ١٩٧٣. ومشروع «المدينية في الإسلام» في النصف الثاني من عقد الثمانينيات. وضم عددًا كبيرًا من الباحثين اليابانيين وغير اليابانيين، المهتمين بالشرق الأوسط من زوايا متعددة، ونشرت أبحاثه باليابانية، بالإضافة إلى خمس مجلدات كبيرة باللغة الإنجليزية. أشرف على هذين المشروعين البروفسور المتميز يوزوز إيتاغاكي أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة طوكيو، والأب الروحي لجيل واسع من المستعربين اليابانيين الذين ينظرون إلى تاريخ العرب والإسلام بعيون يابانية وليس غربية.

### بعض الملاحظات الختامية

في الوقت التي أنجزت فيه أوربا ثوراتها الصناعية، التي قادت إلى تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية مهمة في القرن التاسع

عشـــر، وتحولت بعض دولها إلى إمبرياليات تعمل للســيطرة على العالم ، كانت الصين واليابان وغيرهما من دول جنوب وشـــرق آسيا بأكملها تغرق في عزلة شــبه طوعية في ظل أنظمتها الإمبراطورية. فقد تراجعت فيها العلوم العصرية بشــكل واضح منذ قرون عدة، وكانت مشــكلاتها المزمنة تتجدد باستمرار، مما ساعد على سقوطها تباعًا تحت الاحتلال الأوربي، وحدهـــا اليابـــان عرفت كيف تتـــدارك الخلل الحاد بين قيمها الشـــرقية القديمة والعلوم الغربية الحديثـــة. فقد رفع الإمبراطور مايجي أو المتنور شعارين مهمين لردم تلك الهوّة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكان لهما تأثير بارز على دول جنوب وشـــرق آسيا بأكملها وهما: «الحقوا بالغرب وتجاوزوه» و«العلوم غربية أما الروح فيابانية».

أدرك المثقفـــون اليابانيـــون أن الفكر قادر على توليـــد مقولات ثقافية عقلانية تســـاهم في تطوير مختلف جوانب المجتمـــع يعبر بالضرورة عن ثقافـــة عصرية لا تتعـــارض مع قيم المجتمع الأصيلـــة الموروثة، بل تحميه من التشـــويه، وعليها ألا تتوقف عن إنتـــاج تراث ثقافي جديد يضاف إلى الماضي الذهبـــي ويغنيه بثقافة عصرية يحتاج إليهـــا المجتمع في تبدلاته المستمرة في عصر العولمة.

اســـتندت مقولات التحديث السياســـي والاقتصـــادي والاجتماعي في اليابان إلى مؤسســـات سياسية وعسكرية وإدارية ومالية وتربوية عصرية شكلت «الإطار الطبيعي للتفاعل المثمر بين التيارات الأساسية في المجتمع الياباني، وحظيت تلك المقولات بدعم سلطة سياسية متنورة أدركت، ومنذ وقت مبكـــر، دور الثقافة والمثقفين في بناء حركة تحديث مســـتمرة، غير قابلة للنكوص أو الارتداد. لذلك استمرت حركة التحديث الشمولي بشكل متصاعد للانتقال بالمجتمع الياباني من مرحلة التخلف إلى مرحلة القوة، ومن دولة تخاف الغرب إلى دولة يخاف الغرب منها، ولم تتبلور إســـهامات الفكر الياباني الحديـــث والمعاصر من خلال الحفاظ على التراث، بل في الاســـتجابة لتحدي الغرب للشعوب الآســـيوية، والذي تعبر عنه إشكالية توينبي الشهيرة في «التحدي والاستجابة».

كان على النظام السياســـي في اليابان أن ينشط القوى الحية الجديدة داخـــل المجتمع الياباني بهـــدف الحد من تأثير قوى أخرى كانت أســـيرة

التراث القديم الذي يعيد تجديد نفسه باستمرار، ويمنع حركة التحديث من تحقيق غايتها بالتحول إلى حداثة متكاملة غير قابلة للارتداد. فساعدت السلطة اليابانية على تحويل مسار النهضة إلى حداثة منجزة أي محققة اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا. لكنها دعمت في الوقت عينه، الدعوة للحفاظ على التراث والأصالة من أجل منع حركة التحديث من التحول إلى حركة تغريب واستلاب. والسبب في ذلك أن غالبية المصلحين اليابانيين، وقد اقتبسوا الكثير من المقولات الغربية بهدف توليد تيارات ثقافية فاعلة قادرة على صياغة مشروع ياباني جديد يعطي تلك المقولات صفة الشرعية السياسية.

بعبارة موجزة، حظيت اليابان بقيادة سياسية متنورة نجحت في توظيف الإصلاح الثقافي من أجل إعادة اليابان إلى دائرة التأثير على المستويين الإقليمي والدولي. وتبنت خططًا علمية مدروسة للقيام بالتنمية الثقافية والاقتصادية لإطلاق حداثة شمولية في جميع المجالات، وأرسلت عشرات البعثات الثقافية إلى الخارج لاكتساب العلوم العصرية وتحويلها إلى طاقات إنتاجية داخل اليابان. لكن النهضة اليابانية الأولى لم تنج من الاثر السلبي لمقولات التحديث الوافدة من الغرب وفي طليعتها مقولة «التحديث في خدمة الجيش»، التي حوّلت اليابان إلى دولة إمبريالية ذات نزعة عسكرية واضحة.

ب – خلال سنوات ١٩٩٧-٢٠٠٢ ظهر المشروع الشمولي الثالث تحت عنوان كبير: «الدراسات الإسلامية المنطقية»، وكان بإشراف البروفسور سوغيتاكا ساتو Sugitaka Sato، أستاذ الدراسات المملوكية في جامعة طوكيو، وبالإضافة إلى نشر أعماله اليابانية، صدرت معظم أبحاثه في خمسة مجلدات كبيرة باللغة الإنجليزية. وفي العام ٢٠٠٦ حصل البروفسور ساتو على تمويل جديد للمرحلة الثانية من المشروع، التي تمتد لمدة خمس سنوات بدءًا من ٢٠٠٧.

ج – المشروع الرابع الشمولي بعنوان: «اليابان وآسيا» وهو بإشراف البروفسور هيروشي كاتو Hiroshi Kato، أستاذ تاريخ مصر الحديث الاقتصادي والاجتماعي في جامعة هيتاتسوباشي، بضواحي طوكيو، وسيبدأ تنفيذه في العام ٢٠٠٧، ولمدة خمس سنوات.

أخيرًا، كانت، ثمرة التعاون مع المراكز العلمية المهتمة بشئون الشرق الأوسط داخل اليابان وخارجها أن تحولت الجمعية اليابانية لدراسات الشرق الأوسط إلى واحدة من أكبر الجمعيات العالمية المتخصصة بشئون الشرق الأوسط. كما أن أعداد مجلتها السنوية، التي تجاوزت عامها العشرين دو ن انقطاع (١٩٨٦-٢٠٠٦) تشكل كنزًا علميًا ثمينًا للباحثين المهتمين بمنطقة الشرق الأوسط. وهي أداة ثقافية مهمة لتوحيد جهود الباحثين اليابانيين وغيرهم، وتتجاوز الحواجز الأكاديمية واللغوية الضيقة. فاللغات المعتمدة في النشر على صفحات المجلة غير محددة. وقد نشرت فيها حتى الآن دراسات عدة باللغات اليابانية والعثمانية والتركية والعربية، والفارسية والإنجليزية والفرنسية والروسية وغيرها. وتنوعت الأبحاث المنشورة في المجلة بين الدراسات العلمية المتخصصة في مختلف حقول المعرفة، كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية، والآثار والفلسفة والعلوم والسياسة والآداب والشعر والمسرح والفنون والفلكلور، وغيرها. هذا بالإضافة إلى دراسات نقدية للكتب الصادرة حديثًا، وتقارير عن بعض الندوات والمؤتمرات العلمية العالمية التي تعنى بشئون الشرق الأوسط.

ما يؤخذ على المشروعات الأخيرة هو الابتعاد عن الشمولية والدراسات الحضارية، التي تجلت في المشروعين الأولين. فقد تم التركيز على الأقليات العرقية والطائفية ودراسة التيارات الإسلامية، انطلاقًا من مناهج واتجاهات تحليلية سائدة في أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، ومن نافل القول مقولات تقسيم شعوب الشرق الأوسط إلى أقليات إثنية ودينية تشكل العمود الفقري في الدراسات الغربية، ومازالت سياسات الغرب تعتمد تلك المقولات في نظرتها إلى شعوب هذه المنطقة كما تبدى واضحًا من خلال السياسة الأمريكية، التي تم اعتمادها في العراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣. وقادت تلك السياسة المستندة بشكل حصري إلى مقولات برنارد لويس وصموئيل هنتنجتون وفرنسيس فوكوياما وغيرهم إلى المأزق الحاد الذي تواجهه سياسية المحافظين الجدد في منطقة الشرق الأوسط.

لذلك حرصت الدراسات الآسيوية عن العالم العربي على رفض تقليد

الدراسات الاستشراقية الغربية، خاصة وأن الغرب نفسه يشهد إعادة نظر جذرية في كثير من المفاهيم الاستشراقية. وقد أثارت كتابات إدوارد سعيد عن الاستشراق، والتي ترجمت إلى اليابانية على نطاق واسع، ردود فعل إيجابية لدى الباحثين اليابانيين، وتبنى معظمهم الانتقادات، التي وجهها للاستشراق الغربي عن العالمين العربي والإسلامي، ولعبت مجلة الجمعية الدور الأساسي في نشر تلك الانتقادات. وهي تحتاج إلى دراسة مستقلة بدأت فعلاً بإعدادها نظرًا للدور المركزي الذي لعبته في تنمية الوعي الثقافي لدى الباحثين الآسيويين المهتمين بشعوب منطقة الشرق الأوسط وأديانها وثقافاتها.

فبسطت سيطرتها على دول الجوار، خاصة الصين وكوريا من جهة، ووجهت ضربة عسكرية قوية إلى الأمريكيين في بيرل هاربر في الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى. لقد أضر توظيف مقولات التحديث الثقافي والصناعي في خدمة العسكر بمصالح القوى الديمقراطية في المجتمع الياباني، والتي عارضت بشدة تحويل اليابان إلى دولة إمبريالية.

ودفعت تلك القوى ثمنًا باهظًا بسبب معارضتها للنظام الإمبراطوري، وبعد أن تعرضت اليابان لتدمير شبه تام في الحرب العالمية الثانية، وتعرض شعبها ونظامها السياسي واقتصادها لانتقام أمريكي بالغ القسوة في الحرب العالمية الثانية، وفي السنوات التي أعقبتها برز تحول مهم في الفكر السياسي والثقافي الياباني المعاصر. ومن أبرز تجلياته:

أ- التحديث الشمولي في خدمة المجتمع الياباني في ظل رقابة خارجية تمنع اليابان من التسلح.

ب - التمسك بالدستور الياباني الجديد لعام ١٩٤٦ الذي ينص على عدم مشاركة اليابان في أي أعمال عسكرية خارج أراضيها. وتعزز هذا المنحى باتفاقية للتعاون العسكري مع الأمريكيين مازالت مستمرة منذ عام ١٩٥١ مع بعض التعديلات الطفيفة.

ج- تركيز جهود القوى اليابانية نحو تضخيم الإنتاج الاقتصادي والتوظيف في التنمية البشرية المستدامة، وإعطاء الأولوية المطلقة لثورات العلم والتكنولوجيا والإعلام والتواصل.

نتيجة لذلك، حققت اليابان معجزة اقتصادية مهمة في ظل مقولة

«التحديث فـي خدمة المجتمع». فأصبحت القطـب الثاني في الاقتصاد العالمي واحتلت المركز الأول في عدد من الاكتشافات التكنولوجية المتطورة خاصة في مجال الروبوت أو صناعة الإنسان الآلي.

علـى جانب العلاقات الثقافية بين اليابانيـين والباحثين العرب، تظهر المشـاريع الثقافيـة الطويلة الأمد علـى أهمية البعـد الثقافي في تغيير الذهنيـة المحلية لدى اليابانيين بشـكل خاص والآسـيويين بشـكل عام، وتطوير علاقاتهم مع الثقافات الأخرى.

فبعد الأزمة النفطية لعام ١٩٧٣، قطعت الدراسات الآسيوية عن العالمين العربي والإسـلامي شوطًا بعيدًا على طريق بلورة خصوصيات الاستعراب الآسـيوي بصورة لم يعد بالإمكان تجاهلها أو التقليـل من أهميتها، وقد تميـزت تلـك الدراسـات بمواقف سـلوكية خاصة من جانـب الباحثين الآسيويين الحريصين على تقديم دراسات علمية تظهر فهمًا معمّقًا لتاريخ الشـعوب العربية والإسـلامية وحضاراتها وتولت مجلة الجمعية اليابانية لدراسات الشـرق الأوسـط مهمة تأطير الباحثين اليابانيين والآسيويين المهتمين بقضايا الشـرق الأوسط، واحتضان الشـباب منهم والبحث عن مصادر تمويل لمشـروعات بحثية طويلة الأمد تشكّل مدخلاً موثوقًا لتنمية الدراسات الشرق أوسطية في اليابان وباقي دول جنوب وشرق آسيا وفتح قنوات للتواصل الثقافي مع باحثي هذه المنطقة، ومنهم نسـبة متزايدة من الباحثين العرب.

كان للبعـد الثقافي دور أساسـي في ولادة نخب ثقافيـة جديدة تعمل على توسـيع دائرة الحوار الياباني مع شـعوب منطقة الشرق الأوسط من عـرب وأتراك وإيرانيين وغيرهم، وفتحـت المجلة صدر صفحاتها لتبادل الآراء، وزيادة التواصل بين الباحثين المهتمين بشـئون الشرق الأوسط من مختلف حقول المعرفة الإنسانية، ودعا القيمون عليها إلى الحد من النزعة الاستشراقية الغربية الخطرة من جهة، والنزعة التخصصية الضيقة، التي مازالت آخذة في النمو على حساب الدراسات الإنسانية الشمولية والمتعددة الاختصاصات والموضوعات والآراء من جهة أخرى.

تجدر الإشـارة هنا إلى أن الظروف الموضوعية، وبشـكل خاص حاجة اليابان وباقي الدول الآسيوية الملحة إلى تأمين مواردها النفطية من منطقة

الشرق الأوسط لعبت دورًا كبيرًا في تعزيز التعاون بين المؤسسات الثقافية والمراكز البحثية في دول جنوب وشرق آسيا مع دول الشرق الأوسط.

لقد تطور الوعي الثقافي لدى الآسيويين عن منطقة الشرق الأوسط بسرعة، ولعبت مجلة الجمعية دورًا أساسيًا في تعزيز التعاون المباشر بين الباحثين العرب والآسيويين.

يكفي التذكير بأن باحثين عربًا نشروا أبحاثًا مطوّلة في هذه المجلة منذ صدور عددها الأول. ومنهم، بحسب التسلسل الزمني لأسمائهم: إبراهيم الجميري، أحمد الصايدي، أحمد الهاشمي، أنور عبدالملك، تهامي العبدولي، حسن حنفي، خيري دوما، دعد الحكيم، راضي شحاده، رجا أبو عضل، رشيد الخالدي، رءوف عباس حامد، سعدالله الفوصي، سيف الوادي الرمحي، طارق شهيدي، طائف كمال الأزهري، عبدالله حنا، عبدالرحمن لخصاصي، علي عصام الشاذلي، عمر بن نميرة، فلاديمير تاماري، قاسم وهبه، محجوب الباشا، محمد بن عبود، محمد صبري الدالي، محمد المحمود، محمد يوسف علي، محمود حريتاني، مسعود ضاهر، مصطفى الرزازي، نسيم برهم وغيرهم.أما على الجانب الياباني - الآسيوي، فكانت زيادة عدد الباحثين المهتمين بدراسات الشرق الأوسط مذهلة للغاية. فقد ارتفع عددهم من قرابة عشرة باحثين في مطلع السبعينيات إلى أكثر من ستمائة باحث مدونة أسماؤهم وعناوينهم في كراس الجمعية الصادر عام ٢٠٠٦. وتمحورت دراساتهم على أهمية التكوين التاريخي والتطورات اللاحقة، التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط في التاريخ الحديث والمعاصر. وهي الآن من المناطق العالمية التي تتمتع بأهمية استراتيجية ذات طابع عسكري بسبب كثيرة الحروب المتلاحقة على أراضيها، والتي جعلت منها المنطقة الأكثر سخونة في التاريخ العالمي طوال النصف الثاني من القرن العشرين، ومازالت حروب المنطقة تشغل الرأي العام، وتهدد الأمن والسلام في العالم كله.

أخيرًا، تميزت السنوات القليلة بالاتساع الكمي والنوعي لدور العامل الثقافي في اليابان والصين وباقي الدول الآسيوية، والاهتمام المتزايد بشئون العرب، وباقي شعوب منطقة الشرق الأوسط، والبدء بسلسلة من المؤتمرات الثقافية بين الجانبين، وهي مستمرة سنويًا وبانتظام تام، فقد

نجح الباحثون اليابانيون المشـرفون عليها في تحويلها إلى مجلة آسـيوية بامتياز. وحرص بعضهم على إظهار تمايزه التام عن المدرسة الاستشراقية الغربية، ونشـروا دراسـات موضوعية عن تاريخ شـعوب هـذه المنطقة وحضاراتها ومساهماتهاالمعترف بها عالميًا في بناء الحضارة الإنسانية.

وقد أصـدرت المجلة بعض الملفـات البحثية، أبرزهـا ملف خاص عن الشرق الأوسـط والدراسـات الإسـلامية في اليابان حتى العام ٢٠٠٢، وملف خاص عن الشـرق الأوسـط من وجهة نظر شـرق آسيوية، وملف خاص عن رؤى مقارنة لمستقبل آسيا. وملف خاص بعنوان مواجهة الآخر: الهوية الإسـرائيلية والفلسـطينيون في الدولة اليهودية، وملف خاص عن رؤى مقارنـة للدول الآسـيوية حول مفهوم اقتصاد السـوق، وملف خاص عن الحركات الشـعبية والسياسة الثقافية في مرحلة ما قبل ولادة المدينة العربية الحديثة، وملف خاص عن تبدل المعارف والسـلطة في الإسـلام، وملف خاص عن التصوف والطرق الصوفية في زمن الصحوةالإسـلامية، وملف خاص عن صورة الإسلام في المدارس اليابانية.

وبعـد أزمة النفط الشـهيرة لعـام ١٩٧٣، اهتزت اقتصـادات الدول الآسـيوية بصورة عنيفة. فبادرت المؤسسات الثقافية في الدول الآسيوية، الحكومية منها والخاصة، إلى تقديم كثير من المنح الدراسية لباحثيها من أجل زيارة منطقة الشرق الأوسط والتعرف إليها عن كثب. ثم التركيز في المرحلة الأولى على التوصيف الشمولي، وإعداد أبحاث لم تبتعد كثيرًا عن نماذج الدراسات الاقتصادية والاجتماعية الغربية، لكنها تمايزت عنها من حيث المنهج والابتعاد عن المقولات الاستشـراقية السـائدة وتقديم تاريخ شعوب الشرق الأوسط وثقافاتها بعيون يابانية، وليس غربية.

وتركت أبحاث المجلة بصمات واضحة على الدراسـات الآسيوية بشكل عام، واليابانية بشـكل خاص، بسبب غياب تقاليد البحث العلمي الآسيوي عن هذه المنطقة، والاعتماد بصورة شبه تامة أحيانًا على المصادر الغربية. لكن مقولات الاستشـراق الغربي تتعرض اليوم لانتقادات شـديدة بسبب التشـديد على الدور المركزي للتقسيمات الإثنية والطائفية والقبلية، التي تم اعتمادها لدراسـة تاريخ شعوب المنطقة، وثقافاتها وبناها الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، فشعر المستعربون اليابانيون بحاجة ملحة لبناء

علاقات إنسانية وثقافية أوثق مع شعوب هذه المنطقة، وتبادل الآراء المباشرة مع باحثيها دون وسيط غربي، وجرى توقيع اتفاقيات للتعاون المثمر مع مؤسساتها الثقافية والأكاديمية، ووضع برنامج طويل الأمد لحوار ثقافي سنوي بين الباحثين الآسيويين وباحثي الدول العربية والإسلامية، بدأ تنفيذه من البحرين في العام ٢٠٠٢، ومازال مستمرًا حتى الآن، وهو يهدف إلى نشر وعي أعمق حول منطقة الشرق الأوسط، انطلاقًا من تاريخها الطويل، ومن كونها مهد جميع الأديان السماوية والملتقى الأول للتفاعل الثقافي والحضاري بين جميع الحضارات الإنسانية منذ أقدم العصور، وما تعيشه شعوب هذه المنطقة من إحباط سياسي وإفقار وتجهيل بسبب سوء الأداء السياسي لقياداتها ذات الطابع القروسطي الاستبدادي، لا يبرر تجاهل الدور المهم الذي يقوم به مثقفو هذه المنطقة، بالرغم من كل مظاهر الإرهاب والقمع الذي يتعرضون له والذي يصل إلى حد القتل والتكفير، والسجن والتهجير بسبب الجرأة في طرح الأفكار الإصلاحية التي يتمسكون بها.

ختامًا، فإن مستقبل العرب رهن بتوظيف قدراتهم في الإصلاح الثقافي كمدخل للتنمية والتغيير الشمولي. والاستفادة من تجارب التحديث الناجحة في العالم لتوليد مقولات ثقافية جديدة تتلاءم مع تطور المجتمعات العربية في عصر العولمة والتبدلات الإقليمية والدولية المتسارعة.

فالإصلاح الثقافي السليم قادر على خلق وعي ديناميكي لمواجهة تحديات العولمة وتطوير مؤسسات عربية جامعة ترعى الإبداع الثقافي، وتعزز دور الثقافة في التغيير الشمولي بهدف إقامة ركائز جديدة للعمل العربي المشترك. وهناك إمكانات لا حصر لها لتوسيع مجالات التعاون إلى الحد الأقصى بين الباحثين العرب والآسيويين، وصولاً إلى برامج مشتركة وطويلة الأمد، تتجاوز حدود الدولة القادمة نحو شمولية ثقافية تبنى على الانتماء إلى فضاء ثقافي آسيوي مشترك تتحدد به معالم الشخصية العربية الجديدة من طريق المشاركة الإيجابية في بناء عولمة أكثر إنسانية.

# أزمة القراءة ومستقبل الهويّة العربية في مطلع الألف الثالث الميلادي

شوقي عبدالامير *

نشير في البدء إلى أن هذه «دراسة استقصائية على ضوء تجربة «كتاب في جريدة» التي أطلقتها منظمة اليونسكو عام ١٩٩٦ في المنطقة العربية»

١ - الهوية العربيّة والنص:

هل اللغة العربيّة أصل العرب؟ أم العكس؟ هذا السؤال الذي أطلقهُ المستشرق الإنجليزي مرجليوت يبدو وكأنه دعابة اللغز المعروفة: «هل البيضة من الدجاجة؟ أم أن الدجاجة من البيضة؟»

سنبدأ من محاولة الإجابة عن هذا السؤال في الدخول إلى تعريف الهويّة العربيّة، وهو سؤال شائك ولكننا مطالبون اليوم - في عصر العولمة هذا - أكثر من أي وقت مضى بالإجابة بأقصى درجة من الوضوح عن هذا السؤال الجوهري بل التأسيسي في تحديد معنى الكيان العربي للدفاع عنه وتطوير إمكاناته في مواكبة الانفجارات المعرفيّة في مطلع الألف الميلادي الثالث الذي نعيش في غمرتها مُستهلِكين ومُستهلَكين

* شاعر عراقي ورئيس تحرير «كتاب في جريدة».

فقط.

في الواقع هناك بعض العناصر الأساسيّة التي يمكننا الأخذ بها كمعطيات للإضاءة حول هذا السؤال، أهمها وبكل بساطة الاطلاع على تعريف «العربي» لدى القواميس القديمة. طبعاً، إننا نفاجَأ بالإجماع الذي تقدمه القواميس في تعريفها لـ «عربي» في أنه مَنْ يُحسِنُ اللغة العربيّة، ومن هنا فإن العُروبة هي الفَصاحة، وهي إذن مفهومٌ يبدأ باللغة لكي ينتقل إلى الدلالة القوميّة العرقيّة ثم الدينيّة. والإعرابُ كما نعلم جميعاً هو استقامةُ الجملة واتضاح دلالتها دون لبس أما العُجمة فهي عدم الوضوح والالتباس. من هذه الظلال اللغوية بالأساس خرجت مفاهيم وتعريفات عرقيّة وقوميّة وسواها مما يُعرف بالعرب والعجم.. إلخ.

هذا المفهوم يكاد يكون خاصاً باللغة العربيّة، إذ لا يوجد ما يقابل هذا التعريف في اللغات الأوربيّة على الأقل حسب ما يؤكد ذلك حرفيّاً الفيلسوف الألماني الذي كتب تاريخ الحضارة في أواخر القرن التاسع عشر «هيردر» HERDER إذ إن هذا الأخير يقول لنا بما معناه، في ميدان استطراده لمعنى الحضارة الإنسانية وروافدها، إنه إذا كان اليونان قد عُرفوا بالفلسفة والرومان بالقانون والفرس بالفنون فإن العرب قد عُرفوا باللغة، لأن اللغة العربيّة لها جمالُها وسطوتها وهيمنتها على شعوبها، قبل أن يضيف أن ما قدّمته اللغة العربية إلى قبائل الجزيرة يفوق بكثير دور اللغة اللاتينيّة لدى القبائل الأوربيّة، بما معناه أن اللغة العربية شكلت حاضنًا وعنصرًا جامعًا للقبائل العربية بشكل لم تستطع اللغة اللاتينية تقديمه للقبائل الأوربية في القرون الوسطى.

لسنا بصدد البحث عن الأسباب، لأن ذلك سيقودنا بعيداً، ولكن مجرد تحديد هذه الظاهرة بالإضافة إلى الإجماع القاموسيّ على تعريف العربيّ انطلاقاً من اللسان فإن هذا الأمر يقودنا بخطوات نقترب معها من الإجابة عن السؤال الجوهري الذي انطلقنا منه.

هذا كما أودّ أن أضيف نقطة أخرى في هذا الميدان وهي المتعلقة بعُمر اللغة – يجب ألا ننسى أنه لا يوجد شعب في العالم اليوم يقرأ أبناؤه الصغار في المدارس الابتدائية قصائدَ ونصوصَ مكتوبة بلغةٍ عُمرها أكثر

مـن ألفي عـام، لا يحصل هذا الأمر في أيّة لغة مـن العالم. إن اللغات القديمة التي بدأت مع اللغة العربية كاليونانية القديمة والسنسـكريتية والمُسند وغيرها كلها انقرضت وأصبحت لغات يعنى بها الدارسون فقط. أمـا اللاتينية وقد جاءت بعـد اللغة العربية فهـي مقصورة على بعض الممارسات الطقسية الكنسية.

ليسـت ظاهرة طبيعيّة أو شيئاً مألوفاً اليوم أن يحفظ طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة في بلداننا معلقات عنتر بن شداد وخطب قيس بن ساعدة على سبيل المثال، إن مثل هذه الحالة لا توجد لدى أي شعب من شعوب العالم اليوم، لأن هذه اللغات القديمة قد انقرضت.

مرّة أخرى لست بصدد البحث في الأسباب ولا في كون هذه الظاهرة إيجابيّة أم سـلبيّة لأن الأمر سـيقتضي دراسة مختصّة ولست بصددها الآن وأنا أكتفي فقط باستعراض هذه المعطيات باعتبارها عناصر مهمة في تحديدِ مفهوم الكيان العربي وعلاقته باللغة، وهو ما يعنيني في هذا البحث لأخْلُـصَ إلى القول إن علاقة الهويّة العربية باللغة أمر يشـتمل على خصوصياتٍ وأعماقٍ ودلالاتٍ لا تتوافر لدى أي كيان آخر على وجه البسيطة.

وقد اخترتُ هذا المدخل لأصل إلى نقطة مهمة هيٍ عنوان هذا البحث وهي علاقـة القراءة بصورة الهويّة العربيّـة انطلاقاً من الأزمة الكبيرة التي نعيشـها والتي نحن بصدد التطرق إليها في لقائنا هذا، والتي بهذا المعنى تهدد وجودنا العربي بكامله.

ومـن هنا فـإن أي خلل في العلاقة مع «النـص» أي مع الكتابة واللغة بمفهومها الواسـع، وانعكاسـات ذلك علـى خصوصيّة الهويـة العربية سـتتجاوز - انطلاقاً مما أوضحنا آنفاً - الانعكاسـات والآثار السلبية التي سـتتعرضُ لها أيّة أمة أخرى لا تملك العلاقة التأسيسـية الكيانية نفسها بينها وبين لغتها كما هو الحال في اللغة العربيّة.

هذا فيما يتعلق بعلاقة اللغة مع الكيان من وجهة نظر العناصر الأخرى المكوّنـة للهويّة غير الدين، أما عـن علاقة اللغة العربية بالدين، العنصر المؤسس الأكثر تأثيراً اليوم على الهويّة فإن ثمة خصوصيّة أخرى يجب أن نأخذها بعين الاعتبار وهي كون اللغة العربية قد احتلت موقع القداسـة

فــي المجتمع العربي أيام الوثنية من خلال وجــود المعلّقات داخل الكعبة في الفتــرة الوثنية بنفس الدرجة مع رموز القداســة فــي ذلك الوقت، كالنصب والحجر الأسود وانتقالها لتحتل مكاناً كبيراً بعد مجيء الإسلام باعتبارها لغة القرآن الذي يعود له الفضل الأكبر في صيانتها والحفاظ على ديمومتها، وهي بذلك تكون قد ارتبط وجودها ليس بعامل إثنولوجي معرفــي فقط، إنما تجاوز ذلك لمفهوم القدســي. ولا أقصد بالقدســي فــي اللغة العربية كوظيفة لأنهــا بالتالي لغة لكل اللغات نمارس فيها كل أفعالنا في الحياة، ولكنها ذات طابع قدسي في علاقتها بالكيان والجذر الإيماني لشعوب هذه المنطقة من العالم في مختلف مراحل تكوين الأمة العربية وتلك هي الخصوصيّة.

هذه الملاحظة تقودنا إلى خلاصة مهمة تضاف إلى الأولى وهي ارتباط اللغة بالعنصر المؤثر الكبير في الهويّة وهو الدين، إذن فإن مكوّنات الكيان العربي التأسيسية في العروبة والدين الإسلامي ذات صلة «وجوديّة» مع اللغة. وإن أي تدهور في هذه العلاقة ســيكون قاهراً لوجود الأمّة. وإذا كان الأمــر كذلك، كيــف نفهم إذن مقاومة الكيــان العربي وكل المفاهيم القوميّة العروبيّة اليوم أمام الأزمة الخانقة التي تعيشها الأمّة العربية في موضوع القراءة وأزمتها المتصاعدة التي سنوضحها فيما يلي:

٢ - أزمة القراءة:

تشــير الإحصاءات التي صدرت عن منظمة اليونســكو UNESCO والتنميــة التابعة للأمم المتحدة UNDP إلــى تدهور خطير في معدل القراءة لدى العرب بشــكل عــام بحيث إن الخط البيانــي الهابط يكاد يصل إلى أوطأ مســتوى في العالم أجمــع أي بمعدل «كتاب واحد لأكثر من ٣٠٠,٠٠٠ شــخص» في المنطقة العربيّة. هذا كما تشــير الدراسات التي نشــرتها منظمة اليونســكو / بيروت عام ١٩٩٦ بعــد الندوة التي نظمهــا «كتاب فــي جريدة» حول القراءة في العالــم العربي إلى أن «كل ما يســتهلكهُ العالم العربي من ورق في صناعة الكتب - أي كتب - يكاد يوازي ما تستهلكه دار نشــر أوربية واحدة» وإذا أخذنا على سبيل المثال فإن بلداً أوربيّاً صغيراً مثل بلجيكا لا يتجاوز عدد نفوســه تسعة ملايين نســمة فإننا نجد أنه يستهلك من إنتاج الكتب والقراءة أكثر من ثلاثمائة

مليون عربي.

بالطبع هذه الأرقام يمكن أن نجد تفصيلاتها وتطبيقاتها العمليّة في حياتنا الثقافيّة، عندما نعلم أن الراحل الكبير نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل لا يبيع من طبعة كتابه أكثر من خمسة آلاف نسخة. وهذا الرقم مصدرُه مكتبة «مصر»، الدار التي كانت تنشر للأديب الكبير طيلة حياته.

أما إذا عدنا إلى مستويات كُتّاب آخرين في الرواية والدراسات فإننا سنصل إلى أرقام تعدُّ بالمئات، أما في الشعر فحدّث ولا حرج حيث لا يبيع الناشرون من الدواوين ما يغطي كلفة الإنتاج للغالبيّة العظمى من الشعراء الأمر الذي دفع بالشعراء، خاصة هذا الجيل لما بعد الرواد بدعم دواوينهم شخصيّاً لدى الناشرين من خلال شراء عدد من النسخ يضمن للناشر الدخول في المغامرة!

كما أن هناك ظاهرة مهمة في هذا الميدان وهي تحول معارض الكتاب العربي في كل مكان لأن تصبح السوق الوحيدة الأساسيّة لبيع الكتب باعتراف الناشرين أنفسهم أي الاختفاء التدريجي لدور المكتبات كسوق مهمة وطبيعيّة لبيع الكتب. ولهذا الأمر أيضاً دلالة كبيرة لأن معرض الكتاب هو تظاهرة اجتماعيّة احتفائية بالكتاب كسلعة تضمن له تسويقاً لدى المستهلك، وأن الكتاب اليوم صار بحاجة إلى مثل هذه التظاهرة لكي ينتقل إلى يد المستهلك في حين أن معارض الكتب في الأساس ليست مخصصة للبيع كما نعلم ولا أدل على ذلك من معرض فرانكفورت الشهير للكتاب الذي يظل مخصصاً إلى عقد الصفقات مع الناشرين وللترجمة بين اللغات.

يحملُ هذا التحول في عالمنا العربي مؤشراً خطيراً يؤكد التدهور الحاصل في علاقة المستهلك القارئ مع النص الأمر الذي كما ذكرنا سيكون له الأثر السلبي الأكبر على بلورة الشخصية العربية وحضورها ككيان في مطلع الألف الميلادي الثالث هذا المحفوف بكل أشكال المخاطر والتحديات، كما نؤكد جميعاً وفي كل المحافل دون أن نتوقف على الأبعاد والدلالات العميقة لهذه الظاهرة الكارثية.

بالطبع هناك تفاوت في العلاقة مع الكتاب حسب الاختصاصات فتجد

على سـبيل المثال، صعود الكتاب الديني وكذلك كتب الطبخ والمطبوعات الخاصة بالمرأة وبعض الكتب السياسية ذات الطابع الفضائحي، إلخ من عناوين ولكن كل ذلك يدور في إطار التدهور الكبير الذي حددنا خارطته قبل قليل.

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى خط بياني آخر صاعد بالأحرى في ميدان القراءة وهو قـراءة الصحف والمجلات والمطويّات الملوّنة ذات الطابع الإعلاني الترويجي، وهذه الظاهرة تتكرسُ أكثر في العالم الثالث بشكل عام ولها أسباب أهمها:

١ - العامل المادّي: يتصاعد سـعر الكتاب بشـكل مطّرد مع انخفاض القوّة الشـرائية في المنطقة العربية والعالم الثالث بشـكل مطرد أيضاً. وهكذا فإن الهوّة تزدادُ اتسـاعاً بمـا يجعل من الكتاب ترفاً اقتصادياً لا يمكن الوصول إليه مع توافر الرغبة ومعرفة القراءة والكتابة.

٢ - العامـل الثقافـي: وهو الذي يتحدد بعدم توافـر القدرة المعرفية للاختيار بين الكتـب التي تحتاج أكثر وأكثر إلى مرجعيّة ثقافية لاختيار أي كتاب وفي أي اختصاص.. ولماذا هذا الكتاب دون سـواه؟ ولماذا هذا المؤلف دون آخر؟ وغيرها من التساؤلات التي نطرحها على أنفسنا عندما نُقدِم على شـراء كتـاب، لأن الأمر مختلف والحالة هـذه مع أي عملية اقتناء أخرى خاصة بالماديات وحاجات الاستهلاك اليوميّة المعروفة. ومن هنا فـإن عدداً متزايداً من الناس، يفضّلون عـدم اقتناء أي كتاب لعدم استطاعتهم الإجابة عن هذه الأسئلة، ومن هنا ظهرت البرامج الثقافيّة التلفزيونية والإذاعية التي تهـدف إلى إعانة القارئين في اختيار أفضل الكتب في مختلف الاختصاصات.

٣ - العامل النوعي: المقصود بالعامل النوعي هو شـكل المطبوع الذي يحتـوي على النـص المعرفي أو الإبداعي فهل هو على شـكل كتاب؟ أم كـرّاس؟ أو جريـدة؟ أم مجلة؟ وكيفية طباعتها؟ ونـوع الورق؟ والألوان؟ والصوت وما إلى ذلك.

هـذا العامل مهـم جداً في تحديد طبقة معيّنة مـن القرّاء لأن هناك عـددًا متناميًا من القارئين الذين صاروا، وبمرور الزمن وتكريس المفهوم الانتقائـي في العلاقة مـع المعرفة بين عموم الناس فـي البلد الواحد،

ينظرون إلى الكتاب بشــكله التقليدي الذي نعرفه كحالة طبقيّة ليســت مادّية بالمفهوم الرأســمالي أو البرجــوازي ولكن بمفهوم العلاقة مع هذا النوع من الإنتاج باعتبار الكتب.. وأهل الكتب والمثقفين.. ومنتجي المعرفة قد تكرســوا كطبقة معزولة تعمقت حولهــا الخنادق والحواجز وصارت مثل جزيرة أو جزر متنائية في وسط المحيط الاجتماعي.

ولهــذا فإن القــراءة كفعل صارت تتركــز أكثر وأكثــر على الصحف والمجلات والكراريس باعتبار أن في الصحف كل يستطيع أن يجد ضالّته، إما في ميدان السياســة أو الاقتصاد أو الرياضة أو الألعاب أو الإذاعة والتلفزيــون أو الغرائب وما إلى ذلك من أبواب، خاصة أن الصحيفة هي شكل مفتوح لنقل المعرفة لا يحدّه غلاف ولا تسلسل عبر فصول وأبواب وفــي الوقت نفســه فهو مزوّد بالصور والمفاجــآت ويمكن في حال عدم الإفادة منه فرشــه والاستفادة من مادته الورقية في استخدامات عديدة في الحياة اليوميّة.

٤ - عامــل الرقابــة: بالطبــع يأتي هذا العامل ليشــكل بحــدّ ذاته حاجــزاً خطيراً يحجــب التواصل بين منتج النص ومســتهلكه، وهو بلغ حدّته وشراســته القصوى في المنطقة العربيّة، بحيث يشــكل بالإضافة إلــى العوامل الموضوعيــة الثلاثة الآنفة الذكر العائــق الأكبر في عملية نشــر الكتب ولكننا يجب ألا نســتهين بالأسباب الموضوعية الأخرى التي ذكرناها.

### تجربة «كتاب في جريدة»

كان لا بدّ لمنظمة مثل اليونسكو أن تبحث في أنجع الوسائل والأساليب التي يمكن بمســاعدتها مواجهة هذا الجدب المعرفي والتصحّر الفكري لدى شــعوب كثيــرة وكبيرة التأثيــر على التوازن الحضــاري في العالم المعاصــر، ومن هنا قامت في مبــادرة أولى من نوعها وهي التي أطلقتها في إســبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينيّــة تحت عنوان «Périolibros» ومعنــاه حرفيّاً «الكتاب الدوريّ» والتي بدأت بشــكل تجريبي في البيرو، حيث قام أحد الروائيين المعروفين واســمه مانويل ســكورزا بالاتفاق مع عدد من الصحف في بلاده لتنشر رواياته على شكل تابلوييد (قطع نصف

الجريدة المعروف)، مزودة بالرسوم والتخطيطات في الصحف اليوميّة دون أي إضافة أي تسعيرة جديدة لقيمة الجريدة. وقد نجحت هذه التجربة بشكل محدود في البيرو وبعد وفاة هذا الروائي قام ابنه بنقل التجربة إلى اليونسكو التي اعتمدتها في كامل الدول الناطقة بالإسبانية والبرتغالية (٢٥ دولة) وأطلقتها من العاصمة المكسيكية مكسيكو عام ١٩٩٠ حيث صدر العدد الأول.

نجحت هذه التجربة في أمريكا اللاتينية التي عملت بها طيلة خمس سنوات ونصف (٦٦) عدداً شهرياً فقط، توقفت من بعد ذلك لأسباب ماديّة تتعلق بالصحف الأمريكية اللاتينية من ناحية وبالدعم الذي تقدّمهُ مؤسسات الرعاية في هذه المنطقة من ناحية أخرى.

وعلى أي حال فقد كان نجاحها الأوليّ مدعاةً لنقلها إلى المنطقة العربيّة للتشابه الكبير بين هاتين المنطقتين في العالم بسبب وحدة اللغة والدين بين عدد من الدول موزعة بين قارات متباعدة. وهكذا فبعد اختياري من قبل مدير عام اليونسكو السابق فديريكو مايور، الذي كان يصرّ على ضرورة تمتع المنطقة العربيّة بهذا المشروع المهم والضروري لنموها وتطورها، قمت بزيارة مكسيكو للاطلاع على حيثيات التجربة اللاتينية ومن ثم نقلها إلى العربية وهذا ما تم حيث نعمل اليوم بعد أكثر من عشر سنوات محققين بذلك نجاحاً تجاوز الضعف للتجربة الأم، خاصة أن «كتاب في جريدة» يتواصل ويتطور الآن ليصبح مركزاً إشعاعياً عربياً على مدى كبير من الأهميّة لما يمتاز به من خصوصيات وما يقدمه من خدمات وسنأتي إلى ذلك.

المهم هو معرفة الفلسفة التي تقوم عليها هذه التجربة، ولماذا هي بهذا الشكل الإخراجي وكذلك الآلية التي تعمل بها، لأن هناك تساؤلات ومقترحات تصلني باستمرار وكذلك أثناء المؤتمرات واللقاءات والندوات وعلى أعمدة الصحف أيضاً.

إن الفلسفة التي يستند إليها «كتاب في جريدة» تنطلق من النقاط التي أشرت إليها آنفاً في تحديد الأسباب التي تحد من انتشار قراءة الكتاب في العالم العربي والعالم الثالث بشكل أعم. ولهذا نجد أن صيغة وأسلوب نشر الكتب وتوزيعها عبر «كتاب في جريدة» تتضمن تجاوزاً ورداً على

تلك المعوّقات فنجد الكتاب والحالة هذه مجانيّاً أولاً وهنا تجاوز للعامل المادي، وهو مختارٌ في كل شهر يمثل مادّة أدبيّة ومعرفية مميزة يُقدمها نخبة رائدة من أعلام الثقافة وهنا أيضاً تجاوز للإشكال الثاني وهو العامل المعرفي وكذلك فإن شكله الذي يحتوي على كتاب كامل ولكن على شكل جريدة، فإنه أيضاً يمثل تجاوزاً للعامل النوعي الذي كان أحد أسباب عدم الاقتراب من الكتاب هذا بالإضافة إلى أنَّ أسلوب اختيار المؤلفات عبر مؤتمر مخصص لهذه الغاية وبالإجماع من قبل جميع الأطراف المعنيّة ساعدنا على تجاوز حاجز الرقابة والذي مثل لدينا السبب الرابع في تحديد موانع التواصل مع المعرفة وانخفاض منسوب قراءة الكتب.

من هنا نجد أن الشكل والطريقة التي يتم فيها إنجاز «كتاب في جريدة» هو بلورة متكاملة لكل الردود الناجعة لمواجهة أزمة القراءة وذلك بتجاوز كل المعوّقات لها.

وهنا أودُّ أن أؤكد على نقطة مهمة تصلني دائماً ملاحظات بشأنها وهي السؤال الذي يتردد باستمرار لدى المثقفين في جميع الدول العربية والقائل بـ: لماذا لا يصدر «كتاب في جريدة» على شكل كتاب؟

أعتقد أنني في الاستعراض الآنف الذكر قد أجبت عن هذا السؤال ولكي أوضح أكثر.. ذلك لأن شكل الكتاب المألوف هو بحد ذاته عائق أمام القراءة لدى طبقة كبيرة ممن أسميهم «القارئين» وليسوا بالقراء وهناك فرق كبير بين الاثنين، حيث إن القارئين هم كل من يعرف القراءة والكتابة ولكنهم ليسوا بالضرورة من طبقة «القراء» كما يمكننا تحديدها ثقافياً وطبقياً. أمّا القرّاء فهم المثقفون الذين يقتنون الكتب حسب أهوائهم وتوجهاتهم وأمزجتهم وهم ليسوا بحاجة إلى منظمة اليونسكو لكي تدلهم على هذا الكتاب دون سواه ولا أن تجمّل لهم الصفحات لكي تشوقهم في تقليبها وتُحبّبهُم إليها.. ولكن المشكلة وهي أساسُ موضوعنا اليوم تتلخصُ في كون هؤلاء القراء لا يشكلون إلاّ أقليّة متضائلة في حاضرتنا الثقافية، وكما أشرت قبل قليل بأن عددهم يتراوح بضعة آلاف في محيط إنساني يمدُّ بمئات الملايين.

إنهم يشبهون الأرخبيل من الجزر الصغيرة التي يهددها المدُّ الصاعد مــن الجهل والأميّة وعــدم الاكتراث في حياتنــا، وبهذا فإن الخطر الداهم الــذي ينتظرنا متأتٍ من تصاغر هذه الفئة وتلاشــيها وهي مصدر الضوء ودعامة الحضور والتمثيل لأمتنا في العالم.

ولهــذا فإن هدف «كتاب في جريدة» الأول والجوهري هو توســيع رقعــة هؤلاء القراء بِضَخّ عددٍ متزايد من القارئين لكي يصبحوا بعد أن يتعــوّدوا ويألفوا ويحبّــوا القراءة «قرّاءً» بالمعنــى النخبوي وبهذا ســيزيدون في عدد القراء وهي عملية حضاريــة معقّدة تعتمد على النَفَس الطويل والعمل الدائب والتأسيس العميق وهو ما نحن بصدده منذ أكثر من عقد من السنين، وقد نجحنا بالفعل في ترسيخ الأسس التي نستند اليوم إليها في تطوير عملية القراءة والبناء.

بالطبع هناك مؤشرات كثيرة على نجاح هذه التجربة أهمُها بقاؤها حتى اليوم وقد تجاوزنا العقد الأول ونحن نصدر هذا الشــهر العدد المائة بمعدل ٢,٥٠٠,٠٠٠ (مليونــان ونصف مليون) لكل إصدارٍ أي أننا بهــذا الإصدار نكون قد أهدينا إلى القارئــين العرب قرابةَ ربع مليار كتاب في جريدة.. في كل العواصم العربية تقريباً ما عدا بغداد التي تلتحق مؤخراً بالمشروع.

إن أهمية هذا الإنجاز تتوزع على المحاور التالية:

أ – إعلاميّــا: انتقــل خلال عقد كامل من الســنين دور الصحافة في العمل الثقافي والمعرفي من مســاهمة هامشــية لا تتجاوز بعض الإضاءات هنا وهناك من خلال ما سمّي بـ«الصفحة الثقافية»، والتي بدأت بالظهور في ســنوات الســتين، إلى أن يصبح دوراً تأسيســياً في بناء الشــخصية الثقافية والمعرفية للمواطنين بالمفهوم الواســع، والشمولية التي لم يسبق لها مثيل وذلك من خلال العمل المشترك مع الصحافة العربية بتكامل وتوحد الأهداف والغايات فيما بينها.

إن عملية إصدار عمل معرفيّ إبداعيّ نصّي تشــكيليّ كامل وعلى أعلــى المســتويات في جريدة يومية هــو بحد ذاته نقلــة نوعية لدور الصحيفة ولدور الكتاب في آن.

وقد جاء ذلك في وقت ينحدر فيه مستوى العلاقة مع الكتاب والقراءة

في عالمنا العربي إلى درجة كارثيّة. حسب إحصاءات المنظمات العالمية المختصة، وعلى رأسها اليونسكو والأرقام نعرفها:

كتاب واحد لكل ٣٠٠,٠٠٠ عربي.

وكل ما يستهلكه العالم العربي من ورق في صناعة الكتب يوازي ما تستهلكه دار نشر غربية كبيرة.

إن النقلة النوعية للكتاب تتلخص في أن الكتاب قد كسر حاجز النخبة الضئيلة التي لا تتجاوز الآلاف أو المئات فاتحاً صفحاته أمام الملايين، هذا كما تحطم أيضاً الشكل التقليدي للكتاب وأصبح بحجم التابلويد مع الصور والألوان وفي هذا أيضاً تحول شكلي سمح للكتاب بالوصول إلى أيدٍ لم تكن تألف التعامل مع صفحاته بشكله المعروف، والذي ظل نخبوياً من الدرجة الأولى. يضاف إلى ذلك وحدة الشكل ويوم النشر المشترك أي الموعد مع الملايين وهذا أمر لم تألفه الكتب وقد قدّمته الصحيفة في خدمة الكتاب.

أما ملامح هذه النقلة لدى الصحافة العربية فإنها واضحة وعميقة، فقد صارت الصحافة العربية مجتمعة تحت شمار منظمة اليونسكو «معهداً معرفيّاً جماهيرياً» وهذا تأسيس في نقل المعرفة تقدمه المنطقة العربية كنموذج أول في العالم تتدارس اليونسكو اليوم أهميته الرياديّة على مستوى المجموعة الدوليّة، ذلك لأن مشروع اليونسكو الذي سبق «كتاب في جريدة» في إسبانيا وأمريكا اللاتينية قد توقف في العام السادس بعد إصدار قرابة ٦٦ كتاباً، ولم يحصل أثناء تلك التجربة من الإرهاصات والتفاعلات مثل التي جعلت من «كتاب في جريدة» اليوم الصرح الثقافي العربي المشترك الوحيد.

إن نجاح هذا المشروع يأتي وقبل كل شيء من إصرار الصحف العربية الشريكة وتضحيتها طيلة السنوات العشر المنصرمة وثباتها في بناء هذه التجربة، إيماناً منها بدور الثقافة والمعرفة في نهاية الألف الثاني وبداية الألف الثالث الميلادي في بناء الشخصية الحضارية للعرب فيما عرف عنه بعصر العولمة، والعولمة قبل كل شيء مشروع ثقافي تتصاهر فيه الثقافات والمعطيات المعرفية والتكنولوجية بين شعوب الكون وكأنها شعب واحد.

هــذه النقلة النوعية في الإعلام قد تبلورت أيضاً بفضل هذا التلاحم بين المشــاريع العالمية الكبرى التي تقودها منظمة اليونسكو، وبين شركاء لها في العالم العربي، ليسوا حكومات ولا دولاً.

كما إن اللقاء بين اليونســكو كممثل أعلى للثقافة والحضارة الإنسانية وبــين الصحافة العربية كمصدر إشــعاع ثقافي معرفــي وليس إخبارياً إعلاميــاً فقط بعيداً عن هيمنة الدولة وسياســات الحكومات وبالتعاون مع مؤسسات الرعاية الثقافية التي هي الأخرى أهلية وغير حكومية كل هذا طيلة أكثر من عقد من الســنوات وبعمــل دائب لم يتوقف قد أدّى، وبفخر كبير، إلى تحقق هذا التحول المفصلي فيما يتعلق بدور الصحافة لكي تصبح «المعهد الثقافي الجماهيــري» كنموذج أول في العالم تقدمه الصحافة العربية.

ب – ثقافيــاً: إن الأهميّــة الثقافية لهذا الإنجــاز لا تقل عن أهميته الإعلامية، وذلك لأن اتساع رقعة القراءة والانتقال من النخبة التي تعرف بـ «القرّاء» إلى إشــاعة الكتاب بفضل الصحيفة اليومية وإيصاله إلى ما ســمّيناه بـ «القارئين» وهم بالملايين قد حقــق انفجاراً في علاقة المبدع منتج المعرفة بالمتلقي مستهلكها وهدفها ومبتغاها الأكبر.

يضاف إلى ذلك فإن التأثيــر الذي أحدثته هذه العملية الحضارية لا يمكن إحصاء نتائجه مباشرة وعلى شكل أرقام ودراسات سطحيّة. لأننا نعلم أن البناء الثقافي يتطلب فترات طويلة كما حصل في عصر التنوير في فرنسا الذي سبق التحولات الكبرى أثناء وبعد الثورة الفرنسية والتي استغرقت قروناً.

إن الترســب المعرفي الــذي يتواصل عبر «كتاب فــي جريدة» في يد كل عربي يؤســس بالتأكيد إلى شــخصية معرفية حضارية عربية ذات إشعاعية جديدة على المدى المتوسط والبعيد.

هذا كما أن «كتاب في جريدة» يقدم بالإضافة إلى النص تشكيلاً فنياً مواكبــاً له وهو بهذا يقدم للفن التشــكيلي خدمــة ربما أهم مما يقدمه لمؤلف الكتاب الذي قد ينشــر بســهولة أكثر مؤلفاته على الورق. ولهذا فإن الشخصية العربية التي كان غذاؤها الأول هو اللغة والشعر والمعرفة والتــي نهضت بها عبر العصور تعود اليوم إلى الينابيع الأولى في هويتها

الحضارية مستلهمة صوت الأجداد ونداء الآتين معاً.

لم يسهم «كتاب في جريدة» فقط في نشر الكتب بل حقق الوحدة العربية الفعليّة والممكنة. لأن الوحدة السياسية كانت قبل ذلك شعاراً دفعت الأمة العربية ثمنه دماً ودماراً دون التوصل إلى نتيجة. ولعل كلمة الدكتور عصمت عبدالمجيد، الأمين العام السابق للجامعة العربية في افتتاح المؤتمر الثاني لـ «كتاب في جريدة» في إطار معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٩٩ خير من عبّر عن ذلك بقوله:

«لقد نجحتم حيث أخفق السياسيون»

إن الممارسة الوحدوية ثقافيًا وإبداعيًا هي الاستعادة الحقّة للصورة العربية المشرقة التي حجبها طويلاً ضباب القرون القاتم.

بالطبع لم يتحقق هذا بسهولة عبر إصدار هنا وهناك.

إن حجم التحديات والإشكاليات السياسية والثقافية والمادية والإداريّة كان هو الآخر كبيراً، ولكن الإرادة والدراية العالية في قيادة هذا المشروع والارتقاء به إلى مستوى التحديات والانتصار عليها، وراء هذا الانجاز الحضاري الكبير. ولهذا لا بد وبمناسبة إصدار العدد المائة من تحية روّاد المشروع وعلى رأسهم رؤساء تحرير الصحف العربية الشريكة ثم منظمة اليونسكو وعلى رأسها المدير العام كويشيرو ماتسورا والراعي الذي أنقذ «كتاب في جريدة» رئيس مؤسسة MBI Foundation الشيخ محمد بن عيسى الجابر.

### القراءة والعولمة

لا بد لنا قبل الانتهاء من هذا الاستعراض السريع من الوقوف أمام نقطة جوهرية وهي المتمثلة طبعاً بالثورة المعلوماتية من ناحية، والتي ترتبط بعصر العولمة الذي نعومُ في محيطه مثل قبائل أسماك صغيرة قرب كيانات إخطبوطية وحيتان وقرش من كل الأحجام من ناحية أخرى، ذلك أن في كل من هذين الجانبين أخطارا وتحديات سيتوجب - إن لم يكن قد توجب - علينا الاستطراد لمواجهتها للدفاع عن وجودنا بكل بساطة على سطح الألفيّة الجديدة.

لأن المعلوماتيّة ليست مجرد اقتناء أجهزة الكومبيوتر والعمل بها ولو أن

الأرقام التي تنشــر لحد الآن حول توافر هذه الأجهزة في العالم العربي ما زالت متدنيّة جداً إذا ما قورنت بما هو عليه الوضع في أوربا والعالم في حين إن المنطقة العربية لا تشــكو مادياً، ولكن الأمر أوســع من هذا بكثير، حيث إن فلســفة العمل الإنتاجية عبر وفي الانترنت قد أصبحت الألفبــاء الجديدة في العالــم وإذا كنّا نحن حتى مطلــع الألف الميلادي الثالث ما زلنا نكابدُ في مواجهة الأميّة التقليديّة، حيث إن أكثر من ٦٠٪ من أبناء أمتنا ما زالوا أميين فإن ذلك يعني أننا قد خســرنا وإلى الأبد هذا الرهان.

أما مواجهة العولمة في الحياة الاقتصادية والمعرفية والسياســيّة وكل نواحي الوجود الإنســاني فإننا إذا لم نحقق النهوض بأوســع طبقة من عمــوم أبناء الأمّة فإن مــآل النخبة الثقافية مهما كان مســتواها رفيعاً وراقياً ســيكون الاندثار والتلاشي داخل القرية الكونية المتمثلة في عالمنا المعاصــر اليوم، وهو ما يحصل بالفعل تاركــين أبناء أمتنا إلى مصيرهم فــي التخلف والهامش البعيد النائي عن صميم الحضارة (هجرة العقول واتساع المنافي).

ليس أمامنا إلاّ العمل مع أهلنا وأبنائنا، في المدرســة وقبل المدرســة في الجامعة وبعد الجامعة، في كل مرافق الحياة لمد الجســور والقنوات والروافد المعرفيّــة والثقافية والإبداعيّة من أجــل أن تصل المعرفة إلى عمــوم الناس كل الناس وكلما اتســعت هذه الرقعــة ازداد كياننا أصالة وقــوّة، وكلّما ضعفت ارتمينا في هامش ناءٍ وفــي ركن يزدادُ ظلاماً من عالم أهم ما يوصف به أنه عالم النور والكشف والابداع.

إننا إذا ما استمر الوضع بما هو عليه اليوم كما أشرنا، وتعمّقت الهوّة بــين مصادر المعرفــة والإنتاج الفكري والإبداعي وبين أوســع طبقة من النــاس، فــإن مصيرنا لن يختلف كثيراً عن الهنــود الحمُر الذين لم يبق لهم إلاّ الريش على رءوســهم والألــوان على جباههم، الأمر الذي يضعنا وجهاً لوجه أما السؤال: هل سنكون الهنود الحمُر للعصر الجديد؟ وتكون بلداننا وتقاليدنا واجهات لعرض صور الفلكلور، تمتّع السائحين بغرائبها وتذكّرهم بماضي البشرية؟

# الجذور الحية للأشجار المقطوعة
# المجلات الثقافية قصيرة العمر ودورها الذي لم يكتمل

بندر عبد الحميد*

تشكل المجلات الثقافية مؤشراً متحركاً في الخط البياني لثقافة كل شعب، وهي في ولادتها واستمرارها تحقق طموحات الكتاب والقراء في تطوير حياتهم، وتعبر عن خصوصية هذه الحياة ونبضها وخياراتها وقدرتها على التواصل مع تراثها وحاضرها، ومع ثقافات كل الشعوب الأخرى في العالم.

وإذا كان عنصر الاستقرار هو التربة الخصبة للتنمية، فإن أكثر الأقطار العربية لم ينعم بالاستمرار، منذ خمسينيات القرن العشرين وما بعدها، حيث استقل أكثر هذه الأقطار عن الوصاية الأجنبية أو الاستعمار القديم، ولكنها عانت من ثلاثة أنواع من الصراعات الطاحنة، أولها وأكثرها تأثيراً الصراع العربي الاسرائيلي، وثانيها الصراعات العربية - العربية، بألوانها المختلفة، وثالثها الصراعات الداخلية في كل قطر على حدة، ومنها الانقلابات العسكرية التي صاغت أشكالاً من الديكتاتوريات الطاغية، والصراعات الحزبية والمذهبية الوافدة من القرون الوسطى.

* كاتب من سورية.

وانعكست آثار هذه الصراعات المركبة على كلِ وجوه الحياة العربية، وكان الاستقرار في أكثر الأقطار العربية حلماً مؤجلاً، ولهذا كانت التنمية الثقافية تتقدم ببطء أو تتراجع، ويمكننا أن نتذكر أن النهضة الثقافية الأوربية، التي تسارعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت موازية للنهضة العلمية والصناعية.

إن الأخطار التي تهدد المجلات الثقافية العربية تختلف من بلد إلى آخر، ولكننا نستطيع أن نحدد نوعين من تلك الأخطار، وهما الخطر الداخلي، والخطر الخارجي، ويتمثلان في الحالات التالية:

- الارتجال والاعتماد على المبادرات الفردية.
- ضعف البنية الإدارية وهيئة التحرير أو ما يوزايهما.
- ضعف العلاقة مع القراء، وهو ما ينجم عن ضعف العلاقة مع أهم الكتّاب.
- إهمال عنصر الترشيد في البنية الاقتصادية للمجلة.
- ضعف، أو قطع، التمويل، إذا كانت المجلة تابعة لجهة رسمية أو مؤسسة ما.
- تعدد الجهات الرقابية، أو التداخل المرتبك في اختصاصاتها.

إن عسكرة الحياة السياسية في بعض البلدان العربية، من خلال الانقلابات، كانت كارثة بوجوه متعددة، مهما كانت شعاراتها المعلنة، فالثقافة عموماً، والمجلات الثقافية خصوصاً، لا تستطيع أن تطور نفسها في ظل النزاعات العسكرية التي تصادر الرأي والرأي الآخر، ويظل الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي عنصراً مهماً في نمو النشاطات الثقافية وتطويرها، وتظل الديمقراطية هي الضمان الوحيد لهذا الاستقرار.

ومن الطريف أن بعض الرقابات العربية لاتكتفي بقراءة السطور وما بينها أو ماوراء السطور، وإنما تقرأ النوايا الخفية للكاتب.

ومن الطريف أيضاً أن المجلات الساخرة هي أولى ضحايا الرقابة، مع أن التراث العربي غني بالأدب الساخر الذي نجد نماذج بارعة منه في كتاب الأغاني وكتابات الجاحظ والمقامات والشعر وفي أخبار الأذكياء وأخبار الحمقى والمغفلين للامام ابن الجوزي، وكانت السخرية مرتبطة

دائمـــاً بالحكمة، فهل يريد المراقبون للشـــعب العربي أن يكون أكثر كآبة وبؤساً.

تستطيع المجلات الثقافية العربية أن تحمي نفسها من الانهيار حينما تأخذ شكل مشــروع تنمية ثقافية مدعوم بمخطط واضح لمشروع تنمية اقتصادية مبرمجة، موازية.

فمجلــة الهلال، مثلاً، هي المجلة العربية الوحيدة التي اســتمرت منذ نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٢) حيث دعمت نفسها بمشروعات موازية، مثل «كتاب الهلال»، و«روايات الهلال»، والمطبوعات الموجهة للأطفال.

أمـــا المجلة الثقافية العربية الأكثر انتشـــاراً فهي مجلة «العربي» التي تقترب من عامها الخمســـين، ومنذ البداية كانت «العربي» تهتم بالجانب العلمي من الثقافة، وأضافت إلى ذلك إصدار ملحقها العلمي الشـــهري، ومن قبله أصدرت «العربي الصغير» وكتاب العربي، وسلسلة كتب الندوات السنوية وسلسلة مرفأ الذاكرة، وغيرها، ويمكن أن نتذكر أن مجلة العربي تعرضت لأزمة خانقة إثر غزو الكويت وحرب الخليج الثانية.

إن الحاجــة إلى المناخــات الحرة في الثقافة والفكــر أجبرت أعداداً كبيرة من المثقفين والكتاب السوريين واللبنانيين منذ نهاية القرن التاسع عشر على الهجرة في اتجاهين مختلفين: هجرة إلى مصر، وهجرة أخرى إلى أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، وكانت لهم منابرهم الثقافية في هذين المهجرين، بينما قامت السلطات العثمانية بإعدام نخبة بارزة منهم في عام ١٩١٦ في بيروت ودمشــق، وكلهم كانوا من الكتاب والصحفيين الوطنيين اللامعين.

وفي مقارنة بسيطة بين المجلات الثقافية التي كانت تصدر في سورية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، والمجلات الثقافية التي تصدر اليوم يمكننا أن نكتشف حقائق مثيرة:

- إن أعــداد المجلات الثقافيــة القديمة بتنويعاتها زاد على ســبعين مجلة، أي ما يقارب عشــرة أضعاف المجــلات التي تصدر اليوم، مع أن عدد الســكان تضاعف نحو عشر مرات، وكانت تلك المجلات تصدر من المــدن الكبيرة، إلى جانب ما يصدر منها في المــدن الصغيرة أو البعيدة التي لا يصدر منها اليوم أي مجلة أو جريدة.

- إن تلك المجلات كانت تقدم الثقافة العامة إلى جانب المواد المتخصصة، فهي مجلات علمية وزراعية ونسائية وساخرة وطبية وتاريخية وتربوية واقتصادية وأدبية واجتماعية ودينية.

- إن كل تلك المجلات لم تدم طويلاً لأسباب مختلفة، وكانت المجلات الساخرة هي الأقصر عمراً، بعناوينها المتعددة، وأشهرها مجلة «المضحك المبكي» التي صدرت عام ١٩٢٧ واستمرت في الصدور الأسبوعي حتى عام ١٩٦٢، وتعرضت لفترات انقطاع متكررة، بسبب أحكام السجن التي تكررت لرئيس تحريرها حبيب كحالة، أو وريثه سمير كحالة.

ومنذ سنوات قليلة حاول الفنان علي فرزات إحياء التراث الساخر في الصحافة السورية وأصدر المجلة الأسبوعية «الدومري» وكان يتناول كل القضايا المسكوت عنها في المجتمع السوري. بالكلمة والصورة والكاريكاتير. وحطمت هذه المجلة الأرقام القياسية في المبيعات، ومع أن المجلة لم تكذب في خبر أو تعليق أو صورة إلا أنها تعرضت لضغوط وتهديدات أصابت صاحبها بمرض الكآبة، وهو الذي كان يضحك دائماً، وتعطلت «الدومري» وأضيفت إلى غابة الأشجار الحية المقطوعة.

- كانت المجلات الثقافية لا تفصل بين العلوم والأدب، فمجلة «الثقافة» الشهرية التي صدرت في عشرة أعداد بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤ كانت تنشر المقالات العلمية إلى جانب القصة والشعر وأدب الرحلات، وترصد في صفحاتها الأخيرة «أخبار العلم والأدب».

- وفي مجلات محددة، من الثلاثينيات الماضية، بدأ باحثون متخصصون بتعريب المصطلحات الطبية والعلمية والزراعية وغيرها، مع أن بعض المصطلحات التي طرحها مجمع اللغة العربية لم تأخذ طريقها إلى لغة الكتابة أو اللغة الدارجة.

ولم يبق من مجلات الثلاثينيات سوى مجلة «الضاد» التي صدرت في حلب عام ١٩٣١، ولم يبق من مجلات الخمسينيات سوى مجلة «طبيبك»، ولم يبق من مجلات الستينيات سوى مجلة «المعرفة» التي صدرت عام ١٩٦٢.

تحتاج المجلات الثقافية إلى رسم تقاليد خاصة بها، ومن تلك التقاليد الابتكار واحترام ثقافات الشعوب، واحترام الرأي الآخر، والتواصل مع

آخر المستجدات في العالم، وكسر الحواجز الوهمية بين الأدب والفنون السبعة والعلوم، وتقديم أعداد خاصة، أو ملفات محددة، عن الموضوعات الساخنة أو الملتبسة أو المستجدة، لكي تضمن نوعاً من التشويق والتواصل مع القراء من أجيال ومستويات مختلفة.

من الشروط الأولية للمجلة الثقافية العربية الناجحة، أن تكون مرصداً متحركاً في كل الاتجاهات الثقافية، تبدأ من الثقافة المحلية بماضيها وحاضرها المتجدد، وتمتد إلى وجوه الثقافات في البلاد العربية الأخرى، ثم تمتد إلى وجوه الثقافات البشرية الجديدة وجذورها البعيدة، وتحولاتها، وتقدم نصوصاً حية من تلك الثقافات، في ما يشبه عملية تخصيب متواصلة للثقافة المحلية التي تتداخل فيها الاتجاهات كافة.

وإذا كان الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي هو الأرضية الصلبة التي تقوم عليها أعمدة التطور الثقافي والعمراني والعلمي، فماذا نقول عن بعض الأقطار العربية التي حدثت في بعضها عشرة انقلابات عسكرية، أو أقل، منذ استقلالها، ومع كل انقلاب تبدأ الحياة من الصفر، وتلغى القوانين السارية، ومنها قانون المطبوعات، وقانون العقوبات معاً!؟

وهذا ما كان يتسبب في مشكلة تعدد الجهات الرقابية، في ظل ما يسمى بقوانين الطوارئ والأحكام العرفية، فإلى جانب إدارة الرقابة الرسمية هناك رقابة عسكرية أو أمنية ورقابة برلمانية إذا كان هناك برلمان منتخب أو برلمان وهمي، ورقابات دينية ذات رءوس متعددة المرجعيات.

ولا تكتمل مهمة المجلة الثقافية إلا عندما تستطيع أن تؤسس لعلاقات تواصل وثقة واحترام بينها وبين الكتاب والقراء معاً، وهي قد لا تستطيع في البداية تحديد مستوى القراء إلا بعد أن تحدد مستوى الكتاب، وتكتشف أو تتبنى أقلاماً ومواهب جديدة، بعيداً عن علاقات المجاملة، والاعتبارات الفكرية الضيقة.

إن الأسس التي تتحكم في مستوى أي مجلة ثقافية تتمثل في المعادلة التالية:

– أن تتحكم المواد المتوافرة للنشـر بالناشـر، وتفرض عليه مجلة دون المستوى المحدد.

– حينما يتحكم الناشر بمستوى المواد، يستطيع أن ينجز مجلة متميزة، تحمل رسـالة تثقيفية، تتفاعل مع مسـتويات متباينة من القراء وتتفوق على ثقافة التسلية اليومية.

وإلى جانب ضرورة التركيز على النوعية في اختيار الكتّاب والموضوعات فإن من مهمة المجلة الثقافية اكتشـاف المواهب الجديدة دون التنازل عن مسـتواها، فعلى سبيل المثال ذكر الأديب السوري الراحل د. عبد السلام العجيلي أنه نشـر أول قصة له في مجلة «الرسالة» المصرية عام ١٩٣٦، وكان في الثامنة عشـرة من عمره، ومن المعروف أن هذه المجلة التي كان يديرها الأديب أحمد حسـن الزيات كانت أهـم مجلة ثقافية عربية في زمنها، وكانت تستقطب أقلام أهم الكتاب العرب في كل الأقطار العربية، وتتبنى الأسماء الجديدة الموهوبة في الكتابة.

وتتواصـل الثقافة العربية اليوم مع الثقافات العالمية من طرف واحد، فهي تسـتقبل ولا ترسل، وقد لا نجد إلا نموذجين محددين من المجلات التي تهتم بنشـر الثقافة العربية في اللغـات الأجنبية، الأولى هي مجلة «بانيبـال» التـي تصدر باللغـة الإنجليزية في لنـدن ويديرها الزوجان مارغريت أوبراين والشاعر العراقي صموئيل شمعون، والثانية هي مجلة «القنطرة» التي تصدر بالفرنسة والعربية أحياناً عن معهد العالم العربي. بينمـا نجد نموذجاً مختلفـاً هو مجلة «فكر وفن» نصف السـنوية التي تصدر بالعربية من ألمانيا منذ أربعين سنة.

ومن الموضوعات السـاخنة التي تطرحها تلـك المجلات منذ منتصف عشرينيات القرن العشرين:

– إعـادة قراءة التراث من زوايا جديدة، امتداداً لما طرحه الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي».

– تحرر المرأة، امتداداً لما طرحه قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة».

– الإسـلام والسلطة: امتداداً لما طرحه الشـيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وأثـارت هذه الكتب الثلاثة سـجالات حامية فـي الصحافة الثقافية

المصرية وامتدت تأثيراتها في الصحافة الثقافية العربية كلها.

كما كانت المجلات الثقافية السورية واللبنانية منبراً لرائدات الكتابة من النساء، ومنهن نظيرة زين الدين وزينب فواز وماري عجمي التي أسست مجلة «العروس» عام ١٩١٠، واستمرت حتى عام ١٩٢٥، وكانت منبراً حراً للدفاع عن حقوق المرأة وحريتها.

وكانت المجلات السورية منبراً حراً للكتاب والكاتبات، من الأقطار العربية المجاورة، كما كانت منبراً لنحو خمسة من كبار الشعراء العراقيين من دعاة التحرر السياسي، وتحرر المرأة، وهم معروف الرصافي، وجميل صدقي الزهاوي، ومحمد مهدي الجواهري، والصافي النجفي، الذي نشر في دمشق ترجمة رباعيات الخيام عن اللغة الفارسية عام ١٩٢٦، كشف فيها عن رباعيات لم تنشر بالفارسية والعربية من قبل وأثار ضجة في المجلات والمحافل الثقافية.

وكانت هناك موضوعات ثانوية إلى جانب الموضوعات الساخنة، ومنها نزع الطربوش عن رءوس الرجال، لأنه رمز عثماني، وطرح بعض الدعاة استبدال العمامة بالطربوش، أو الكوفية والعقال، بينما طرح آخرون فكرة ارتداء الزي الغربي، ورد عليهم آخرون بتحريم ارتداء ربطة العنق، وتحريم حلاقة الذقن، وتواصلت عمليات التحريم لتشمل موضوعات مضحكة ومخجلة ومبكية معاً.

وهناك حقيقة مرة ومؤثرة ومؤلمة، تركت بصماتها في تيارات ثقافية عربية سابقة وراهنة، وتتمثل بالتداخل والتشابك الغريب بين الثقافتين العربية والإسلامية، وهو التداخل الذي يتجاهله بعض الباحثين والمفكرين، ولا يطرحون رؤية علمية واضحة لترسيم حدوده، وقد أخذ أشكالاً من الصراع السياسي والفكري المتطرف بين دعاة العروبة ودعاة التطرف في الإسلام.

ومع أن الثقافة الإسلامية كانت منذ أربعة عشر قرناً لب الثقافة العربية فإنها تعرضت لموجات من التغيير والتهجين والتعصب، تركت آثاراً سيئة ومدمرة في حاضر الثقافتين العربية والإسلامية معاً، ومن تلك الآثار ظاهرة إلغاء الرأي الآخر وتشريع السجن والإعدام والقتل والمصادرة التي كان للمثقفين العرب نصيب وافر منها، بعد استقلال

أوطانهم عن الاستعمار الأجنبي، في أواسط القرن العشرين.

إن التوسع الأفقي والتراكمي في علوم الدين، كبديل لعلوم الدنيا، تسبب في اتساع دوائر التحريم والتكفير وإباحة سفك الدماء، وأفسد العلاقات الاجتماعية وحوار الحضارات بين الشعوب، وتسبب في التضييق على الحريات العامة والشخصية وحرية الرأي والصحافة، كما تسبب في إلغاء الأنشطة الإبداعية في الفنون عامة، وألغى السينما في بلدان عربية كانت تنتج أفلاماً، وألغى فضيلة التسامح، ليضع العرب والمسلمين في خندق ضيق في مواجهة العالم كله، حتى مع الشعوب المسالمة والمحايدة.

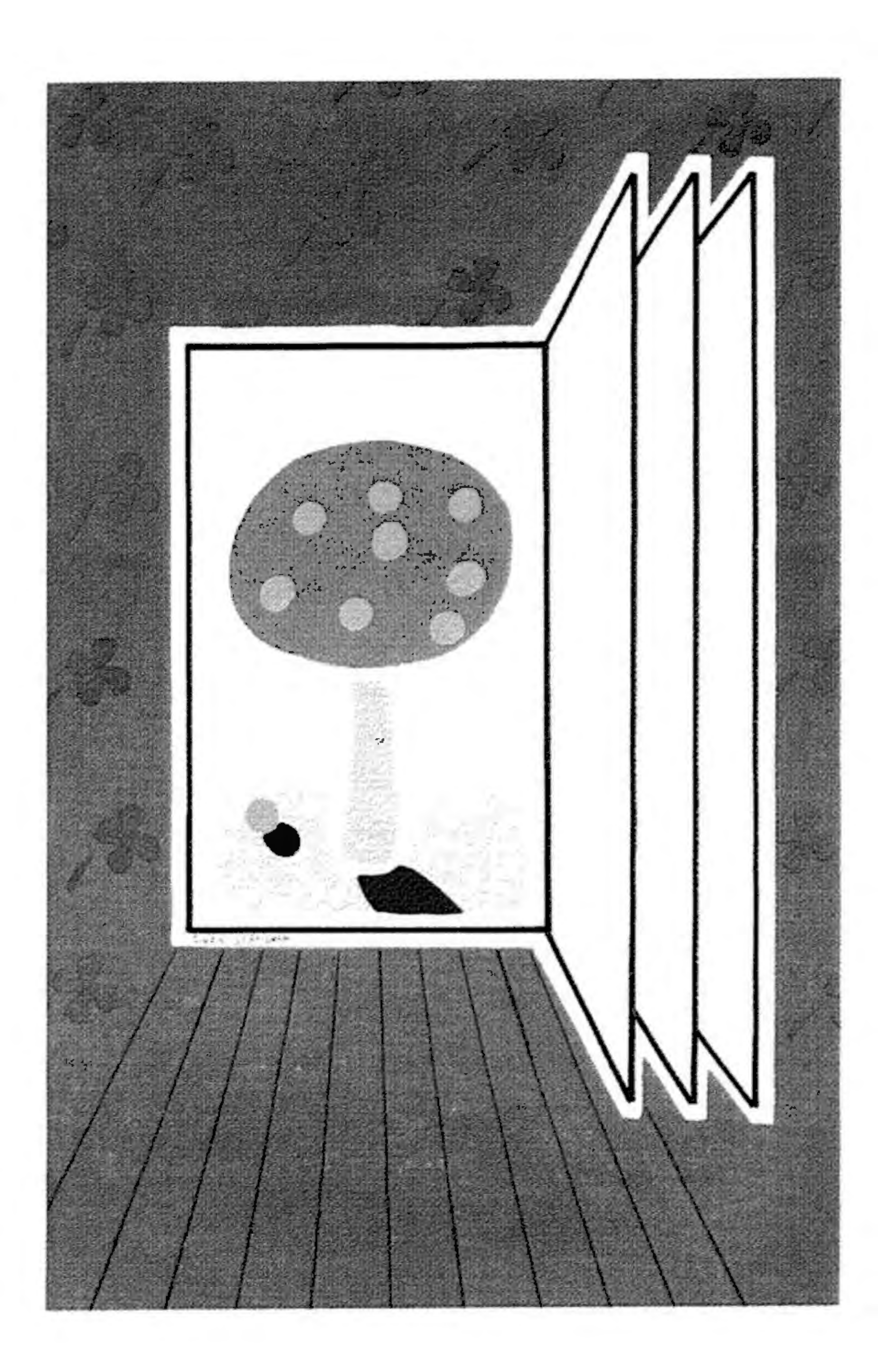
ويمكننا أن نقول، بصراحة، إن النزعات الدينية المتطرفة والخلايا التكفيرية التي كانت نائمة، استيقظت بدعم وتشجيع من دول إسلامية غير عربية منذ نهاية السبعينيات في القرن العشرين، ووجدت لها استجابة واسعة في المجتمعات العربية المضطربة.

إن اختفاء المجلات الثقافية العربية المميزة ظاهرة ليست غريبة، فالاختفاء هو القاعدة والاستمرار هو الاستثناء، فقد شهد القرن العشرون اختفاء عشرات المجلات الثقافية العربية المميزة.

وشهد الربع الأخير من القرن العشرين اختفاء حزمة من المجلات الثقافية اللامعة في مصر، منها: الفكر المعاصر، المجلة، القصة، الكاتب، الشعر، تراث الإنسانية، السينما، المسرح، ومن قبلها اختفت مجلة الكاتب المصري ومجلة الرسالة.

وفي لبنان اختفت خلال النصف الثاني من القرن العشرين مجلتان بارزتان هما مجلة شعر التي احتضنت التيارات الجديدة في الشعر العربي، ثم مجلة «العلوم» التي كانت ترصد آخر المنجزات والتجارب العلمية المستجدة في العالم، وتوقفت أخيراً مجلة الطريق.

إن الطموحات المشروعة لأي مجلة ثقافية عربية ترتبط بقدرتها على التواصل مع المستجدات العلمية، وليس من الحكمة أن نعزل العلوم العصرية عن الثقافة بتنويعاتها المألوفة، ونتجاهل المنجزات الفيزيائية والكيميائية والكشوف الطبية والرقميات والمنجزات السمعية البصرية.



## المحور الثاني

# مجلات ثقافية رائدة:
# العربي - الآداب


■ د. سليمان إبراهيم العسكري

■ سامي خشبة

# مجلة العربي: مرآة العرب على مدى خمسة عقود

د. سليمان ابراهيم العسكري *

كانت مجلة العربي على مدى نصف قرن مرآة للذات العربية بكل مافيها من تناقضات وما عاشته من قضايا. والذي يتتبع الـ ٥٧٧ عددا التي صدرت حتى الآن يستطيع أن يرى على صفحاتها التطور التاريخي المعاصر للعالم العربي بالكلمة والصورة، فرغم أن اهتمام المجلة كان ثقافيًا وتنويريا بالدرجة الاولى، فإنها وجدت نفسها طرفا في كل قضايا التنمية والتطور التي عاشها هذا الوطن، ورغم أنها حاولت أن تعلو على مشكلات السياسة الطارئة، فلا يوجد مواطن عربي لم يصبه طرف من سهام السياسة الطائشة، ولم تكن المجلة بعيدة عن ذلك. وقد عاشت العربي حتى الآن خمسة عقود كاملة، يمكن ان نوجزها تحت خمسة عناوين رئيسية، والعديد من العناوين الفرعية. ولكن لضرورة البحث فقد تم التركيز على أهم التحولات التي شهدها العالم العربي خلال هذه العقود الخمسة:

**العقد الأول:** الستينيات.. من حلم الاستقلال لحافة الهزيمة

**العقد الثاني:** السبعينيات ومحاولة استعادة الذات

**العقد الثالث:** الثمانينيات..الجسد العربي ممزقا

**العقد الرابع: التسعينيات ومحاولة الخروج من النفق المظلم.**

**العقد الخامس: الألفية ودخول العرب في قفص الاتهام**

**العقد الأول: الستينيات.. من حلم الاستقلال لحافة الهزيمة**

كانـت العربي شـاهدا على مرحلة مـن اخطر التحولات التي عاشـتها المنطقـة العربيـة، وهي حقبة كاملـة، امتدت من الاسـتقلال في منتصف الخمسـينيات حتى النكسة في منتصف الستينيات، فمع بداية ظهور العربي كانـت معظم الدول العربية التي نالت اسـتقلالها حديثا. قد خرجت فجأة إلى عالم متغيِّر تشـعر أن مقاليد القوى الكبرى - على الرغم من استقلالها الواهن - مازالت تتحكم فيها. وقد شـعرت أنها تخوض بحق معركة للبحث عن هويتها واسـتنهاض تاريخها لعله يعطيهـا دعمًا قويًا في مواجهة العالم الحديث. لذا نجد أن صفحات المجلة طوال عقد السـتينيات حافلة بالبحث في أحـداث التاريخ العربي وعـن مكامن القوة فيه، كان شـغلها هو إثبات الذات، ومحاولة اكتشـاف العالم الجديد بكل ما فيه من علوم واختراعات. ويمكن تقسـيم الاهتمامات التي اسـتولت على المجلة خلال هذا العقد إلى عدد من النقاط:

**أولا: الاهتمام بشخصيات التراث العربي:**

حفلت صفحات المجلـة بمقالات عن التراث العربي، وربما كان في العدد الواحد أكثر من شخصية مع التركيز على الدور الإيجابي الذي قاموا به في بناء الحضارة العربية. وهي شـخصيات تنوعت على مدى عصور الحضارة المختلفة. فمن مقال عن الزمخشري صاحب كتاب الكشاف في تفسير القرآن إلى عماره بن حمزة الذي كان عبدا ولكن الإسلام جعله يناطح الخلفاء، إلى الفارسة التي كانت تصارع الرجال خولة بنت الأزد، إلى مصطفى كامل الذي أيقظ الوطنية على ضفاف النيل. وحتى الفيلسـوف الضاحك جحا وحماره وجد لها نصيب على صفحات العربي.

لقـد كان العالـم العربي في هذه الفتـرة في حاجة إلـى أبطال يقودون مسـيرته. فقد برزت شـخصيات عديدة قـادت معارك الاسـتقلال ولكن بقـي أمامها هموم مرحلـة البناء الوطني، الذي كان هـو المعركة الأصعب. فالاسـتعمار قد رحل فـي أغلب الأحيان نتيجة لظـروف دولية. فلم تختبر معظم الشـعوب معارك التحرير الوطني الكبرى ما عدا الشـعب الجزائري

الذي كانت ثورته مازالت متواصلة، وقد نشرت «العربي» عنها استطلاعًا في العدد الأول. وبدا أن تجميع قوى الشعب حول هدف قومي يمكن أن يكون مجديًا. وكان الأمل أن يرتقي هؤلاء الأبطال الجدد إلى مستوى الشخصيات التي عرفها تاريخنا العربي.

ثانيًا: بناء الدولة الوطنية

كانت هذه هي المعركة الأهم بعد رحيل الاستعمار. فقد خلف وراءه العديد من الدول العربية دون بنى أساسية ودون أي نوع من المؤسسات، اللهم إلا شكل هامشي وبدائي من أشكال الدولة الحديثة. وكان من حسن حظ «العربي» أنها كانت جزءا من نهضة دولة الكويت. وكانت شاهدا على تجربة البناء فيها على المستويين المادي والمعنوي. فقد عاصرت بناء المدن والأحياء وامتداد خطوط الكهرباء والماء وانتشار المدارس وقيام الجامعة، وكذلك عاصرت تكوين الجيش والشرطة وبناء المؤسسات السياسية والدستورية بها. إن أهمية هذه التجربة أنها كانت شهادة بالغة القرب والدقة على حالة بناء دولة عربية،. فقد رصدت بالكلمة والصورة كل مراحل هذه التجربة، وعاشت أكثر لحظاتها التاريخية تأثيرا، فقد نشرت عن تشكيل أول مجلس للوزراء في الكويت وانتخاب المجلس التأسيسي لوضع الدستور. ففي الخامس والعشرين من شهر فبراير ١٩٦١ تولى حكم الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح وبعدها بعام واحد عقد المجلس التأسيسي المنتخب أول اجتماع له من أجل وضع دستور الكويت، وكانت هذه بداية الديمقراطية الحقيقية في الكويت ومازال هذا الدستور ساريًا ومحترمًا حتى الآن.

وقد توالت الاستطلاعات عن مختلف جوانب النهضة والعمران في الكويت وتتبعت «العربي» على وجه خاص مسيرة التعليم في الكويت بوصفها مجلة تضع الثقافة في اهتماماتها الأولى. وهي تحتل النسبة الأعظم بين استطلاعاتها. وقد أبرزت بالأرقام التطور الذي كان يحدث في هذا القطاع أولا بأول. وفي أول استطلاعاتها في هذا القطاع تؤكد من خلال الأرقام أنه في عام ١٩٣٦ لم يكن بالكويت سوى مدرستين لا تضمان أكثر من ستمائة تلميذ وتلميذة، ولكن الأعداد ارتفعت في عام ١٩٦٢ إلى أكثر من ١٣ ألف طالب وطالبة.

وقد أولت العربي تعليم المرأة في الكويت اهتماما خاصا لما يمثله هذا من

ثورة على التقاليد المحافظة وتدخل المجلة في أحد استطلاعاتها إلى واحدة مـــن مدارس البنات في الكويت لتشـــاهد تجربة الفتـــاة الكويتية في التعليم الثانوي. وتصور كل أنشـــطتها. وهو أمر قد أصبح متعذرا الآن بسبب القيود الاجتماعيـــة التي تجعل من تصوير الفتيات أمـــرًا صعبًا. ويؤكد التقرير أن عدد الطاليات قد زاد ســـتين ضعفًا في عشـــر ســـنوات، ففي عام ١٩٥٠ لم يكن عـــدد الطالبات يزيد على ١٢ طالبة، أما في عام ١٩٦٢ فقد ارتفع إلى ٩٣٧ طالبة.

وكانت «العربي» أيضًا حاضرة عند وضع أول تخطيط للعاصمة. وشـــمل هذا التخطيط أقدم وأشهر مقبرة في الكويت وتم تحويلها إلى حديقة غناء. وكانت المقبرة قد امتلأت عن آخرها وبدأ العمران في الزحف والإحاطة بها من كل جانـــب وأصبحت بعد أن كانت على أطـــراف المدينة في القلب منها وكان لابد من إخضاعها لعملية التخطيط العمراني

وتتبعـــت «العربي» أيضًا تطـــور الصناعة في الكويـــت. وتابعت ولي عهد الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي أصبح أميرًا للبلاد فيما بعد وهو يقوم بافتتاح مصانع الأسمدة في عام ١٩٦٧ في منطقة الشعيبة. وقد تكونت من مصنعين كبيرين أحدهما ينتج النشادر والآخر يصنع سماد اليوريا. وكان إنشـــاء هذه الشركة هو تطوير لاستغلال مشـــتقات النفط وكان الهدف من إقامـــة هذا المصنع هو اســـتغلال طاقة الغاز الطبيعـــي الذي تمتلك الكويت كمية كبيرة منه.

ولـــم تنس «العربي» وهي ترصد رحلة بناء الدولة العصرية في الكويت أن تتابع رحلة الفن والفنانين، وقد قامت باســـتطلاع مهم مع رواد هذا الفن في الكويت مثل معجب الدوســـري وأيوب حســـين وخليفة القطان وغيرهم ممن توفاهـــم الله الآن. وقد قامت «العربي» بزيارة المرســـم الحر الذي كان يضم مجموعة من الفنانين الشـــبان أصبحوا شيوخًا الآن. ويلاحظ الاستطلاع أن الفنانـــة الكويتية لم تكن موجودة بعد، على الرغم من أن هناك نشـــاطا فنيا جارفا لتلميذات المدارس، ولكن هذه الحركة لم تكن قد تبلورت لتخرج نساء قادرات على احتراف طريق الفن.

**ثالثا - الرحلات الأخيرة للأراضي الفلسطينية التي ضاعت**

في مطلع الســـتينيات رحلت «العربي» كثيرًا إلى الأراضي الفلســـطينية،

وقد دخلت المدن التي كانت لاتزال ناجية من الاحتلال الإسرائيلي. فقد ظلت الضفة الغربية حتى منتصف الستينيات متاحة لكتّاب ومصوري «العربي» حتى وقعت النكسة فأغلقت في وجوههم ووجوهنا. وقدمت المجلة صورة مشبعة بالحنين والأملِ والانتظار ليوم النصر الذي سوف يجيء. ومع الأسف الشديد لم يحل بدلاً منه سوى الهزيمة النكراء التي أضاعت ما بقي من الأراضي الفلسطينية.

ولعل من أهم المدن التي زارتها «العربي» هي أريحا، أقدم مدينة في العالم، ويقال إن تاريخها يمتد إلى ثمانية آلاف سنة. وقد قدمها أنطونيوس هدية لحبيبته كليوباترا. وصعد السيد المسيح على جبل التجربة الذي يطل عليها واعتكف في أحد كهوفه. وجاء الشيطان يغريه بكل ملكوت الدنيا فلم يستجب له. وانسابت مياه عين السلطان بعد أن باركها النبي «اليشاع» وحولها من عين مرة إلى عين عذبة. وبالقرب منها حيث يمر نهر الأردن يوجد موقع يسمى المغطس، وهو المكان الذي يعتقد أن يوحنا المعمدان قد عمد المسيح فيه وفي هذا المكان يتم الاحتفال سنويًا بعيد الغطاس حيث يهبط العشرات من الأهالي والسياح في المكان نفسه. ترى ماذا حدث لكل هذه المعالم التي تفطر القلب؟

وعلى الرغم من طواف «العربي» في بقية مدن الضفة الغربية طوال النصف الأول من عقد الستينيات، فقد ظلت مهتمة بشكل خاص بمصير نهر الأردن. وكأنها كانت تدرك أن هناك معركة قادمة وأن هدفها الأول هو الاستيلاء على مياه هذا النهر.

لقد سارت بعثة «العربي» مع هذا النهر من منبعه إلى مصبه، حلّقت فوق مجراه بالطائرة وعاشت مع الناس الذين ولدوا على ضفافه وشربوا من مياهه. وهي تقدم من خلال هذا النهر قصة الحقيقة الضائعة أو بالأحرى خاتمة نهر. فقد قامت إسرائيل بإقامة المضخات الطائلة التي سلبت الجزء الأكبر من مياه هذا النهر وحولته إلى صحراء النقب لتستوعب فيها عشرات المهاجرين الجدد وتحول النهر العظيم إلى مصرف مالح وسط صمت وتواطؤ عربي مهزوم.

لقد أدركت «العربي» أن العرب كانوا مهزومين حتى قبل أن يدخلوا المعركة العسكرية.

### رابعا: صدمة النكسة وضياع الحلم:

في عدد يوليو من سنة ١٩٦٧ تلقت «العربي» أنباء الهزيمة العربية. ولكنها لـم تكن قـد أدركت مدى حجمها وتأثيرها بعد. فقـد اضطرت إلى إضافة صفحـات في مطلعها حافلة بالصور والتعليقات السـريعة. واقتصر غلاف المجلة على اللونين الأبيض والأسود في صورة تظهر فتيات سوريات يمسكن السـلاح ومكتوب تحتها: لقد عبأت سـورية كل قواها وعبأت النساء، ولكن الحقيقـة في الداخل كانت مختلفة. كانت هناك صور للاجئين جدد، وخيام جديدة. كانت فلسطين تعيش نكبتها الثانية وكان عشرات الآلاف من الضفة الغربيـة يحملون أمتعتهم و يسـيرون في طريق طويـل عبر نهر الأردن فوق جسـر اللنبي وقد تسلطت فوق رءوسـهم البنادق الإسرائيلية. وكان ضحايا النابالم بأجسادهم المحروقة يملأون المستشفيات.

ولـم يكـن هناك ما يقال غيـر مزيد من الأكاذيب. ويقـول رئيس تحرير «العربي» الدكتور أحمد زكي في أسى: «إن النكسة الكبرى قد حلت بنا، وهي ثالثة النكسـات، ونسميها النكسة لا النكبة، فالنكسة يكون دائمًا منها شفاء. وهو شـفاء لن يتهيأ هذه المرة إلا بعد أمد قـد يطول. فداؤنا أن بيننا منهم مثل هذا العدد العديد. أما النطاسـون فيهـم فنظروا وصمتوا لأن أحدًا لم يطرق لهم بابًا وخشـيهم الناس، لأنه هالهم أن يسبر النطاسون عمق الداء. ولله الأمر من قبل ومن بعد ....».

ويمتلئ هذا العدد بالمزيد من الألم. ويصرخ على صفحاته الشاعر الكويتي المعروف أحمد السقاف قائلاً:

الجـــرح جـــرحـــك، قـــم لـــلـــثـــأر مـنـتـقـمـا
والأرض أرضـــك فـــاسـحـــق رأس مـــن ظـلـمـا
لا تـحـفـلـــن بـــاســـطـــول يُـــــدِلُّ بـــه
طـــــاغٍ يـــجـــر إلـــــى تـــابـــوتـــه قـــدمـــا

وفـي الأعداد التالية مـن «العربي» تبدأ تداعيـات الهزيمة في الظهور، وأعتقد أنها مازالت توالي الظهور حتى الآن.

وقد صنعت الهزيمة عدة متغيرات بدت واضحة على صفحات المجلة:

أ - لقـد تغيرت اهتمامات رئيس تحريرها أحمـد زكي إلى درجة كبيرة، لقد أدرك أن سبب الهزيمة الرئيس هو التخلف العربي وأنه لن يتأتى التغلب

عليهـا إلا بالعلـم. لذلك، فقد بدأ في عمل مشـروع طمـوح من أجل كتابة موسوعة علمية وأخذ يدبج في كل عدد مقالات في تبسيط العلوم، كان يريد أن يخلق وعيًا جديدًا يسـمو على واقع الهزيمة المؤلم ويفتح السبيل لمستقبل جديد.

ب - حافظـت المجلة على أسـلوبها الرصين ووجههـا الثقافي ولم تنزلق كثيـرًا في تيار الغضب الذي اعترى الجميع فـي أعقاب الهزيمة ولكنها مع ذلك نشرت أشد القصائد غضبًا وأكثرها احتجاجًا ضد واقع الهزيمة. وهي قصيدة نزار قباني «هوامش على دفتر النكسـة» التي تسـببت في مصادرة المجلة في مصر وسورية لأول مرة في تاريخها.

جـ -لم يعبر الكتّاب عن رأيهـم بالغضب الكافي نظرًا لتحفظ المجلة بعد تجربـة المصادرة، ولكنها فتحت الباب لرسـائل القـرّاء الذين كان الغضب والألـم يجتاحهم وحفلت المجلة بالعديد من هذه الرسـائل. وكان واضحًا أن أحدًا لم يقتنع بكل ما يقال على سبيل التبرير.

وربما كانت نهاية حقبة الستينيات بكل ما فيها من أحلام وهزائم وأحداث جسـام وقد دخـل العالم العربي، ودخلت معه «العربـي» إلى مرحلة جديدة ومختلفة.

**العقد الثاني: السبعينيات ومحاولة استعادة الذات**

دخـل العالم العربـي في عقد السـبعينيات وهو في حالـة مؤلمة. كانت تداعيـات الهزيمة أكبر مما يتوقع أحد. فهي لـم تطح فقط بأحد الأحلام القوميـة الكبرى في التحـرر النهائي من آخر بقايا الاسـتعمار في الوطن العربي. ولكنها أوضحت أيضًا أن كل الشـعارات البراقة التي كانت تتحدث عن الوحدة والتنمية الشاملة والتحرر الثوري كلها كانت ترتكن إلى مؤسسات خاوية من الداخل لا تقوم إلا على الشـعارات الزائفة. ودخلت مجلة العربي أيضا إلى السـبعينيات وهي تحس بجسـامة المسـئولية. وفي محاولة منها لإعادة بث روح الأمل. وإن كانت هي أيضًا قد عانت من تغيرات في محتواها ومضمونها ويمكن أن نرى مظاهر هذه الرحلة فيما يلي:

**أولا: العقلانية المؤلمة في مواجهة الواقع:**

لـم تعد «العربـي» قادرة على التغني بالأمجاد القديمـة. كان الواقع أكثر مرارة من أن يمكن تجاهله. اختفت المقالات التي كانت تمجد الشـخصيات

العربية القديمة. ولم يعد البطل الفرد هو الخلاص في أزمة الهزيمة. ساد المجلة ما يشبه التيار الليبرالي. وبدأ الحديث عن حقوق الإنسان العربي المهدرة. والرغبة في الحرية، على الرغم من أن نغمة الرفض كانت خافتة في العربي قياسًا إلى المجلات الأخرى، التي كانت تتناول الهم السياسي بشكل مباشر.

في أول افتتاحية لهذا العقد يقول رئيس تحريرها متأسيًا «إن الكف تهوي على صدغ الضعيف». ويتحدث حسين مؤنس عن أخلاق النصر وأخلاق الهزيمة: «حين يفقد الرجال إرادة النصر تهب عليهم رياح الخوف والتفكك والخلاف. ويصبح همهم الوحيد هو النجاة بجلودهم، نقطة النهاية هنا هي انعدام الرجال المؤمنين بالنصر، انعدام الملهمين».

وكتب الاقتصادي محمد ربيع محتجًا: «إن بقاء المال العربي خارج الأسوار التي أقامتها الحكومات العربية بعيدًا عن الأيدي المتلهفة إليه والعقول القادرة على استخدامه بكفاءة سوف يحوله في فترة قصيرة إلى سلاح في أيدي القوى المعادية للأمة العربية». ويتحدث خبير آخر في التعليم هو صلاح الناجي عن مشكلة الأمية قائلاً: «منذ سنوات ونحن ننظم حملات لمحو الأمية. وماذا كانت النتيجة؟! زيادة حجم المشكلة في بعض الدول العربية، وتعثر في العمل، وعدم إحراز نتائج تتناسب مع الجهد المبذول».

**٢ - حرب أكتوبر وعودة الأمل:**

« تلك صفحة في تاريخنا بيضاء، تذهب بسواد تلك الصفحة الرهيبة القديمة السوداء»

هكذا كتب د.أحمد زكي في الصفحة الأولى بعد أن فاجأته حرب أكتوبر التي نشبت في ٦ أكتوبر بين العرب وإسرائيل، وقد تم طبع «العربي» إلا صفحات قليلة، ولم يكن يملك إلا أن ينتزع الافتتاحية من المطبعة ويكتب مقالاً عن الحرب في أيامها الأولى. وينشر في هذه المرة صورًا لأرتال الدبابات المصرية وهي تعبر القناة. وصورًا للأسرى الإسرائيليين، بل وصورًا للفدائيين الفلسطينيين وقد أخذوا مواقعهم استعدادًا.

وإذا كانت «العربي» قد فعلت ذلك على عجل في شهر نوفمبر، فقد خصصت عددها التالي في ديسمبر بأكمله لهذه الحرب وتداعياتها. كان العرب قد أشهروا سلاح البترول يدعمون به جيوشهم في ميادين القتال،

كما نشـــرت المجلة صورة لقـــرار وقف إطلاق النار مـــع اعترافها أنه حدث تحول في الحرب في أيامها الأخيرة. ولكنها أشادت بوحدة العرب، وأشادت باســـتخدامهم أخيرًا لســـلاح النفط. وكانت حكومة الكويت هي التي دعت بعـــد ثلاثة أيام من بدء معركة التحرير وزراء النفط العرب إلى عقد اجتماع عاجـــل في الكويت لبحث دور النفط في المعركـــة، واتخذوا قرارهم بخفض إنتاج النفط في كل شـــهر بنسبة ٥٪ حتى يتم تحرير كامل الأراضي العربية. وفي الوقت نفســـه، أوقفت معظم الدول العربية تصدير نفطها إلى الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة دعمها غير المحدود لدولة العدوان.

ولكـــن بعد هدوء المعارك العســـكرية بدأت المعارك السياســـية، ولابد أن «العربي» قد أحسّـــت بعد ذلـــك أن هذا ليس ميدانهـــا. وأن عليها أن تعود لدورهـــا الثقافي. ولكن الموضوعات التي نشـــرتها كانت مليئة بآمال ما بعد الحـــرب. آمال الســـلام والتنمية والتقـــدم. فقد ركّزت على إنشـــاء الكويت لصنـــدوق التنمية العربية وكيـــف رصدت له ١٠٠ مليون دينـــار ليكون عونًا للتنمية العربية الشـــاملة. وكذلك قامت برحلة إلى بحيرة ناصر التي صنعها الســـد العالـــي. وهي أمل مصـــر الجديد التي بدأت الحياة تـــدب فيها بعد طول إهمال. ورحلت أيضًا إلى المغرب لتلقي الضوء على ســـد إدريس الذي كان واحدًا من ٢٥ ســـدًا تقيمها المغرب وتهدف إلى إصلاح مليون هكتار من الأرض الزراعية. ولكنها وسط هذه الثورة من الآمال تلمح بوادر الشقاق التي بدأت تدب بين أرجاء العالم العربي، وكان هذا الشقاق هو بداية عقد جديد ومرير في تاريخنا المعاصر.

**العقد الثالث: الثمانينيات وتمزق الجسد العربي**

دخلـــت «العربي» مرحلة الثمانينيات وهي تـــرى العالم العربي يعيش فترة من أكثر لحظات التمزق في تاريخه المعاصر. كانت مصر قد عقدت اتفاقية كامب ديفيد مع العدو الإسرائيلي ونتيجة لذلك، فقد تم إقصاؤها تمامًا عن الصف العربي وقطعت كل الدول العربية - ما عدا سلطنة عمان - علاقاتها معهـــا. وبهذا خرجت أكبر قوة عربية من ميدان الحرب مع إســـرائيل، ولكن ذلك لم يخرجها من الجســـد العربي. وفـــي هذه الحقبة أيضًا كانت الحرب الأهلية اللبنانية قد دخلت عامها الخامس. وكانت إســـرائيل بعد أن ضمنت أنه لا رادع لها في المنطقة تستعد لغزو بيروت.

ومن المدهش أن «العربي» التي حاولت كثيرًا أن تنأى بنفسها عن تقلبات السياسة قد وحّدت نفسها في قلبها. لقد حاولت أن تبتعد عن مواطن النزاعات في العالم العربي ولكنها على الرغم من ذلك وجدت نفسها في بيروت عام ١٩٨٢ والمقاومة الفلسطينية تستعد للخروج منها إلى أجزاء أخرى من عالمنا العربي. وسجلت عدساتها ذلك الوداع المؤثر بين المقاتلين وبين عائلاتهم. واستكمالاً لهذه الصورة فقد أجرت «العربي» حوارًا مطولاً مع الفنان ناجي العلي الذي قيل أنه قتل أثناء الغزو الإسرائيلي لبيروت. وقد أدلى في هذا الحوار بصورة قاتمة عما يجري أثناء الحرب.

ويمكن ملاحظة تطورين مهمين حدثا لـ «العربي» خلال هذه الفترة:

**أولا: اتساع الأفق العربي والإحساس برحابة العالم:**

توفي رئيس تحرير العربي د. أحمد زكي في عام ١٩٧٥ وتولى رئاسة التحرير بدلاً منه الكاتب المعروف أحمد بهاء الدين. وشهدت المجلة على يده تطورًا كبيرًا. كانت خلفية بهاء الدين سياسية. لذا فقد غلب الطابع السياسي على الافتتاحيات التي كتبها. كما أخذت المقالات التي تناقش الهموم العربية من المنظور القومي مكانها الدائم في مقدمة المجلة.

وفي الواقع كان الهم السياسي العربي أكبر من الممكن تجاهله. أو الحديث عنه بصورة غير مباشرة. وقد كتبت المجلة في مقدمة أحد أعدادها عام ١٩٨٣ عن ظاهرة انتشار الكتابات التي تقطر مرارة وتشيع روح اليأس في حياتنا ولا تولد سوى العجز والشلل وتواصل المجلة قولها : « ولعل هذه الظاهرة تعود إلى مسيرة الأمة العربية على طريق مليء بالأحزان، وتمضي على درب العجز أمام التحديات، مع تنوع صور الفشل والإحباط التي واجهتها خلال العقدين الماضيين».

وقد شهدت «العربي» أيضًا بداية الانفتاح على العالم، فبعد أن كانت رحلاتها ورؤاها تقتصر على العالم العربي، وظلت مقتصرة على باب استطلاع ثابت هو «إعرف وطنك أيها العربي»، تكسّرت الحدود بين العرب والعالم، وبدأت رياح العولمة وثورة الاتصالات في الهبوب، وكانت «العربي» أول من أحس بها فانطلق محرروها إلى آفاق العالم الإسلامي أولاً، ثم إلى مشارق الأرض ومغاربها ثانيًا تنقل للقارئ العربي المحبط سياسيًا والمحاصر

اقتصاديًا صورة من تجارب وصور العالم الآخر وأصبح باب «العربي عيونك على العالم» بابًا ثابتًا على صفحاتها.

ثانيا- العربي وعيدها الخامس والعشرون (اليوبيل الفضي).

في عام ١٩٨٣ احتفلت «العربي» بيوبيلها الفضي. كان أحمد بهاء الدين قد ترك رئاسة تحريرها بعد سبع سنوات، بسبب دواعي المرض. وتولى تحريرها عام ١٩٨٢ أستاذ علم الاجتماع الكويتي د محمد الرميحي. وكانت «العربي» قد وصلت إلى نضجها، وأصبحت بحق مرآة للعالم العربي، وشاهدًا على ما حققه من إنجازات، وما شهده من خيبات. وقد عقدت المجلة بهذه المناسبة ندوة حاشدة حول دور المجلات الثقافية، وأعلنت فيها عن خططها الجديدة من أجل إصدار كتاب العربي. والذي جاء تلبية لرغبة القرّاء في متابعة مقالات عدة لكاتب واحد. أو مقالات لكتّاب عدة في قضية واحدة. وكان الوعد وقتها أن يتم صدور هذا الكتاب فصليًا إلى أن تنتقل «العربي» إلى المطابع الجديدة فيصدر شهريًا. ولكن هذا الأمر لم يتحقق إلى الآن. فقد صدر كتاب العربي حقًا، ولكنه مازال فصليًا.

أما الإنجاز الأكبر الذي حدث في فبراير منذ عام ١٩٨٦ فهو صدور مجلة «العربي الصغير» لتسد نقصًا خطيرًا في الثقافة العربية الموجهة إلى الطفل. وكانت «العربي» منذ أعدادها الأولى مهتمة، ولو على استحياء بتلك الشريحة الصغرى من القراء. فقد كانت تصدر لهم ملحقًا صغيرًا لايتجاوز ثماني صفحات، معظمه منقول عن الموسوعات العالمية في عالم الطفل. ولكن صدور العربي الصغير أحدث نقلة نوعية في هذا الاهتمام.

لقد فتح نافذة واسعة أمام عدد كبير من الكتّاب والفنانين الموهوبين الذين كانت «العربي» لا تعرف الطريق إليهم، هؤلاء هم كتّاب ورسامو الأطفال. وأيقظت المجلة داخلهم مناجم من الإبداع كانت مطمورة بفعل ضيق وسائل النشر. وجاءت المجلة لتسد فجوة في ثقافة الطفل العربي الذي لم يكن نصيبه من هذه الثقافة سوى بضعة سطور كل عام.

بهذا الأمر استكملت «العربي» أدواتها. وقد أطلقت على نفسها لقب «حاملة الحلم العربي»، وكانت تأمل القيام بدور تنويري لعلها تستطيع أن تضيء ذلك الليل الثقيل الذي ترزح تحته الأمة العربية. وقد أصابها جزء من هذا الكابوس، وكانت ضحية للشقاق العربي الذي بلغ أقصى ذروته مع مطلع

التسـعينيات حين قام نظام صدام حسين البائد بالهجوم على دولة الكويت، وكانت مجلة «العربي» واحدة من ضحاياه العديدة.

**العقد الرابع: محاولة الخروج من النفق المظلم**

بدأ عقد التسعينيات بداية تعيسة بالنسبة لمجلة «العربي»، فالحلم العربي الذي قضت ثلاثة عقود في الدفاع عنه، قد تبدد في مغامرة عسكرية حمقاء قام بها صدام حسـين لاحتـلال دولة الكويت، وكانـت الثقافة الكويتية هي أولـى ضحايا هذا الغزو. وقد ترك غيابهـا فراغًا كبيرًا في الثقافة العربية بشـكل عام. وقد ظهر أثر ذلك واضحًا لا عنـد النخبة المثقفة فقط، ولكن عنـد الأغلبية الصامتة من القرّاء الذين حرمـوا من وجبتهم الثقافية، التي كانت تأتيهم في أفضل صورة، وأرخص سعر. وقد اضطرت «العربي» للغياب لمدة عام كامل امتد من سبتمبر ١٩٩٠ إلى أغسطس ١٩٩١، وهو العام الذي تحررت الكويت في شهر فبراير منه.

وقد عبّر أكثر من مثقف عن تأثير هذا الغياب في أكثر من مناسـبة. كتب الدكتور فؤاد زكريا «ما من إنسان محب للثقافة إلا ويحتفظ في قلبه بمكانة عزيزة لما يصدر عن الكويت من كتب ومجلات ودوريات رفيعة المستوى، زهيدة السعر. وما من مثقف عربي ذي شأن إلا ويحمل ذكرى غالية لمؤتمر أو ندوة أو مهرجان عقد في الكويت». ويقول أحمد حمروش «العربي بالنسبة للكويت مثل الأهرامات بالنسـبة لمصر. جزء من شخصية الوطن، وإحدى العلامات التي تشـير إليها فتتداعى إلى الذهن صورة الكويت». ويقول سامي خشبة: «إننا نتذكر الآن الدور الذي لعبته الكويت خلال العشرين عامًا الأخيرة. بدأ هذا الدور بإصدار مجلة العربي التي أوشكت خلال هذه السنوات أن تصبح المجلة القومية الأولى والوحيدة في العالم العربي».

وقد شعر المسئولون في الكويت بأهمية عودة الدور الثقافي للكويت عقب تحرير الوطن على الفور. وبالرغم من أن القوات العراقية كانت قد استولت علـى مطابع الحكومة، وفكت ما فيها من ماكينـات، ونقلتها إلى العراق، إلا أن المسـئولين لم يجعلـوا من هذا الأمر عقبة أمامهم. لقـد بادروا بإصدار كل المطبوعـات الثقافية من القاهرة. وهكذا لم تعـد «العربي» وحدها بعد التحريـر، ولكن عاد معهـا عالم المعرفة، وعالم الفكـر، وكل أدوات الكويت الثقافية الثقيلة.

وقد تميزت سنوات التسعينيات بالنسبة لـ «العربي» بما يلي:

**أولا- محاولة الارتقاء فوق الجراح والشقاق:**

كانت عودة «العربي» هي محاولة الكويت للسمو والارتقاء فوق جراحها الشخصية. وبالرغم من أن عدد سبتمبر ١٩٩١ الذي كان يعلن عن عودة «العربي» كان يحمل صورة آبار النفط المحترقة والتي كانت لاتزال تحترق بالفعل، مكونة فوق أرض الكويت سحابة سوداء صنعها الحقد الأسود الذي اقترفه النظام العراقي وهو ينسحب مهزومًا. أقول. بالرغم من هذا الجحيم المستمر على أرض الكويت، فقد كتب رئيس تحريرها في افتتاحية «نتسامح ولا ننسى»، يقول: «لقد قدم الكويتيون اليوم المثل الرائع على التسامح، فليس المهم البكاء على ما فات، الأهم من ذلك بناء دولة قائمة على العدل والتنمية والتسامح، وبناء علاقات عربية جديدة قائمة على التعاون ونبذ الإرهاب».

وكتب الشاعر الكويتي عبدالرزاق العدساني قصيدة يرحب فيها بـ «العربي» قائلاً:

عربي في معاليه سما

في سماء الفكر يسري كالبريق

بعد أن طالت بنا غيبته

والتأم الجرح من طعن الرفيق

ولكن أصدق تعبير عن حيرة المثقف الكويتي الذي عاش في ظل حلم القومية، ثم فوجئ بواقع الغزو الاحتلال والتدمير. كانت هي الرسالة، التي وجهها الدكتور سليمان الشطي القاص وأستاذ الأدب العربي بجامعة الكويت، إلى من يهمه أمر هذه الأمة». وهي أسئلة حائرة يلقيها أب من خلال مواجهة مع ابنته تسأله عن الغزو والأصدقاء والأشقاء دون أن يدري كيف يجيبها. وهو يتساءل في أسى: «هل سقطت كل الأشياء الجميلة؟ من المستحسن ألا نترك اليأس يتحكم فينا. وأن نخط طريقًا مقنعة لإحلال مفهوم حقيقي للقومية والعروبة والحب والوفاء والدم الذي يحن على الأهل والأحباب، واللغة التي تربطنا. وليس تلك التي هتف بها الشارع العربي، فشطر الشيء الواحد إلى أشطار».

لقد لعبت مجلة «العربي» دورًا كبيرًا في تلطيف الأجواء المحتقنة بعد الحرب. وقد حاولت أن تعلو فوق بعض الأنظمة الرسمية، التي وقفت موقفًا

مضادًا من الكويت إبان أزمتها لأنها كانت تعلم أن رسالتها الأساسية موجهة للقارئ العادي الذي لا يضمر للكويت إلا كل محبة مهما كانت طبيعة أنظمته السياسية.

**ثانيا- المثقفون العرب يؤازرون «العربي»:**

منـــذ أن صدرت «العربـــي» في أواخر الخمســـينيات وقـــد التف حولها المثقفون العرب. ولكنها لم تشهد مثل هذا الالتفاف، وهذا الإحساس بالتآزر والمسئولية كما حدث في منتصف التسعينيات. ربما كان الدافع وراء ذلك هو دعـــم الكويت في قضيتها. وهو الأمر الذي اختلف عليه العديد من المثقفين العرب الذين خدعتهم شعارات النظام العراقي حول الوحدة وتقسيم الثروة. وربما كان هذا التآزر هو نوعًا من الاعتذار المبطن. ولكن الأهم من ذلك أنه قد تولد لدى المثقفين العرب شـــعور جارف بالخطـــر. فالجيل القديم منهم الذي كان يستند إلى أحلام القومية وحتمية الوحدة العربية، قد أحس فجأة بانهيار الحلم الذي عاش طويلاً وهو يســـعى مـــن خلفه. والأجيال الجديدة التي أحسّت أنها تواجه مســـتقبلاً غامضًا بلا مرجعية قائمة. وهكذا مثلت «العربي» نوعًا من الملاذ، وساحة للحوار في وقت كان الحوار في عالمنا العربي - ولايـــزال - مفقودًا. أي أن الجميع شـــعروا أن الهوية العربية قد أصبحت مهددة في عالم تتسارع فيه الأحداث. ولم يعد للعالم العربي دور في صنعه. وحول هذا الأمر يتســـاءل رئيس تحرير«العربي» د. سليمان العسكري الذي تولـــى إدارة المجلة في عام ١٩٩٩ في واحدة من أولى افتتاحياته: «إن الخيار ليس متاحًا في واقع الأمر أمام مجتمعنا وشـــعوبنا. نتعولم أو لا نتعولم، إنما الســـؤال هو: هل نحن قادرون على مواجهة تحديات واقـــع بشـــري معـــولم لا محالة».

**العقد الخامس: الألفية والدخول في قفص الاتهام:**

مـــع بداية الألفيـــة الثالثة، دخل العالـــم العربي في قفـــص الاتهام. فمع تفجيـــرات أبراج مركـــز التجاري العالمي تحول كل فعل يقـــوم به العرب إلى دليل اتهام ضدهم. وأصبح أي تفجير في أي مكان في العالم ينســـب إليهم دون حاجـــة للبحث عن دليل. لقد أصبحت صفـــة الإرهاب إحدى الصفات الأصيلـــة للمواطن العربي. وتناســـى الغرب المآســـي اليوميـــة التي تحدث على أرض فلســـطين. وأخذ يتحدث عن الحقـــد العربي الدفين ضد الغرب

المعاصر، وضد ما فيه من مظاهر المدينة والتحديث. بل وأخذ المفكرون منهم - ومفكـرو أمريكا على وجه الخصوص - يطرحون تسـاؤلاً ظاهره البراءة وباطنه التهكم هو: لماذايكرهوننا؟

وفي الحق أننا انسـقنا وراء تيارات الاتهام المتبادلة. أصبح العرب يؤمنون في قرارة أنفسـهم أنهـم مذنبون بصورة أو بأخرى. إنهـا نفس الحال التي انتابـت المواطن (س) فـي رواية كافكا الشـهيرة «القضيـة»، حين تعرض للتحقيـق في قضية لا يعرف عنها شـيئًا ثم تم إعدامـه دون أن يبالي أحد بشـرح أسباب ذلك له. وقد عانت «العربي» كثيرًا من هذا النوع من المقالات التي تواصل جلد الذات وتشـويهها. كانت تبحث وسـط هذا الركام عن تيار عقلاني يتشكّل على صفحاتها ويساعد العرب على الخروج من هذا المأزق. وقد غلب على صفحات «العربي» نوعان من الاتجاهات:

**أولا: الإقرار بالتخلف وليس الاستسلام له**

كانت السـنوات التي سـبقت الألفية قد صنعت فجـوة كبيرة بين العرب والعالم المتقدم. وازدادت هذه الفجوة اتسـاعًا مع الثورة العالمية التي يعيشها العالم. وجد العرب أنفسـهم خارج ثورة الاتصالات، وثورة الهندسة الوراثية، وثـورة الطاقة البديلة، وأصبحوا مسـتهلكين لما ينتجه الغرب سـواء فهموا آليات عمله أم لم يفهموا.

وقد نشرت المجلة سلسـلة من المقالات حول تلك الفجوة الحضارية التي انفتحـت بين العرب وبين العالم المعاصر في كل المجالات. في مجال المعرفة والتكنولوجيا والاقتصاد وحتى في الفن. وكان الهدف الرئيسي هو تشخيص هذه المشكلة والبحث عن حل لها.

والغريب أن «العربـي» في محاولتها للبحث عن تأصيل للهوية قد حاولت العودة إلى ما بدأت به، وهو استنهاض روح التاريخ العربي مرة أخرى. وإعادة كتابة ما فيه من وقائع، وما شهده من شخصيات إيجابية. وكانت تعتقد أنها بهذا الأمر، أي إعادة الجانب الإيجابي من التاريخ سـوف تساهم في تدعيم الذات العربية، ودفع الإحساس بالذنب الذي تولد في داخلها. وكان في نيتها أن يكون هذا بابًا ثابتًا يسـاهم فيه الكتّاب ودارسو التاريخ. ووجهت الدعوة إلـى العديد مـن الكتّاب للقيام بهذا الأمر، واسـتجاب البعض منهم، إلا أن المقـالات الكافية لم تتوافر. وظهر البـاب تحت عنوان «لحظات مضيئة في

التاريخ العربي»، إلا أنه لم يستطع أن يثبت نفسه، وأن يظهر بصورة متوالية علـى صفحات المجلة. ربما كان هناك عزوف عـن كتابة التاريخ، وربما كان هناك إحساس بثقله ووطأته على الذات العربية. لذا لم يعد أحد يلجأ إليه كثيرًا.

**ثانيا: دعم الثقافة العلمية والتوجه العلمي.**

في شهر يونيو من عام ٢٠٠٥ قامت «العربي» بتجديد آخر في شخصيتها. كانت قبل ذلك قد أنشـأت لنفسـها موقعًا ثابتًا على شـبكة الإنترنت حتى تسـتطيع الوصول إلى أي مكان لا تصل إليه طبعتها الورقية، كما أنها دأبت على عقد ندوة سـنوية موسعة يحضر إليها الكتّاب والمفكرون والمتخصصون من كل أنحاء العالم العربي. ولكنها وجدت لزامًا عليها أن تخطو خطوة أوسع نحو التفكير العلمي ودعم الاتجاه العقلاني في الثقافة العربية.

أدركت المجلة أن العلم هو لغة العصر الذي نعيش فيه. وأننا لن نسـتطيع التفاهم مع العالم، إلا إذا عرفنا أسـرار هـذه اللغة. و أدركت «العربي» من خلال الاسـتفتاء الذي أجرته وشاركت فيه شـريحة كبيرة من القرّاء الذين يتابعونها أن هناك نسـبة كبيرة منهم في سن الشـباب. وأن هذه الشريحة لا تكفيها الجرعة العلمية الصغيرة التي تنشـرها «العربي» على صفحاتها. لذلك كان قرارها أن تنشـر ملحقـًا علميًا مجانيًا مع كل عدد من أعدادها. وكان من الأسـهل عليهـا أن تدمجه داخل المجلـة، وأن تزيد من صفحاتها. ولكنها أحسّـت أن هذا الملحق يصلح لأن يكون نواة مجلة علمية متخصصة بات الشباب العربي في أمس الحاجة إليها تمامًا كما حدث مع مجلة العربي الصغير.

اهتـم ملحق العربـي العلمي بمختلف فروع العلـم الحديث. فقد اهتمت بعلوم الفضاء خاصة، وأن هذا العلم قد شـهد اكتشـافات جديدة في الآونة الأخيرة، وظهرت كواكب من الفضاء المظلم لم يكن الإنسان يعرف بوجودها. كما اهتمت أيضًا بتجارب الهندسـة الوراثية، وعرضت أحدث مكتشـفاتها. ولـم تنس أن تركز على الجانب الأخلاقي من هـذه التجارب، وخاصة التي يدور منها حول الإنسـان. كما عرضت المجلة أيضًا العديد من الاكتشـافات الطبية الحديثة خاصة وأنها ظهرت وسـط الهلع الذي أحدثه انتشـار وباء إنفلونزا الطيور، وقد تتبعت المجلة حالات تطور هذا الوباء منذ بلوغه ذروته

في صيف عام ٢٠٠٥ حتى خفت الضجة حوله تمامًا. وقد نشـرت عددًا من الموضوعات التي تكتسب أهمية خاصة مثل أدوية المستقبل الذكية، وعمليات نقل الأعضاء واكتشـاف مجموعة شمسـية جديدة، كما قامت بنشر العديد من الحوارات مع العلماء العرب والعالميين.

إن «العربـي» قد لعبـت دورًا مهمًا في حفظ الذاكـرة العربية على مدى نصف قرن من الزمان. وقد تميزت رحلتها بعدد من الخصائص:

١) داومت المجلة على الصدور المتواصل في موعد ثابت مع بداية كل شهر، لم تنقطع عن قرائها إلا لمدة عام واحد بسبب الظرف القهري للاحتلال.

٢) تطورت المجلة شـكلاً وإخراجًا وزادت مـن عدد صفحاتها، وأصدرت العديـد من الملاحق والهدايا التذكارية دون أن يؤثر ذلك في ثمنها الذي كان ومازال متواضعًا. فقد كانت تدرك أنها بمنزلة هدية شهرية ترسلها الكويت إلى القارئ العربي في كل مكان.

٣) قامت المجلة بأكبر عمليات اكتشاف في تاريخ الصحافة العربية للمدن العربيـة، ولـم تتوقف عند حـد العواصم الكبرى، ولكنها نفـذت إلى المدن الصغرى والواحـات الصحراوية والأماكن المنعزلة. كمـا قامت أيضًا بأكبر الرحلات إلى مختلف دول العالم.

٤) تطورت استطلاعات «العربي» في السنوات الأخيرة من المجلة. وخاصة بعد انتشـار البرامـج التلفزيونية، التـي تقوم باكتشـاف الأماكن. فلم تعد الاستطلاعات تقتصر على رصد المكان، ولكنها كانت تغوص لتكشف القضية الأساسـية ور ء كل مكان تذهب إليه. ويمكن القول إنها المجلة الوحيدة التي لامسـت القضايا العالمية في مواقعهـا، وقدمت لها رؤية متفردة وجديدة لم يكن القارئ العربي يعرف عنها شيئًا.

٥) أقامت «العربي» أكبـر عملية في الحوار بين الكتّاب والمثقفين والقرّاء من مشـرق العالم العربي إلى مغربه، وسـاهمت فـي تعريفهم إلى بعضهم البعض. وكان عليها حرصا على عبور كل الحدود الإقليمية أن تتحلل من كل النزعات الضيقة والدعاوى الشـوفينية وألا تنسـاق وراء أي خلاف إقليمي مهما بلغت ذروته.

٦) سـاهمت في إثراء الإبداع العربي وركزت جهودها على مجال القصة القصيرة والقصيدة الشـعرية وهي المجالات التي تتناسـب معها كمطبوعة

شــهرية. وقد نشــرت لمئات الكتّاب، وأفســحت مجالاً لكل أشــكال الشعر الحديث وكانت متفتحة دومًا في تقبلها للأفكار والتجارب الجديدة.

٧) حاولت أن تكون مجلة متكاملة. كانت تدرك أن الميزانية التي يخصصها القــارئ العربي للثقافة هي ميزانيــة ضئيلة. وأنه في حاجة إلى مجلة تغنيه عن بقية المجلات، لذلك حرصت على أن تشــتمل الموضوعات التي تنشرها على أساسيات المعرفة العامة. وأن تصوغها في أسلوب أدبي راق.

٨) كانت «العربي» منذ بدايتها مجلة عقلانية تؤمن أن آفة المواطن العربي هي الإغراق في الخرافة والبعد عن الأســاليب المنطقية في مواجهة الحياة. وحتــى في تداولهــا للقضايا الفكرية كان العقل هو دائمًا ســبيلها للمنطق. وبالرغم من أنها نشأت وازدهرت وهي وليدة للحلم العربي، فلم يتحول هذا الحلم على صفحاتها ألى شعارات رومانسية أو رؤى غير واقعية. بل حاولت أن تواجهه بمنطق الأرقام والحقائق أكثر من الانســياق خلفه بمنطق الحنين والمشاعر.

٩) اهتمت «العربي» إلى حد كبير بالمرأة العربية والطفل العربي. كانت ترى في المرأة صانعة الحياة وحافظة المجتمع. وترى في الطفل بذرة المســتقبل، لذلك فقد اهتمت بإعــداد مكان خاص للمرأة على صفحاتها. وكانت تكتب إليها فيه، وتتيح لها الفرصة لتكتب للآخرين. كان هناك البيت العربي الذي يهتم بمشاكل المرأة داخل بيتها. وهناك الصفحات الأخرى. التي تشارك فيها المرأة في قضايا المجتمع. أما الطفل فقد تطور ملحقة ليصير مجلة متطورة خاصة به هي «العربي الصغير».

١٠) اهتمت بالفكر العلمي. وقد أفسحت منذ البداية العديد من الصفحات من أجل كتابة موسوعة عربية علمية. ولكنها كانت جهودًا يغلب عليها الطابع الاجتهادي، لأن القائم عليهــا كان فردًا واحدًا هو رئيس التحرير. أما الآن، فهي تواصل إصدار ملحق العربي العلمي، الذي يشــارك فيه أقلام عشرات الكتّــاب والمترجمين والمتخصصين في تبســيط العلوم، وهي تأمل أن يتحول إلى مجلة علمية متخصصة في القريب العاجل.

# مجلة الآداب البيروتية: المرحلة الأولى (١٩٥٣-١٩٦٧)

سامي خشبة *

لأسـباب موضوعية تتعلق بضخامة واتساع مجال الموضوع الذي كلفني بكتابته الصديق العزيز الدكتور/سـليمان العسـكري لهذه الندوة الجليلة حول مجلـة الآداب اللبنانية (أفضل وصفها بالبيروتية)، وتتعلـق بالتعريف بالدور الذي لعبته هذه المجلـة المهمة وتحليله، فإنني سوف أقصر هذه الورقة على الحديث الموجز عن ذلك الدور في المرحلة الأولى من عمر المجلة الذي يمتد بين عام صدورها في أوائل خمسينيات القرن العشرين، وبين عام النكسة (١٩٦٧) الذي تغيرت فيه أشياء كثيرة ولحقت بالمواقف وبالأدوار وبالتوجهات ودوافعها وأصحابها تغيرات أكثر ذات ألوان عدة.

-١-

حينمـا صـدرت مجلـة الآداب البيروتية فـي السـنوات الأولى من خمسـينيات القرن العشـرين، كانت الثقافة العربية قد خطت خطوات غير قليلة نحو مرحلة جديدة من مراحل تحديثها في أبعاد رئيسية عدة،

* كاتب من مصر.

وسعيًا إلى بناء ركائز عدة للحداثة نفسها. وقد يمكننا تلخيص هذه الأبعاد في النقاط التالية، التي سوف نحاول ترتيبها تنازليًا من الأكثر عمومية إلى الأكثر تخصيصًا:

«البعد السياسي: وقد تمثل في طرح أنواع من التصور القومي للكيان السياسي العربي الذي تصورته الأيديولوجيات السياسية المختلفة باعتباره الممثل الطبيعي للوجود السياسي الفعال للأمة، والذي ينبغي أن يحتويها، لأنه ما ينبغي على الأمة أن تسعى لإنشائه - أو فرضه - بنفسها، وذلك تطويرًا أو تجاوزًا للأبعاد الوطنية (الإقليمية المحلية) للكيانات المتعددة، الموجودة بالفعل أو تلك، التي كانت على وشك أن توجد. ولقد جاء طرح تلك التصورات المختلفة لذلك الكيان السياسي الموحد (الذي يضم وطن الأمة كله أو أجزاء كبيرة منه)، حيث كانت الثقافات السياسية العربية قد تجاوزت من منطلقات متعددة بين الاستقلال الوطني (الإقليمي المحلي)، وبين إقامة أو تدعيم دولة وطنية إقليمية لكيان سياسي يضم قضمة جغرافية محدودة عن وطن الأمة الكبير. كان هذا التجاوز تعبيرًا عن طموحات ذهنية أساسًا، وعاطفية غالبًا إلى استعادة أو إقامة دولة قومية عربية شاملة.

البعد الاجتماعي: وقد تمثل في صعود أنواع جديدة من النخب الاجتماعية واحتلالها الصفوف الأولى من عمليات الحراك الاجتماعي/ الاقتصادي/السياسي/العامة. وبصرف النظر عن عمق تأثير ابتعاد أو اقتراب فصائل مختلفة من هذه النخب الجديدة من مسئوليات الحكم، وامتيازات الثروة في مجتمعاتها أو في كياناتها السياسية المحلية القائمة أو القادمة... فإن هذه النخب نفسها كانت موزعة على المستوى الثقافي والإيديولوجي على ثلاثة محاور رئيسية، وهي محاور: الموروث التقليدي ومفاهيمه التقليدية، ثم الوافد الأجنبي - المستعار أو المفروض والمتعدد التوجهات: الليبرالية سواء التقليدية أو ذات التوجه الاجتماعي، أو الجماعية سواء الاشتراكية أو القومية العنصرية (ذات الأساس العرقي أو الديني). وكان المحور الثالث، الأضعف، ولكنه بعد الحرب العالمية الثانية وبعد النكبة في فلسطين يتمتع بقوة متزايدة تجعله الأعلى صوتًا والأكثر جماهيرية بين النخب الجديدة. وكان هذا المحور الثالث

هو محور «التجدد الذاتي» الذي انقسم بدوره بين اتجاه نقد الموروث وتطويره، اعتمادًا على استيعابه وعلى استيعاب ما يمكن من الوافد المستمار، وبين اتجاه إحياء الموروث في أشكال وصياغات جديدة، وبين اتجاه إدخال ثمار التجديد في إهاب تأصيلي تجديدي معًا، ولكنه إهاب يفرض إما التوجه الاجتماعي (الاشتراكي) القومي أو التوجه الليبرالي/ الفردي القومي.

وفي إطار هذا المحور الثالث المتعدد الاتجاهات، صدرت مجلة الآداب، ولكننا نحتاج قبل الوصول إلى البعد الأكثر تخصيصًا والذي ستتجلى فيه مجلة الآداب نفسها، نحتاج إلى وقفة قصيرة عند البعد الثالث.

«البعد المعرفي/الثقافي: على الرغم من تعدد المحاور الاجتماعية/ السياسية وتياراتها الأيديولوجية المتباينة، فإنها اتفقت جميعًا (باستثناءات نادرة) على الصعيد المعرفي في تركيز انشغالاتها الفكرية والثقافية على المجلات المعرفية الاجتماعية والإنسانية وبشكل خاص على مجالات الإنتاج الثقافي/اللغوي والفكري أو الفلسفي التأملي والتحليلي.

ويمكننا تلخيص الموقف المعرفي/الثقافي الذي صدرت مجلة الآداب في ظله أو تحت تأثير مناخه بالقول إن التاريخ، وخاصة التاريخ الثقافي بمعناه الواسع وتفاعلاته والإنتاج اللغوي/الأدبي أساسًا كانا الشاغل الرئيسي لمختلف النخب الثقافية المنتخبة والمعبرة عن مختلف محاور وتيارات النسيج الاجتماعي العربي في أوائل خمسينيات القرن العشرين، (وقد يكون التركيز عليهما امتدادًا لما ورثه جيل الخمسينيات العربي من أجيال ما تسمى بحركة التنوير أو التجديد في العقود الماضية).

وإضافة إلى التاريخ الثقافي العربي والإنتاج اللغوي، فقد استمر أيضًا الانشغال الجزئي نسبيًا بتيارات بعينها من الثقافة الغربية ربما كان على رأسها التيار الماركسي التقليدي أو المتجدد، والتيار الوجودي - الفرنسي بوجه خاص وهما التياران اللذان انشغلت بهما الآداب في تلك المرحلة.

-٢-

ومن زوايا أخرى، وأكثر اقترابًا من الواقع الفعلي للخريطة السياسية/ الاجتماعية/الثقافية العربية في لحظة صدور «الآداب» نستطيع أن نلمس أن هذه المجلة لبت احتياجًا علميًا لتيار «التجدد الذاتي» الثقافي/

السياسي، ذلك أن مجلة «الرسالة» المصرية القديمة كانت قد لفظت أنفاسها بعد أن أدت دورها طوال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بتركيزها على القضايا الثقافية الرئيسية ذاتها (وذات المدلول السياسي الاجتماعي): قضايا تحديد الشعر والنقد الأدبي والاهتمام بالأنواع الأدبية، التي كانت جديدة على الثقافة العربية في حينها، وبالتالي إعادة النظر في التاريخ الثقافي للأمة ومحاولات استيعاب التجديد في الثقافة الغربية (وسوف نلاحظ أن أصحاب الآداب - د سهيل إدريس - كان من الكتّاب الشباب في مجلة الرسالة في مرحلتها الأخيرة).

ويبدو أن بيروت بشكل خاص بمناخها الليبرالي نسبيًا - كانت هي الموقع المناسب لظهور هذا المنبر الجديد لتلبية احتياج تيار «التجدد الذاتي» إلى مواصلة تطوره، وإلى التواصل - عبر الحدود السياسية - بجماهير النخب الاجتماعية/الثقافية، وخاصة بعد ظهور الأنظمة السياسية الجديدة في سورية ومصر - ومع الحراك السياسي الثقافي الجديد في الأردن والعراق ولبنان نفسه. إضافة - وربما أساسًا - للحراك السياسي/الثقافي الجديد بين جموع الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين المشتتين بين المخيمات في لبنان وغزة وسورية وفي الضفة الغربية، التي كانت أصبحت جزءًا من الأردن، وإضافة إلى مؤشرات التجدد الثقافي عند جيل المتعلمين الجدد في إمارات الخليج العربي، وخاصة في الكويت.

-٣-

قد نتفق مع القائلين بأن انحصار اهتمام الفكر العربي الحديث - في التاريخ وفي اللغة وتوابعهما (من السياسة إلى الشعر)، إذا كان انعكاسًا لأوضاع اجتماعية/اقتصادية/سياسية فرضت على العقل العربي أن ينشغل بترويض التاريخ لإخضاعه لإرادات متباينة وبالإبداع اللغوي وليس بترويض الطبيعة أو تحرير المجتمع والإبداع.

ولكن - وبصرف النظر - فإن تيار التجديد الذاتي قرر أن يكون قوميًا أصيلاً من جهة وتجديديًا من جهة أخرى. فهو أصيل من جهة الإيمان بأن التاريخ يعني السياسة، وبأن الشعر ديوان العرب وهو تجديدي من جهة أخرى حين رأى أن تجديد الأدب، وتحديث الشعر يعني تحديث الديوان

كلــه بقدر ما يعنـــي طرح قضية «التحديث» برمتها في أكثر مســتوياتها جماهيرية، أي في المستوى الجامع لكل من التراث واللغة.

وكان معنى هذا أن تقف المجلة التي نشأت في إطار محور التجدد الذاتي - مع الجديد في كل من السياســة والشعر: مع النزعة القومية، بصرف النظر عن تعدد الألوان، التي تنازعت تلك النزعة، ومع الشــعر الحديث الذي لا يغالي في حداثته، أو لا يقطع بشكل نهائي مع الموروث.

***

ولأنه من المســتحيل في هذه السطور المحدودة أن تقدم تحليلاً يستند إلى رصد تفصيلي لمسـيرة مجلة الآداب طـوال نصف القرن ونيف من عمرهــا حتى الآن، وعلى مــدى المراحل المتتالية - المتضاربة وشــديدة التعقيد، التي عاشــتها الثقافة العربية، وانعكســت تناقضاتها وتقلباتها وتعقيداتها على مجلة شــديدة «المرونة» مــن جانب، وفائقة الحيوية من جانــب آخر بالقــدر الذي نعرفه عن الآداب، التي وصفت نفســها بأنها مجلة تعنى بشئون الفكر، أقول إنه بسبب هذه الاستحالة يمكننا أن نعثر علــى تمثيل جيد لمرحلتها الأولى، التــي امتدت بين عامي ١٩٥٣، ١٩٦٧ من القرن الماضي من حيث التكوين الموضوعي للعادة التي حرصت المجلة على احتوائها، أو من حيث التأســيس الموضوعي أيضًا لموقف المجلة من تكويــن تلك المادة، ومن التيــارات، التي احتواها ذاك التكوين ورموز تلك التيــارات... يمكننا أن نعثر على هذا التمثــل المتكامل تقريبًا في العدد الممتاز الذي أصدرته المجلة عن «الشعر العربي الحديث» في شهر مارس من عام ١٩٦٦، أي قبل عام واحد من النكسة.

***

بتوقيع «التحرير» وهو ما نرجح أنه إشــارة إلى ســهيل إدريس، وربما إلى زوجته ســكرتير تحرير المجلة - السيدة/عايدة مطرجي إدريس جاء في افتتاحية ذاك العدد:

«وكانت المجلة، ولاتزال تؤمن بأن تجربة الشعر الحر كانت جد طبيعية، إذ كانت اســتجابة صادقة للتطور الذي يعيشــه المجتمع العربي، ومن ثم الأدب العربــي، ومن طبيعة كل تجربة جديدة أن تعاني لحظات الانتصار والانهــزام، وأن يدركها الزيف أحيانًا إلــى جانب الأصالة، التي خلقتها،

وصحيح أن الشــعر الحر يواجــه بعض الأزمات، ويتعــرض لبعض من النكســات، وربما كان بإمكاننا أن نعتبره في ذاك شبيهًا للدفعة الثورية، التي يعيشها الوطن العربي منذ نكبة فلسطين، فهي تصاب أحيانًا ببعض الجــزر بعد المد الهائل الذي عرفته، وتواجهها بعض العقبات، ولكن هذا ليــس من شــأنه إلا أن يزودها بمزيد من الخبــرة والتجربة، ويبصرها بأخطائها ويرشــدها إلى الدروب الصحيحة. وقد رأينا من المستحســن الاستماع إلى ما يوجد إليه (الشعر) من نقد ومآخذ حرصًا على الموقف الموضوعــي المتجرد، وبهذه الروح كذلك دعونا إلى أن يشــارك في هذا العدد كل من أسهم في هذه التجربة بصرف النظر عن لونه أو نزعته أو ما قد يكون لنا من تحفظ بشأنه».

وآنــذاك تحدد المجلــة الملامح العامة لموقفها منذ نشــأتها طوال تلك المرحلة بعبارات شــديدة العمومية مثل «تطور» المجتمع العربي و«الدفعة الثورية»، التي يعيشــها الوطن العربي، إضافة إلى الإشــارة إلى «الموقف الموضوعي المتجرد» إزاء رموز تجربة التجديد، بصرف النظر عن ألوانهم أو نزعاتهم أو ما قد يكون للمجلة من تحفظات بشأنهم.

ثم يبدأ العدد بسلسلة من الكتابات بأقلام عدد من كبار شعراء حركة الشــعر الحديث (أو الحر كما تســميه الافتتاحية)، وتأتي هذه الكتابات تحت عنوان «تجربتي الشــعرية»، وقال التحرير مرة أخرى إنه ينشر تلك الكتابات حسب ترتيب أسماء الشــعراء طبقًا للمتابعة الأبجدية، ولهذا كان صاحب التجربة الشعرية الأولى هو أدونيس، الذي كان بالصدفة قد تحول قبيل سنوات قليلة إلى تبني رؤية عروبية خاصة به بدلاً من رؤيته الأصليــة الأولى، التي عبرت عن إيديولوجية الحزب القومي الســوري، وتشاء الصدفة الأبجدية أيضًا أن يكون صاحب التجربة الشعرية التالية هــو عبدالوهاب البياتي، والذي كان بالصدفة بدوره، قد تحول إلى تبني رؤيــة عروبية خاصة به أيضًا، بديلاً لرؤيته الأصلية الأولى، التي عبرت عن تيار أقصى اليســار في العالم العربي. أما صاحب التجربة الشعرية الثالثــة، فكان أحمد عبدالمعطي حجازي الذي كان قد ولد كشــاعر في حضــن الحركة الوجدانية (الرومانتيكية المتجــردة) المصرية قبل تحوله المبكــر إلى تبني الرؤية القومية الســائدة، بصرف النظــر عما تأثر به

من أيديولوجيات عروبية متباينـــة عبرت عنها جبهة التحرير الجزائرية أو حركــة القوميــين العرب أو حزب البعث الســوري أو التيار الناصري القومي/الاجتماعي. وكان صاحب التجربة الرابعة هو صلاح عبدالصبور صاحب النزعة الوجدانية والفردية سويًا، والذي تتنازعه دوافع متعارضة بين الفعل والتأمل، والســائر على أشــواك الحدود الفاصلة بين اليسار المصــري والليبرالية المثاليــة والنزوع القومي الناصــري، وكان صاحب التجربة الخامســة هو محمد الفيتوري، الذي نشــأ كشاعر سوداني في أحضان التيار الوجداني المثمر المتأثر بنظائره في مصر ولبنان وســورية قبــل أن يتحول إلى تبني رؤية مســتقبلية تتمســك بالجمع بين انتماءين عربي وإفريقي.

(ونعتقد أن من بينهم كان نزار قباني وســعدي يوســف وعلي الجندي ومعين بسيسو من بين آخرين).

وينبهنا التحرير إلى أن خليل حاوي - أحد كبار الشعراء المجددين في بلاد الشام قد وعد بأن يكتب تجربته الشعرية في عدد قادم.

xxxxx

ويلفــت النظر أن أول دراســة نقدية في العدد كانــت للدكتور محمد النويهي الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وصاحب الموقف المعارض بهدوء للشعر الحر والداعي إلى إعادة النظر في الشعر العربي الموروث، وإعادة اكتشــاف مميزاته وقدراته بغية تجديــد وجوده وليس تجاوزه أو التنكر له.

ولكن الدراسات الأربعة التالية كانت بأقلام مدافعين أصلاً عن الشعر الحديث، وعن التجديد الثقافي/الاجتماعي/السياســي العربي بشــكل عام، وهو ما غلب على دراســاتهم في العدد، والتي كان من المفترض أن تتركز على الشعر وحده، مطاع صفدي الذي كتب عن الشعر الحضاري، وعز الدين إســماعيل الذي كتب عن الشــعر الحديث والتراث، وشوقي خميس الذي كتب عن التيار الثوري في الشعر الحديث، وإحسان عباس الذي كتب دراسة عن التجديد عند البياتي.

وبعــد فاصلة معارضــة للتجديد يكتبها رئيف خــوري داعيًا أصحاب الشــعر الحديث إلى بعض الأصالة، تعود المادة المنشــورة إلى ما جعلها

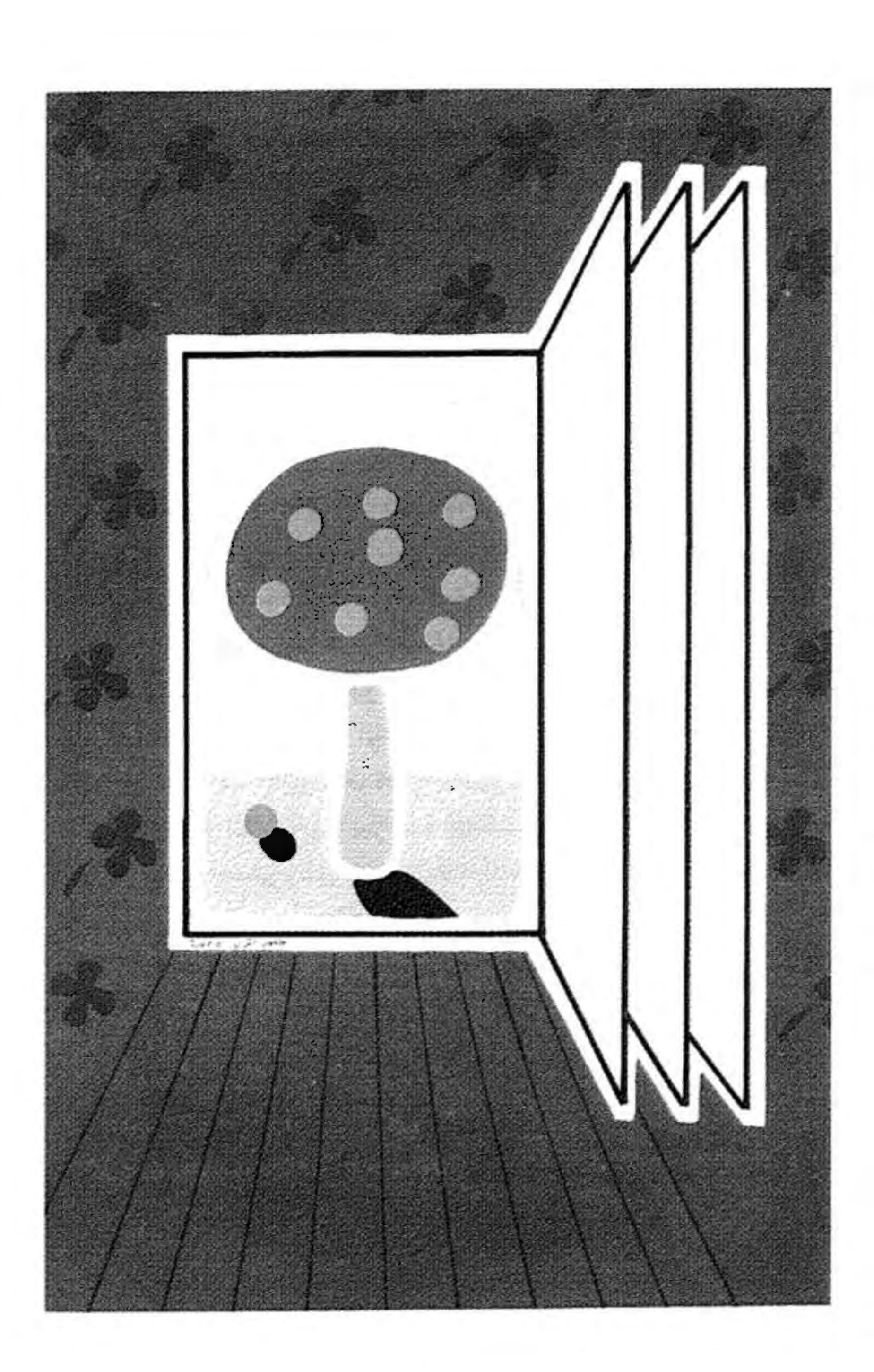
اختيار التحرير تبدو أنها الأغلبية المدافعة عن التجديد الشعري/الثقافي العام: شكري عياد وعلي الزبيدي وجبرا إبراهيم جبرا وسامي خشبة وإبراهيم أبو ناب ومحيي الدين إسماعيل، وعبدالجبار عباس وناجي علوش وسامي مهدي وفاضل تامر وغيرهم الذين ينتمون إلى مختلف ألوان الطيف الأيديولوجي واتجاهات الذائقة الفنية/الشعرية. وقد يلفت النظر أن صبري حافظ يكتب في هذا الوقت المبكر عن قصيدة النثر، مؤكدًا أنها: «لا شعر ولا نثر».... ولعله قد غير موقفه الآن!

xxxxxx

أما القصائد الشعرية، فكانت على القدر نفسه من التنوع على مستوى الأجيال والرؤى والأذواق من أدونيس ومحمد عفيفي مطر، إلى فدوى طوقان وبلند الحيدري وكامل أيوب، ومن أحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد الفيتوري ومعين بسيسو وعبدالوهاب البياتي حتى عز الدين المناصرة وعبدالستار الدليمي ومحمد سعيد الصكار، ونصار عبدالله وجورج غانم ومحمد إبراهيم أبو سنة.

أما على مستوى التنوع الذوقي والفكري، فقد ضمت القصائد شعراء متحولين من البنية الشعرية التقليدية في صورها الموروثة أو التجديدية، وقصائد لشعراء حداثيين أصحاب نزعات وأذواق متباينة، ويلفت النظر أن عددًا منهم مثل محمد إبراهيم أبو سنة أو عز الدين المناصرة أو محمد عفيفي مطر وغيرهم قد تمكنوا من أن يحتلوا أماكن متراوحة بين أجيال تالية لهم منذ ذلك الحين.

وبالقدر نفسه من التنوع المشوب ببعض المراوحة بين التيارات المتعارضة، فقد انشغلت الآداب في تلك المرحلة ذاتها بظواهر متنوعة سواء في حقول الإنتاج الفكري والنقدي أو الإنتاج الإبداعي، وخاصة في مجال القصة والرواية.



## المحور الثالث

# المجلات النسائية .. الخروج من الصمت وحيز التهميش

- د. شيرين أبو النجا
- علوية صبح
- جمانة حداد

# الذات النسوية
# في ظل الحداثة الأبوية

د. نسرين أبو النجا*

منذ حوالي بداية التسعينيات بدأت الأصوات المطالبة بوجود المرأة في وسائل الإعلام ترتفع وتتزايد. وتراوحت المطالب فيما بين تحسين صورة المرأة واستعادة التراث النسائي المغيب، أو المهمّش، وموقع المرأة في الثقافة الشعبية، وتسليط الضوء على إنجازاتها. ساعد في ارتفاع هذه الأصوات مؤتمرات دولية عدة متتابعة مثل مؤتمر الأرض (فيينا ١٩٩٣)، ومؤتمر السكان (القاهرة ١٩٩٤)، ومؤتمر بكين للمرأة (بكين ١٩٩٥) وهو المؤتمر الذي تلاه بكين+٥ وبكين +١٠. نتج عن هذه المؤتمرات اتفاقات ومعاهدات تخص النساء بشكل كامل، أو تخصص بعضًا من بنودها للنساء، وهي معاهدات لم تتوان الدول العربية في تبنيها والتوقيع عليها بالرغم من ابدائها بعض التحفظات. كان هذا التبني هو ما سمح بانتشار خطاب حقوقي وتنموي حول العديد من القضايا المتعلقة بحقوق النساء وعلى رأسها الوجود الإعلامي للمرأة، أو بالأحرى لصوتها. وبالفعل حدثت طفرة في الصحف، التي ركزت

* أكاديمية من مصر.

على المواضيع المتعلقة بحقوق النساء، وازداد بشكل ملحوظ عدد البرامج التلفزيونية، التي تستضيف شخصيات نسائية لها إنجاز بعينه. وبدا وكأن هناك تغيرًا جذريًا قد حدث إلا أن متابعة الأمر عن قرب تكشف أن التغير ليس إلا شكليًا وإصلاحيًا. فعلى سبيل المثال، كانت - ومازالت - أشهر صفحة تتناول شئون النساء هي صفحة الجمعة بجريدة الأهرام المصرية، وعنوان الصفحة الذي لم يتغير من قديم الأزل هو «المرأة والطفل» بكل ما تحمله واو العطف من دلالات خاصة بدور النساء. كل ما حدث من تغيير هو إضافة موضوع عن «الخلع» بجانب مقال عن صفات الزوجة الناجحة.

التغير إذن شكلي لأن كل الخطاب الحقوقي التنموي الذي انتشر بشكل ملحوظ في العقد الأخير من القرن الماضي لم يشتبك مع الثقافة السائدة، التي اعتادت تقسيم الأدوار بشكل تقليدي، ذلك التقسيم الذي يحيل المرأة بالتعريف إلى الفضاء الخاص، ويعطي الرجل الحق الكامل في ملكية الفضاء العام، والذي لا يمهد الأرضية لترشيح أو انتخاب النساء في الدوائر البرلمانية، فكان يتوجب على الدولة العمل بنظام التعيين أو الحصص، والذي يسمح لخطاب أصولي أن يصوّر النساء بوصفهن منبع الفتن، والأهم أنه تقسيم يفرز خطابًا ثقافيًا يعي تمامًا أن كل الضجة المثارة في وسائل الإعلام وفي الخطاب الرسمي للدولة ليست إلا ضجة زائفة تسعى لترضية قوى أخرى ليس أولها البنك الدولي، ولا آخرها الأمركة الإمبريالية.

ولذلك أجد السؤال الذي طرحته على اللجنة التنظيمية للندوة في خطاب الدعوة سؤالاً يستحق التأمل والتفكير: «عندما ثارت المرأة على شرنقة الحريم وحاولت أن تؤكد ذاتها في مجتمع لا يعترف بها عن طريق إصدار المطبوعات والمجلات، وإقامة المنتديات الثقافية، هل مازالت هذه المحاولات مستمرة حتى الآن؟ بشكل متعجل قد تكون الإجابة «نعم»، ولكن بقليل من التأمل، لابد وأن يختلف الأمر. إن محاولات النساء الآن تختلف تمامًا عن «ثورة الحريم» التي حدثت في نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين - تختلف من حيث السياق السياسي والاجتماعي الذي كان عليها أن تشتبك معه، وهو ما تضمن محاولة

تحييد بعض القوى ومحاولة كسب تأييد البعض الآخر. كانت تلك الفترة هي فترة «النهضة النسائية في مصر» وهو أمر منطقي وملائم إذا أخذنا في الاعتبار أن الخطاب النهضوي كان يشق طريقه بشكل عام. كان هناك الاستعمار الذي سعى بكل قوته إلى استبعاد النساء، كما يتضح من خطاب اللورد كرومر - المندوب السامي آنذاك، كان هناك قوى أصولية تمكن محمد عبده من التصدي لها وتذويب حدتها، كان هناك كتاب قاسم أمين «المرأة الجديدة» (١٨٩٩)، وكانت هناك قوى سياسية لم تكن مستعدة أن تغامر بمستقبلها السياسي عبر تبني قضايا النساء. ومن هنا جاء الأثر والتأثير الحقيقي لخطاب وأفعال هدى شعراوي. وهو ما أفرز خطابًا ثقافيًا جديدًا تأسس بشكل راسخ عبر الاشتباك مع المعارضة والاحتماء بخطاب النهضة. كانت كل ذلك منذ قرن أو ما يزيد. ومن المستحيل تحليل الحاضر بنفس معايير الماضي وإن كان يجب أخذها في الاعتبار مع النظر إلى الانقطاع التاريخي وفترات الموات، التي منيت بها أصوات النساء وتصاعد الجناح اليميني المتطرف، وظهور سياسات الليبرالية الجديدة.

إذا كنا نعيش الآن في عالم الكثرة كما يقول، فإن مجال الكتابة الإبداعية والنقد هما أنسب وسيلة لتحليل الحاضر، حاضر الصوت النسوي وكيفية تعبيره عن نفسه بما في ذلك تجلياته وآليات الدفاع التي يتبناها فالأدب وقراءته يشكلان العالم عبر الحكي المغاير وهو ما يسمح بالتعددية.

- ٢ -

تقول لطيفة الزيات: «في الكتابة غير الإبداعية أنشغل بجانب من قدراتي، وفي الكتابة الإبداعية تكتمل قدراتي العقلية والحسية والوجدانية، أملك أن أرفع اسمي عن مقال نقدي أو ثقافي أو سياسي، فلا يملك القارئ أن يعرف إذا كان صاحب المقال رجلاً أم امرأة، أما أعمالي الإبداعية فحمل بصمتي كامرأة، كهذا النتاج التاريخي الاجتماعي لمجتمع معين في فترة من فترات تطوره، وتحمل بصمتي كهذه المرأة الفريدة التي هي أنا. في الأعمال الإبداعية أكتشف رؤيتي الحياة وأبلورها، أخلع أقنعتي، فلا أبقي شيئًا سوى وجه الحقيقة العاري. أبدد

أوهامي عن الذات ستارًا بعد ستار، أعلو على توجساتي ومخاوفي، أحس، أجرؤ، أنطق صدقًا، ولو على ذاتي، أكون المرأة الخانقة المقدامة، الضعيفة القوية، الهشة الصلبة، المتمزقة بين العقل والوجدان، التي هي أنا، كتاباتي الابداعية تمرفني وتعرفني، وما يصدق علي يصدق على كل امرأة عربية مبدعة». الكتابة الإبداعية النسوية بهذا المعنى ليست سوى رؤية المرأة لنفسها وللعالم في سياق تاريخي وسياسي ونفسي واقتصادي واجتماعي معين. ولذلك لا يمكن تبسيط الأمور إلى حد القول أن الكتابة النسوية هي الحديث عن قضية المرأة. ما هي إذن العوائق المعرفية، التي دفعت الساحة النقدية والثقافية - رجالاً ونساءً - إلى رفض المنهج النسوي النقدي والكتابة الإبداعية النسوية. وكلمة «رفض» هذا تحمل الكثير من التفسيرات (لا يمكن أن ننسى عدد المؤتمرات التي أفردت لهذا التوجه).

ضمنيًا، ينطوي مصطلح الأدب النسوي على نوع من التحقير للمرأة ووضعها في مرتبة دونية، وهذا ليس إلا انعكاسًا للواقع الاجتماعي الذي ينقل مشكلاته إلى الواقع الأدبي. وفي العالم العربي عامة لم يتم التأصيل ولا التأسيس نقديًا للإنتاج الأدبي النسائي، إلا قلة نادرة. فكان أن أطلقت هذه التسمية على النصوص، التي تكتبها المرأة، ووقف الأمر عند هذا، ولم يزد عن كونه ظاهرة طريفة، مما دفع العديد من الكاتبات إلى رفض تصنيف كتاباتهن كنسوية مثل هدى بركات. وليس هناك أبلغ مما قالته الناقدة المغربية رشيدة بنمسعود فيما يختص بهذا الرفض: «في رأيي أن الغموض الذي ينسحب على وجهات النظر المقدمة لمفهوم مصطلح «الأدب النسائي» آت من عدم تعريف وتحديد كلمة نسائي، التي تحمل دلالات مشحونة بالمفهوم الحريمي الاحتقاري، وهذا ما يدفع المبدعات إلى النفور منه على حساب هويتهن، فيسقطن بسبب ذلك في استيلاب الفهم الذكوري»، فبدلاً من محاولة توضيح مفهوم «نسائي» أو «نسوي» والتأصيل نقديًا لهذه المفاهيم تسلك المبدعات الطريق الأسهل ويرفضن المصطلح برمته اعتقادًا منهن أن إدراج كتاباتهن الإبداعية في باب الأدب النسوي ليس إلا إضفاء للدونية عليها. وبذلك يشكل عدم فهم هذا المصطلح أول وأهم عائق معرفي.

في كل الصحوة الحقوقية التنموية، التي حدثت في التسعينيات، ظل الإبداع والنقد بعيدين عنها باعتبارهما مجالي تخصص منحصرين في دوائر أكاديمية في أحسن تقدير أو مجرد ترف بورجوازي «متفرين» في أسوأ تقدير. وبهذا بقيت كلمة «نسوي» مبهمة لا تعني سوى التعصب للنساء. لم ينجح في حل شفرة هذه الكلمة سوى من لهم فرصة الاطلاع على النظريات النقدية الغربية، وهذا يفسر انشغال طلبة وطالبات الدراسات العليا بأقسام اللغات في كليات الآداب بنظريات النقد النسوية مما جعل المعرفة تدور في دوائر مغلقة، ولا تؤدي الترجمة إلى حل المشكلة، بل تزيد من تعقيدها. وبذلك لا يساهم هؤلاء الباحثون والباحثات سوى في إعادة إنتاج معرفة تمت صياغتها في مكان آخر وفي سياق مختلف سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. فنجد المشتغلين في هذا المجال، وقد أنتجوا أبحاثًا مفترية يحاولون تطبيقها على السياق العربي، فيزداد اتساع الهوة الفاصلة بين الأبحاث وبين الواقع الذي يتعين قراءته. وتبقى كلمة «نسوي» مجرد مصطلح جاء من الغرب ليفرض هيمنته على الذهنية العربية، وبالرغم من أن كل النظريات لا يمكن تتبع أصل منشئها بشكل نقي، فالمعارف تدور وتتجول كما أثبت العديد من النقاد وعلى رأسهم إدوارد سعيد في «النظرية المرتحلة»، إلا أن النسوية تبقى هي الإشكالية القائمة للعقل العربي الذي يتبادر لذهنه فورًا كلمة «المرأة». وهكذا يصبح غياب المعرفة أو عدم إمكان توصيلها هو العائق الثاني أمام التأصيل لممارسة نقدية وإبداعية نسوية.

- ٣ -

إذا أخذنا في الاعتبار المحاولات المتأججة للمجتمعات والنخب العربية في التحرر من كل أشكال السلطة القاهرة تحت مسمى «قضية الحريات»، التي تتضمن حرية الإبداع، فإنه لايزال متحفظًا تجاه قضية الإبداع النسوي. ويظهر هذا التحفظ في أشكال عدة. أولها - كما ذكرت من قبل - تجاهل النقاد للصوت النسوي الإبداعي في العمل الفني، وبذلك يتم تغييب الممارسة النقدية النسوية. ثانيًا: إحالة كل ما تكتبه المرأة إلى واقعها المعيش. إنها - كما يقول صبري حافظ - «تلك النزعة المضمرة التي تحاول أن ترد كل كتابة المرأة إلى خبرتها الذاتية، وأن تجعلها نوعًا

من السير القصصية، لإخراجها من مجال الرواية الجادة. فضلاً عن نوع أسوأ من الإضمار، لا يريد أن يصدق أن باستطاعة المرأة أن تبدع أدبًا، أو أن تكتب عن شيء لم تعلمه. ويسعى إلى استخدام كل ما تبدعه ضدها، بصورة تحد من خيالها، وتحكم حصار «التابـو» أو أطروحة المحرمات حولها»، كيف يمكن التغلب على هذه الإشكالية، وما علاقة تحرر المجتمع بتحرر الكاتبة من هذا الحصار. هو حصار يرجع للعقل الجمعي الذي لا يريد أن يقر أن المرأة إنسان لا دخل لنوعها البيولوجي بمكانتها في السلم الاجتماعي. وهنـا تكمن المفارقة أن المجتمع الـذي يصرخ مطالبًا بحل قضية الحريات لا يعترف بالمرأة كإنسـان لـه نصيبه في تلك الحريات، وينتهـي دائمًا النقـاش أن الرجل لابد أن يتحرر من عبوديته لكي تتحرر المرأة. ولكن ما لا يذكر هو أن المرأة لا تتسـاوى مع الرجل في عبوديته، بل هي أقل منه منزلة وهو في النهاية ليس إلا نقاش عقيم لا يفضي إلى شيء سوى كشف ازدواجية الخطاب العربي المثقف تجاه المرأة، وبالتالي تجاه ذاته. فالمشـكلة هي أن النقلة الحضارية نحو الحداثة لم تكتمل، بل إن الحداثة لم تبدأ بسـبب وعي عميق بأهمية إرساء الخطاب الحداثي، بل بسـبب محاولة اللحاق بالآخر الغربي. وهـذا الظرف ذاته هو الذي سمح بتصاعد قوة التيار الديني الذي ينشغل كثيرًا بالمرأة والذي يرى أن الكتابـة الإبداعية «حرام». وهذه التناقضات على صعيد الفكر والمجتمع لابد أن تضع الخطاب الإبداعي النسـوي في مرتبة دونية، أو تؤدي إلى العكس فنراها تحتفي به بشـكل مبالغ فيه، وكأنه طفرة مؤقتة لا أساس لها. وعلى حد قول هشـام شرابي أن المجتمع الأبوي المعاصر «يعيش في ظل خطابين: في ظل خطاب الحقيقة الشـاملة الكلية، وفي ظل خطاب الحقيقة الحديثة المحددة. المهم أنه عاجز عن التعامل مع أي منهما بشكل عقلاني منتظم يمكنه من إرسـاء علاقتـه بالماضي (التاريخ)، أو بالواقع (بالحاضر) أو بالمستقبل، من خلال وعي ذاتي مستقل. بهذا فهو مجتمع متضارب تحكمه التناقضات على صعيد الفكر، كما على صعيد الممارسة والحيـاة اليومية». هو مجتمع يصر على إرسـاء المرأة وإبداعها في ظل خطاب الحقيقة الشـاملة التي تعتبر الرجل متفوقًا على المرأة بالطبيعة، وفي الوقت نفسه، يجاهد للحصول على حرياته السياسية والاقتصادية

والثقافيـــة والإبداعيـــة انطلاقًا من خطاب الحقيقـــة الحديثة المحددة. ولذلك تفقـــد مقولة «لن تتحرر المرأة إلا بتحـــرر المجتمع» مصداقيتها. فلابـــد من إعـــادة ضبط القوى فـــي المجتمع، لكي يســـعى الجميع نحو التحـــرر - ولا جدال أن الإبداع شـــكل مهم من أشـــكال التحرر وإثبات الذات. والهدف المنشـــود هـــو أن تفكيك هذه المقولة وصياغتها بشـــكل آخر سيفسح مكانًا للخطاب النقدي والإبداعي النسوي. فقد حدث هذا للكثيريـــن والكثيرات الذين تمكنوا بعقلانية وبشـــجاعة من تفكيك هذه المقولة. «كان هذا هو موقفي الثابت والأكيد في الستينيات، تخندقت في خندق الأدب، ورفضت إدراج كتاباتي الإبداعية في باب الأدب النســـائي، ودأبـــت على القول أدب أو لا أدب، فـــــن أو لا فن، وما من أدب رجولي وآخر نسوي، ومر الزمن، وكان أن نضجت وتعلمت أن الإقرار بالندية ما بين الرجل والمرأة يتضمن إقرارًا بالاختلاف. وأن تمييع نقاط الاختلاف مـــا بين الرجـــل والمرأة يعصـــف بالضـــرورة بالندية فيمـــا بينهما، وأن الاختـــلاف لا يعني بالضرورة تفضيلاً لجانب على الآخر، ولا تميزًا فنيًا لجانب على آخر». وهذا هو أدب المشـــكلة أن الدعوة إلى مســـاواة المرأة بالرجل أدت إلى التعتيم على مفهوم الاختلاف، في حين أن المساواة هنا تعني حق المواطنة في المقام الأول. إن خطاب المســـاواة والحريات بمعناه الحقيقي يقوم على الإقـــرار بالاختلاف و«الموقف الجذري الصحيح في المشروع النقدي العلماني يتمثل في رفض التوقف عند ما يسمى «حقوق المـــرأة»، وكل الحدود النظرية، التي تقلل من مقدار الإشـــكالية الأنثوية وأثرها بالنســـبة للمجتمع والثقافة ككل، وفي الدعـــوة إلى إعادة النظر في معنى «الفرد» و«الإنســـان»، لا كمفـــردات تعني «رجلاً» أو «ذكرًا»، بل كمفاهيم إنســـانية تدل على طبيعة الرجل، وعلى طبيعة المرأة، على عقل الرجل، وعلى عقل المرأة، على مكانة الرجل وعلى مكانة المرأة، بحيث يتم تجاوز الانفصام المعنوي والفكري والحياتي، وما يلحق به من انفصامات سياســـية واجتماعية وقانونية في قلب المجتمع، كخطوة أساســـية تمكن المجتمـــع من اســـترداد ذاته وقدرته على الانتقال مـــن مجتمع أبوي تابع عاجـــز إلى مجتمع حر حديث». وهكذا ترتهن خصوصية الكاتبة العربية بانفصـــام المجتمع الذي يقبلها ويرفضها في آن واحد، والذي يعمل على

إلغاء فرديتها وتفرّدها، ويعتم على خصوصية وضعها ويحاسبها بمعايير تاريخية لم تشارك في صنعها. ولأن انفصام المجتمع وانقسامه على ذاته يأخذ أشكالاً مختلفة متغيرة حسب التيارات الوافدة عليه أو التابعة منه، تتغير أيضًا خصوصية الكاتبة العربية وتتخذ أشكالاً موافقة لانفصام المجتمع، وهي بذلك خصوصية متحولة غير ثابتة وغير مرتهنة بالتحرر الاقتصادي، بل هي مرتبطة بتوجيه الفكر والحساسية.

في الشهادة التي قدمتها نعمات البحيري لمجلة «الكاتبة» تأكيد على خصوصية الكاتبة العربية في مجتمعات العالم الثالث، «حين يعطي المجتمع للرجل صلاحيات عدة منها الكتابة والتعبير عن مشاكله وأحلامه ونزقه الخاص والعام، فهذه كتابة عادية مهما كانت التحديات، لكنه حينما تكتب المرأة تعبر أسوارًا عالية ومحاطة بالأسلاك الشائكة من كل جانب، من جانب الأسرة ومجال العمل والأهل والأصدقاء والجيران وجميع الفئات التي تتعامل معها». هذه الأسلاك الشائكة التي تتحدث عنها نعمات البحيري ليست إلا حق المرأة في التعبير عن ذاتها وحقها في إثبات قدرتها على الإبداع مثل الرجل. لم يعتد المجتمع الاستماع للمرأة، فهناك دائمًا من يتحدث بالنيابة عنها، ويفكر لها ويوجهها باعتبارها قاصرًا غير قادرة على اتخاذ القرار الصائب، وليس لديها منطق الرجل المحكم. وبذلك قامت البنية التحتية «للمجتمع الأبوي المستحدث» على مركزية الكلمة الذكورية والمنطق الذكوري الذي لا يستوعب إلا المنطق واللغة المماثلين، وهو يكتسب إيجابيته من إضفاء السلبية على الآخر المغاير. على هذا الأساس، تقوم ثقافتنا الأحادية في جوهرها بوأد كل بذور تنبئ باختلاف ولو يسيرًا: «وليس من الصعب فهم الخلود إلى الصمت في ثقافة الخطاب الأحادي. فإذا استثنينا أثر الرقابة والقمع، فإن غالبية المجتمع - أي الفقراء والقاصرين والنساء - يجولون دائمًا إلى مواقع المستمعين (يسمعون الكلمة). إن هذه الغالبية من الناس مسكونة بأصوات فريدة عدة تأمرها، وتسير حياتها من فوق». وبما أن الثقافة في مضمونها لا تسمح بالاختلاف أو الغيرية، فهي - بالطبع - سوف تقاوم أي مكانة تفرد لخطاب معرفي نسوي يتجلى في النقد أو الإبداع.

هذه البنية التحتية الذكورية، التي تشكّل أساس المجتمع العربي هي المسئولة عن كل أشكال القهر الواقعة على الرجال والنساء معًا. وهي البنية، التي تفرز الأفكار الخاصة بوضع الفرد في المجتمع، وهي البنية، التي أفرزت مقولة «الأدب أدب»، فليس هناك أدب رجل وأدب امرأة. وهي البنية، التي قاومت تأسيس المصطلحات المتعلقة بالنسوية. وفي الواقع، فإن كل مشاعر العدوانية تجاه الإبداع النسوي ليست إلا إحدى تجليات الثقافة الرافضة للاختلاف والمكومة تحت تلال من سوء الفهم. عندما قرأت رواية أجنحة المكان للكاتبة المصرية بهيجة حسين أبديت إعجابي بها وأخبرتها أن ما لفت نظري هو قدرتها على نص نسوي بتلقائية ودون افتعال. ولن أنسى الرعب الذي ظل مسيطرًا على الكاتبة من هذا التعليق، بالإضافة إلى تحفظها الشديد تجاهه، وهو التحفظ الذي ازدادت حدته عندما وجه لها نقد في إحدى الندوات، التي عقدت للرواية، ومفاده أنه يجب عليها أن تخرج من عالمها الضيق المحدود إلى عالم أرحب وأوسع. أما النقد الآخر الذي وجه إليها، فهو أن ما تتناوله الرواية لا يشكّل همًا رئيسيًا للشعب المصري. ولم يكن هذا التعليق إلا رفضًا للاختلاف ورفضًا لاكتشاف عوالم نسائية بديلة. وهل يختار الكاتب أو الكاتبة موضوع الإبداع من الصحف؟ وهل يجوز تجاهل فردية المبدع؟ وأليس موضوع الإبداع اكتشافًا للذات بشكل أو بآخر؟

إن مشكلة منظومة الفكر الأبوي هي تجليها وقيامها على أساس التضاد الثنائي الذي يفترض وجود قطب سالب وقطب موجب، ولأن المنظومة في أصلها أبوية الصنع فهي تعمد - بوعي أو دون وعي - إلى إضفاء كل العناصر السلبية على الطرف الأنثوي، فيكون النتاج هو التفوق الذكوري. وفي شتى المجالات، تشكل هذه المنظومة جوهر الخطاب المنتج حول المرأة وحول صياغة علاقات القوى، فكما يقول نصر أبو زيد في كتابه المرأة في خطاب الأزمة: «الخطاب المنتج حول المرأة في العالم العربي المعاصر خطاب في مجمله طائفي عنصري، بمعنى أنه خطاب يتحدث عن مطلق المرأة/الأنثى، ويضعها في علاقة مقارنة مع مطلق الرجل/الذكر. وحين تحدد علاقة ما بأنها بين طرفين متقابلين أو متعارضين، ويلزم منها ضرورة خضوع أحدهما للآخر واستسلامه له، ودخوله طائعًا

منطقة نفوذه، فإن من شــأن الطرف الذي يتصور نفسه مهيمنًا أن ينتج خطابًا طائفيًــا عنصريًا بكل معاني الألفاظ الثلاثة ودلالاتها. ليس هذا شأن الخطاب الديني وحده، بل شأن الخطاب العربي السائد والمسيطر شــعبيًا وإعلاميًــا. وليس مــن الصعب كذلك أن نجد فــي نبرة خطاب «المساواة» و«المشاركة» إحساسًا بالتفوق تابعًا من افتراض ضمني يحمله الخطاب بمركزية الرجل/ الذكر. فالمرأة حين تتســاوى فإنها تتســاوى بالرجل، وحين يسمح لها بالمشاركة فإنها تشارك الرجل».

تتجلى ســيطرة المطلــق على الذهنية العربية فــي المفاهيم المطروحة للأنوثــة والذكــورة. فهي مفاهيم مغلقــة على ذاتهــا ونهائية موصومة بالســطحية. فالأنوثة ليست ســوى الجمال والرقة الأَمْيَل إلى الضعف، والذكــورة هي عكس كل ذلــك. مفاهيم تعيد تكريــس منظومة الأبيض والأسود والإيجاب والسلب والأصولي والحداثي. وأكثر ما يرعب الثقافة الأبوية التي تصرخ مطالبة بالديمقراطية هو أي مبادرة تشــير إلى إعادة صياغــة التعريفات إذ إن أي تغيير في مفهوم الأنوثة المطلق يهدد الذات الأبويــة باختلال ميزان القوى. إن اقتصار الأنوثة على الشــكل – بمعنى الكلمــة – يزيد من قوة الذكورة من حيث كونهــا فاعلاً مؤثرًا، ومن هنا ينبع القلق تجاه الإقرار بوجود صوت أنثوي أدبي، وفي هذا السياق، يعلق عزيز العظمة على غادة السمان وليلى بعلبكي أن خطاب كل منهما «ليس نسويًا بالضرورة بل هو صوت نسائي، أو أنثوي، يؤنسن المرأة بما يضاف على كونها أنثى. وهــو خطاب يخرب خطاب الأنوثة المطلقة، تتبدى فيه الأنثى كائنًا فاعلاً، فاعلاً في سلوك وشخصية وثورة في بعض الأحيان، كائنًا واعيًا سخف الرجال حولها ممن يتمنى لها الأنوثة المطلقة والذكورة الصرفة».

فإذا أخذنا فــي الاعتبار قيام العقلية العربيــة على اعتناق المطلقات والثوابت والنصوص المغلقة يمكننا تفسير الرفض القاطع لكل ما يسمى إبداعًا أنثويًا. مشــكلة النصوص المغلقة – وأقصد هنا المعنى العام لكلمة «نصــوص» – أنها لا تقبل التطوير أو التعديــل أو التجديد، كما ترفض والحذف.

فيبقــى المعنــى ثابتًا مطلقًا علــى الرغم من تغير الســياق وبالتدريج

يتحول المعنى إلى تنميط جوهـــري. هذا بالإضافة إلى أن التعريفات والنصوص المطلقة لا تولد إلا نقدًا مطلقًا مما يحجم الإبداع النقدي ويجعلــه تحصيل حاصل وليـس أدل على هذا من النــدوات الأدبية التي تعقــد في المحافل الثقافية، كمعرض الكتــاب مثلاً حتى ينتهي الأمــر إلى تقييم النص الأدبي على أســاس أنــه نص جيد (موجب) أوسـيئ (ســالب). وهكذا تتفجر كل المشاكل في المحافل الثقافية ما عدا الإشكاليات النقدية.

وبآليــات هذا المنطق يتم الهجوم على مجرد ذكر الإبداع النســوي والثناء على كل عمل ابتعد عن شـبهة الأنثوية. وبهذا يمكن أن تتغير مقولة «لن تتحرر المرأة إلا بتحرر المجتمع» إلى «لن يتحرر وعي المرأة إلا بتحرر العقلية العربية من المطلق».

إن كتابــة الأنثوي وقراءته لابد وأن تؤثر في الصياغة المعرفية التي تفرزها العقليــة العربية فتخرج القضية من مجرد تســميات طريفة يطلقها المثقفون على شــيء غير مفهوم وتتجاوز المســألة التراشــق بالاتهامات التي لا تؤســس لأي خطاب نقدي. قــراءة وكتابة الأنثوي عملية ابداعية أبعد ما تكون عن كليشــيهات الصحف والمجلات وهي تتجــاوز العلاقة المباشــرة بين الرجل والمرأة وهـــي - وهذا هو الأهم - لا تســتخدم مناهج الخطاب الاستشــراقي. الاعتراف بالأنثوي هو الاعتراف بوجهات النظر المغايرة والتواصل معها وقبول قدرة أطراف أخرى علــى صياغة أفكار مختلفة. الأنثوي هــو حيث «تبرز المرأة لا كموضوع ســاكن متقبــل بها بل كذات فاعلة تتوصــل إلى المعرفة من وجهة نظر تختلــف أحيانًا اختلافًا جوهريًا عــن وجهة نظر الرجل. ولا تمكــس وجهة النظر هذه مجرد نظرة ذاتية، بمعنى نظرة فردية أو نظــرة خاصة. إن الذاتية في هذا الســياق تعني خرق الموضوعية في التوصل إلى المعرفة، بالمعنى نفســه الذي يشــكل فيه الإنتاج النظري عند الرجال انعكاسًا لموقعهم وأسلوب عيشهم في هذا العالم». وهذه المقولــة التي تطرحها إليزابيــث جروس ليســت إلا صياغة مختلفة للمناداة بكسر الخطاب الأحادي الأبوي الذي أسهب في وصفه هشام شــرابي في كتابه النظام الأبوي وإشــكالية تخلــف المجتمع العربي.

فافتراض الموضوعية المطلقة لا يســمح بوجــود رؤى ذاتية يمكنها أن تشكل عدة طبقات في البنى الاجتماعية والفكرية.

وفي العالم العربي عمومًا، تسـيطر فكرة الموضوعية على الخطاب المعرفي. فالعقل العربي يعتبر الموضوعية شرطًا أساسيًا وقبليًا (بالمعنى الكانطي) لإنتاج المعرفة. وبالتدريج تحولت إشــكالية الموضوعية إلى مؤسسة رسمية لا تسمع ولا تقرأ ما يقع خارج حدودها. والموضوعية - كمــا يراها المثقف العربــي - هي النظرة الشــاملة العادلة للأمور التــي تــرى كل الجوانب دون ترجيح كفة جانب علــى آخر. ومن هذا المنطلــق وبهذا المعنى يرفــض المثقف رفضًا قاطعًــا أي كتابة أو نقد يوحــي برؤى ذاتية (ولا أقصد فرديــة). فالاعتراف بالرؤية الذاتية - ســواء كانت للذات أو للعالم - معناه إعادة النظر وإعادة القراءة وفي النهاية معنــاه خلخلة البنية الأبوية الأحاديــة. وبزيادة الانغلاق على ما هو كائن والتعظيم في شــأن الثابت ونفي كل ما هو مخالف تزداد اســتحالة إنشاء خطاب نقدي مســتقل جديد يتناول مفردات الواقع بشكل حقيقي. فأي خطاب نقدي مستقل لابد وأن ينهض جزئيًا على الرؤى الذاتية وعند هذا لا مفر من الأخذ بالصوت الأنثوي الذي يطرح تجربة مختلفة عن الصوت الأبوي. النص النقدي العربي السائد ليس إلا «نص الدكتور العالم الخبير ذي الحس المرهف والفكر الرفيع، إنه تجســيد للمقال (الخطاب) الأبوي في تراكيبه (الأيديولوجية والأدبية والفكرية المختلفة). إنه نص رجالي لا مكان للمرأة فيه، لا يســمع فيه إلا صــوت الأب بنعرته العارفة الآمــرة» وصوت الأب يرى أن الصوت الأنثوي لا مكان له لأن وجوده لا يعني إلا «نفي الرجل».

كل هــذه الأحكام القاطعــة على الصوت الأنثوي ليســت إلا إعادة تطبيق لغة نقدية قديمة على نصوص جديدة. واللغة القدية التقليدية هي بالتحديد ما نحاول تجاوزه، فكيف إذن نقرأ بها نصوصًا جديدة؟ إن مقاربة النصوص الجديدة بأدوات جديدة لابد وأن يؤدي إلى تغيير الوعــي، وبذلك «يرتبط الانعتــاق الفكري ارتباطــا عضويًا بالتحرر اللغوي»، وبتغيير أسلوب القراءة، القراءة الجديدة، القراءة التنقيحية، التي لا تسجن الوعي في قوالب مصمتة بل تسمح بتكوين وعي نقدي

مشارك في صنع النص. «إن القراءة الفاعلة المشاركة، عندما يمتلكها الفـرد، تلغي الصوت الواحد وطغيان المعنى الواحد، وتثبت في الوقت نفسـه قاعدة الحوار الديمقراطي. لا يعود النص بالنسـبة إليها خطابًا مغلقًا... ويصبح نافذة مفتوحة على فضاء الفكر الواسع. هنا يتم التغلب على صعوبـات المعنى والمضمون لا من خلال سـلطة عليا تقرر محتوى الفكر وشـرعية النص، بل من خلال نظـرة جديدة وفهم مختلف للذات والعالـم والآخرين يتوصل إليها الوعي الناقد والمشـاركة الجماعية في النشاط الفكري الحر».

تهـدف اللغة النقدية الجديدة إلى الكشـف عـن المناطق المعتمة في الخطاب الأبوي والمختفية تحت سـتار الموضوعية المحايدة التي تمحـو التفرد والفردية والاختلاف. كمـا يهدف الإبداع الأنثوي إلى الكشـف عن الجزئي وغير الكلي في وجهة النظر الأبوية التي تقدم نفسـها باعتبارها الحقيقة الشاملة النهائية. فالإبداع الجديد الذي يعبر عن حساسـية جديدة في تطور الوعـي لابد وأن يصاحبه نقد جديد يمهد الطريق لاستيعابه وفهمه. قراءة جديدة في كتابة جديدة تحمل حساسية جديدة. وأستعير هنا تعريف إدوار الخراط لمصطلح الحساسية الجديدة: «الحساسية هي باختصار كيفية تلقي المؤثرات الخارجية والاسـتجابة لها... هناك نقلة في هـذا النوع من التلقي والتحدي والاسـتقبال والاسـتجابة للعوامـل الاجتماعية والثقافية والذاتية أيضًا متشابكة كلها. لهذ أؤثر أو أفضل مصطلح الحساسية لأننـي أعتبره أدق وأوفـى من مصطلح «العالـم الجديد» مثلاً لأنه يوحي بالثبـوت والجمود، وأيضًا «الكيان الجديـد» لأنه يوحي بنوع من الانتهاء والكمال، لكن الحساسـية توحي بنوع من مرونة متجددة وتدفق مسـتمر». المفارقة هنـا أنه في الندوة التـي عقدت بمكتبة القاهرة الكبرى بعنوان «كاتبات من مصر» في ١٩٩٥/٩/٢٤ استخدم الخراط مصطلح «موسـم كتابات البنات» وهـو تعبير أطلقته مجلة «أخبار الأدب» في العام نفسـه. ووصف كتابات مي التلمساني بأنها «شـبقية» وكتابات سحر الموجي بأنها «رومانسية» وعلى حد قوله لم ينج من هؤلاء سوى سمية رمضان وإن كانت الأخريات قد نجون من

«شبهة النسوية». حساسية جديدة لكنها راسخة في الأبوية التي لا تجد مكانًا للذات النسوية.

- ٥ -

فرض الصمت على المرأة عبر التاريخ وتم التعتيم القصدي على كل ما يتصل بها حتى أطلق على حياة النساء «ثقافة الصمت». وفي ظل منظومة التضاد الثنائية أصبحت الكتابة للرجل والحكي للمرأة (ومن هنا ألصقت صفة الثرثرة بالنساء). ولأن الكتابة في حد ذاتها سلطة فقد قام التاريخ بمحو المرأة من سجلاته وفي هذا تقول فاطمة المرنيسي: «كتب التاريخ ملأى بالمعلومات عن هذا الأمير الأموي أو ذاك الوزير العباسي. نحن نعرف ماذا يرتدي هذا الأمير أو هذا الوزير وكيف يرفه عن نفسه، وكم من الدنانير أسبغ على الشاعر الذي أعجبه شعره أو على الجارية التي لفتت نظره بجمالها. لكننا لا نعرف شيئًا عن الحالة الاجتماعية أو الاقتصادية التي يعيشها الشاعر أو الجارية -أو يعيشها اللحام أو بائع الخضار أو العطار أو الفلاح أو العتال في زمن ذلك الأمير أو الوزير». كرس المؤرخون علاقات القوى والسلطة فلم نعرف شيئًا عن النساء إلا من خلال أقلام الرجال. وقد تنبهت الباحثات إلى ذلك فظهر ما يسمى «إعادة كتابة التاريخ من منظور نسوي». وبرزت عدة أسماء في هذا المجال منها فاطمة المرنيسي، ثم ظهرت تكتلات وتجمعات بحثية منها مجموعة «المرأة والذاكرة» بالقاهرة والتي عملت على إعادة كتابة تاريخ العديد من الشخصيات النسائية وعلى إعادة كتابة الموروث الشعبي. كما أصبح لدى النساء شجاعة كتابة سير ذاتية لتوضيح موقفهن. وهنا أذكر كتاب «المحاكمة» للكاتبة الكويتية ليلى العثمان .

إن القراءة والكتابة من وجهة النظر النسوية هو البعد الذي ظل مهملاً في الخطاب العربي على كل مستوياته. وربما يكون هذا الإهمال هو الذي أدى إلى الاحتفاء المبالغ فيه في أواسط التسعينيات بكتابات النساء. بقيت الكتابة عبر التاريخ سلطة وأصبح لصاحب القلم سلطة، ولذلك عندما تكتب المرأة يبقى للنص النسوي خصوصيته إذ يكسر الصمت ويقدم رؤية جديدة لم يعتد عليها الخطاب العربي من قبل. في البدء كانت الكلمة وقد عرف العرب أن سلطة الكتابة يجب ألا تمرر

للنساء. يذكرنا الدكتور جابر عصفور في مقال نشر له بجريدة «الحياة» تحت عنوان «انوثـة الكتابة» بأن «وصية العصور الأدبية الوسـيطة في تربية البنـات التي قالت بألا (تعلموهن الكتابة) كان الهدف منها هو ألا تبعث النساء برسـائل يبثونها عواطفهن للرجال». ومن هنا كانت أهمية تعليم النسـاء وللسـبب نفسـه أيضًا تم حرمانهن من التعليم. البوح أم الصمت. تكون أو لا تكون. هو هذا السؤال.

- ٦ -

أما بقية السؤال فهي: «هل مازالت هذه المحاولات مستمرة حتى الآن؟» كيف يمكن أن نصنف مجلات مثل «سـيدتي» «زهـرة الخليج» و«نصف الدنيا» و«حواء» و«هي». وهذه ليسـت سوى بعض أمثلة لمجلات توصف بأنها «نسـائية»، وبهذا يعاد تكريس صفة الجوهرية حيث لا تتناول هذه المجـلات إلا بعـض وصفات المطبخ وأزيـاء توصف بأنها تبـرز الأنوثة وأحدث أسـاليب وضع المسـاحيق وكيفية إخفاء العيوب، وأخيرًا العديد مـن الخواطر التي تدور حول الحـب والفقد والهجران. أما القائمون أو بالأحـرى القائمات على هذه المجلات فهـن لا يخفين أبدًا أنهن يقدمن متطلبات «السـوق» لأن النساء من وجهة نظرهن يردن مجلات «خفيفة» تتسم بالأناقة وببساطة اللغة.

مع شـدة انتشـار هذه المجلات تراجعت المطبوعات الثقافة والفكرية فيما عدا تلك التي تصدر عن بعض المراكز البحثية والجمعيات الأهلية. وهنـا لا يمكن إغفال دور شـبكة الإنترنت والمجموعـات الحوارية التي أصبحت تغني قطاعًا كبيرًا من الجمهور عن القراءة أصلاً.

لكن تبقى الملحوظة الأساسية وهي أن المطبوعات والمنتديات الثقافية والفكرية النسـوية تثبت وجودها بالفعل فـي مناطق الصراع في العالم العربـي، مثل مجلـة «تاكي» في الأردن و«باحثات» فـي لبنان، وذلك في محاولـة لمواجهـة النبرة لقومية التـي تعلو مع احتـدام الصراع وتعمد إلـى دمج كل القضايا في القضية الوطنيـة. وتاريخ الجزائر ليس بعيدًا وما حدث للنسـاء بعد الاسـتقلال على يد جبهة الإنقاذ الإسـلامية لا يخفـى على أحد. ومنذ ذاك التاريخ والنسـاء قد أصبحن على وعي تام بهـذا النمط من التعامـل معهن، وهو الوعي الـذي ازداد بعد أن قامت

بعـض الكاتبات بنشـر مـا حدث لهن بسـبب انخراطهن فـي الحركة الوطنيـة التي هشـمت القضية النسـوية مثل «حديـث العتمة» لفاطنة البيه المغربية و«سـيرة الرماد» لخديجة مـروازي المغربية و«عام الفيل» لليلى أبو زيد المغربيـة أيضًا و«الغلامة» لعالية ممدوح العراقية و«أروقة الذاكرة» لهيفاء زنكنـة الكردية و«الباب المفتوح» للطيفة الزيات المصرية و«المهاجـرون الأبديون» لمليكة المقدم الجزائريـة و«تاء الخجل» لفضيلة الفاروق الجزائرية و«باب الساحة» لسـحر خليفة الفلسطينية والقائمة تطول فقط لتذكرنا أن تحرر المجتمع لا يعني أبدًا تحرر النساء. دائمًا ما قام الخطاب القومي التحرري بخذلان النسـاء وكانت أولى خطواته هي تصفية الحسـابات معهن، أشكال لخصتها الروائية اللبنانية علوية صبح في روايتها «مريم الحكايا» على لسان ابتسام المناضلة السابقة: «هل رآنا المناضلون مومسات مسـتوردات في علب ثورية جاهزة؟ هل حين ينهزم الإنسـان، ينهزم في السياسة والحب وفي كل الأحلام؟ لماذا نحن النساء صدقنا ثم انكسـرنا ونحن نحاول أن نكتشف مساحات أخرى وفضاءات جديدة لأحلامنا وأجسادنا ومشاعرنا؟ هل حصدنا خيبات مضاعفة عن خيبـات الرجال، الذين صدقنا أنهم متحررون ويريدون الحرية لنا ولهم، وهـم في الحقيقة لم يكونوا سـوى نماذج كاريكاتورية لهارون الرشـيد الثوري؟».

# دور المجلات النسائية في دفع مسيرة المرأة

علوية صبح *

تزامن ظهور المجلات النسـائية في العالم العربي مع انبثاق عصر النهضة الذي حمل معه شـعلة التغيير والإصلاح، ممهّداً لإرساء واقع نهضوي جديد شـمل مرافق الحياة الفكرية والاجتماعية والثقافية، ولم يستثنِ منه بالطبع تلك الخاصة بالنساء. آنذاك هبّ رواد الإصلاح لمناصرة حقوق النسـاء داعين إلى تحريرهنّ من القمع والعنف والإقصاء والتهميش اللاحق بهنّ في عيشـهنّ الخاص والعـام، مؤكدين على تعليم المرأة وإطلاقها من سـجنها المنزلي، حيث شـهدنا لاحقاً انخراط المرأة العربية في الشـأن الكتابي، لا سـيما منه الجانب الأدبي الذي أسهمت في حيّز منه نسـاء كاتبات إتكأن في البداية على نسـب عائلي يربطهنّ بأب أو بزوج أو بشـقيق ممّن يشـغلون مواقع أدبية فكرية وثقافية. هذا الاتكاء الذي توسّـلته المرأة العربية معبـراً ظرفياً يوفّر لها الحصانة في وجه المعترضين والمتزمّتين والمستكرين في شراك الإناث في شئون الأدب والفكر والثقافة، فتح فيما بعد أمام أقلام نسـائية اسـتطاعت أن تنشئ

* رئيسة تحرير مجلة «سنوب» اللبنانية.

لنفسـها بمعزل عن النسـب فضاءات مسـتقلة عبّرت فيها عن شئونها وشـجونها الخاصة، ثم توسّـعت إلى أبعد من مجـرّد مقال تكتبه هنا أو هناك لتنشئ مجلات نسائية شملت أبواباً متنوعة فنية وإبداعية وعلمية واجتماعية بمثل ما فعلت لبيبة هاشـم وألكسـندرا الخوري، فضلاً عن كاتبات وأديبات أخريات.

ولا جـدال بأهمية الدور الـذي لعبته هذه المجلات في تلك الآونة، في ترسـيخ الوعي النسـائي وتحفيز المرأة على المطالبة بحقوقها، وحضّها على الاسـتزادة من العلم والمعرفـة والثقافة لتمكينها من أن تثبت جدارة عاليـة تجنبها البقـاء في قفص التقاليد والأعـراف البالية التي حكمت عليها بالسـلبية ونقصان العقل، وبالتالي أقصتها عن أيّ مشاركة في بناء المجتمع والوطن، سوى ما عُهد إليها من الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال وخدمة الزوج.

تلك كانت الهواجس الأساسية التي قاربتها مضامين المجلات النسائية خـلال النصـف الأول مـن القرن العشـرين، ثم مع التطـور الذي لحق بالمجتمعات العربية في العقود التالية، كان لا بدّ للمجلات النسـائية من أن توسّـع أطر اهتماماتها وتغيّر هواجسها مع تغير المجتمعات ومتطلبات السـوق، حيث ظهـرت مجلات رائدة مـن مثل «حواء» المجلـة المصرية الطليعيـة التـي بلغت ما لم يبلغه الكثير من المجـلات الأخرى. هذا قبل أن تصبـح المجلة النسـائية بمختلف اتجاهاتها مشـاريع تجارية عموماً وضرورة ملحّة أفرزها إقبال النساء على قراءة موضوعات تثير فضولهنّ واهتماماتهنّ ولا يجدنَ في المجلات العامة الأخرى ما يلبّي هذا الفضول والاهتمام. ونحن اليوم حيال ظاهرة منتشـرة ومتفشية اسمها «المجلات النسائية» نسـائل الدور الفعلي الذي مارسته وتمارسه في تحقيق الغاية التي أنشـئت من أجلها على مسـتوى قضايا المـرأة والتوعية والتثقيف والتوجيه والإمتاع.

فـي الواقع ثمة مؤثـرات كثيرة ومرجعيات عديدة تُسـهم في صناعة الثقافـة التي تُقدم للمرأة اليوم، وبالتالي في رسـم الصورة التي تتلقاها عبر الخطاب الموجّه إليها. وقد يخيّل للبعض أن الإعلام السياسـي أكثر فاعلية وأشدّ تأثيراً في المتلقي، فيما للإعلام الاجتماعي تأثير مضاعف

في تشكيل الذهنيات والأفكار والمعتقدات. كما أن لخطابه مؤثراته في وعي القارئ أو القارئة كون موضوعاته المطروحة تمسّ أموراً أساسية لا بد أن تصطدم بمفاهيم وقوانين ومحظورات، كما تمسّ أمور الحياة وتفاصيل عيش وعلاقات وقيماً. وفي هذا ثمة مرجعيات وسلطات ومصالح تتقاطع وتتشابك لتتحكّم بأهداف وغايات المجلة النسائية، ولها اليوم دور أساسي في التأثير إيجابياً أو سلبياً في وعي المرأة. على هذا يتجلى دور الرقابة التي تختلف من بلد عربي إلى آخر ودور الشركات التي تقف وراء إنتاج أو إصدار المطبوعة.

والحقيقة أن هذا العصر أفرز ثقافات باتت مرتبطة أكثر فأكثر بالاستهلاك، ووجدت في الصحافة النسائية أرضاً خصبة لها ومشاريع تسويقية بامتياز. كما أن التحولات الاقتصادية التي شهدها العالم في السنوات الأخيرة من عولمة الاقتصاد إلى غيرها من التحولات البالغة التعقيد والتداخل أحدثت طفرة في مجال الإعلام والاتصالات. فبات إعلامنا ملكاً لمجموعات اقتصادية تعمل في مجال الإعلام توجهه وتتحكّم به. وإلى جانب المحطات الفضائية ظهر العديد من المجلات. كما أدى التسوق الناجح لبعض الشركات الإعلامية الأخرى إلى إغراق الأسواق بكمّ كبير من المجلات التي تقلّد بعضها بعضاً، كذلك تحوّل إغراق المجلات بالمواضيع الاستهلاكية وسيلة لكسب الإعلانات وتحقيق الأرباح الضامنة للاستمرار. كل هذا أثّر على صورة المرأة في هذه المجلات، وبالتالي في نوعية الثقافة التي تقدّم لها.

وإزاء حقيقة أن الصحافة النسائية باتت عملاً تجارياً كسائر الأعمال، ولا بد من أن تحقق الأرباح المادية، فإن غالبية المادة الإعلامية في هذه المجلات باتت تتنافس في نشر وشيوع الثقافة الإعلانية. وإن بقيت هناك فروقات في الخطاب الموجّه للمرأة عند مقاربة المواضيع الاجتماعية والإعلامية التي تخصها. وقبل التحدث عن سلبيات وإيجابيات هذا الخطاب المعاصر الموجّه للمرأة والتغيرات التي حملها تزامناً مع تغيّر واقع المرأة العربية المعاصرة، لا بد من التوقف عند أبواب المجلات النسائية عموماً والاهتمامات التي تريد لهذه المرأة أن تتصرف إليها.

المتتبع للمجلات النســائية لا بد أن يتساءل: هل من فروقات في المادة الإعلامية التي تقدّم للنســاء؟ وهل الصورة التي تقدّم للمرأة تتشابه في الموضوعات والمعالجة والرؤية؟

لا شــك في أن ثمة فروقات بين الصحافة الصفراء والســوداء، وتلك الأكثر جدية في تبويبها وسياستها الإعلامية.

إن نظــرة عامة على مجمل المجلات النســائية تشــير بوضوح إلى أن الكثيــر مــن هذه المجلات لا يهتــمّ بالقضايا الجوهرية فــي دعم حقوق المرأة في المنطقة العربية، بقدر ما يهتم بالطباعة الأنيقة والإخراج الفني وبلاغة الصورة الأنثوية وذلك لغرض التسويق. وبالتالي فإن المشكلة تكمن فــي المضمون الذي لا يرقى إلى ما يحدث من تحوّل فعلي داخل المجتمع. وبكلام آخر، هناك تنافس على مســتوى الشكل لجذب القارئات في ظل تحوّل الإعلام إلى تجارة لســلع يجب تسويقها كما هو الحال بالنسبة إلى أي سلع أخرى.

والتنافس يبدأ من صورة الغلاف. هذه الصورة التي تعتبر في صحافتنا النسائية عاملاً أساسياً في جذب القرّاء وبالتالي عاملاً حاسماً في نسبة مبيعاتها. وغالباً ما تحتل أغلفة المجلات النسائية عارضات أزياء أو فنانات أو مذيعات أو شهيرات في عالم الفضائيات وأهل الفن والمجتمع.

ولعبــة الإيهام تبدأ من صورة الغلاف هــذه. والصورة عموما جزء من خطاب وصناعة ثقافة المرأة البصرية والنفسية والذهنية. وصورة الأنثى علــى الغلاف حاملة للكثير من دلالات صورة الأنوثة التي نريدها للمرأة. ففي دراســة بريطانية صدرت (١٩٨٠) مثلاً تم تحليل صورة الأنثى التي احتلت صفحات الغــلاف لبعض المجلات الإنجليزيــة، فوجدت الباحثة (فيرجــون) أن الصورة الأكثــر تقديماً للمرأة على غــلاف المجلات هي الوجه الحالــم للأنثى الذي يعطي إيحاء بأنهــا متاحة وتحمل ملامحها دعوة صامتة للاقتراب. وفي الكثير من مجلاتنا النسائية دعوات صامتة وأخــرى ناطقة للاقتراب في صور الأغلفة والصور المنشــورة أيضاً على صفحات المجلة.

وفي عصر الصورة التي طفت على هذه المجلات على حساب المواضيع

التي تطرح مشاكل المرأة وقضاياها الحقيقية، فإن الثقافة البصرية التي تقدّم للمرأة تبدو مصنوعة لأهداف تسويقية. كما تجعل هذه الثقافة القارئة في حالة تماثل واستلاب مع الموديل أو النموذج الذي تقدّمه المجلات، ما يجعل الغالبية من النساء أسيرات الموديل الاستهلاكي المعمّم، لاغيات خصوصيات حتى شكلهنّ وهويتهنّ. والتركيز على الصورة هدفه بالطبع التسويق التجاري. لذا على مستوى التبويب فإن الحيز الأكبر يُخصص للمواد الاستهلاكية في المجلات النسائية. والحقيقة أنني أرى أن المشكلة ليست في التسويق لأن هدف كل مؤسسة إعلامية هو الربح والاستمرار، لكن المشكلة هي أن بعض المؤسسات الصحافية النسائية جعلت نفسها مثالاً رديئاً للاستهلاك الاقتصادي، وكان ذلك على حساب المواضيع التي لا تواكب واقع المرأة في المجتمع أو داخل الأسرة بشكل جريء وحقيقي، وبكلام آخر إذا كانت المجلات التي تجذب القرّاء هي المجلات التي تحتشد بصور جميلات أكثر من سواها، فقد كثرت الطرائق التي كلها من صنع الخيال والفانتازم. ومن هنا فإن المجلات النسائية تحدّد معايير الجمال في الواقع الحقيقي للإناث، ومن ثم فمن اللافت أن تتحول غالبية النساء إلى نساء متماثلات مع الصورة المعلنة. فالصور المنشورة هي الصور التي تطمح القارئة أن تكونها، أو تحاول ذلك عبر اللوك والتسريحة من باب التماهي والتماثل بالموضة والمعاصرة.

وإزاء هدف التسويق هذا، فإن ثمة اهتماماً واسعاً بموضوعات التجميل وفنون الماكياج والتي تصل إلى موضوعات الجراحات التجميلية الباهظة الثمن، وكذلك هناك اهتمام واسع أيضاً بموضوعات الأزياء والموضة كمواد رئيسية في تبويب المجلات النسائية.

إلى ذلك تبرز صور الوجوه الاجتماعية الأنيقة والراقية والنساء النجمات وفتيات الإعلانات وأهل الفن والفتيات الجميلات والحوارات مع نجوم السينما والمجتمع والمذيعات والنساء السوبر راقيات أو السوبر جميلات. والاختيار للوجوه يتم بناءً على المظهر الخارجي وإيحاءاته في كثير من الأحيان وليس بناء على المستوى الثقافي. وهذا تكريس لصورة الجمال الشكلي على حساب الوعي الاجتماعي والثقافي. وعدا أن الدراسات أكدت أن ٧٧ في المائة من صفحات المجلات النسائية للجوانب

الجماليـــة والمظهرية، فإن ظاهرة جديدة في التحقيقات الاجتماعية تكاد تنحصر بالمشــاهير وأهل الفضائيات والتلفزيونــات ليقولوا آراءهم في الحــب والحياة والطلاق والزواج وغير ذلك من المواضيع، ما يدل على أن سياسة هذه المجلات لم تعد تعير اهتماماً بالفئات الشعبية وبقضايا المرأة فــي القطاعات كافة أو الفئات الأخرى، ومما يدل على غياب واقع المرأة وغيــاب الصور الأخرى لها من منتجات وعاملات وأكاديميات وجامعيات ومناضلات وغيرهنّ من النساء داخل الأسر المتنوعة.

تماماً مثلما يدل التركيز على الشكل كما لو أن القضية الأولى بالنسبة إلــى المرأة العربية هي تنمية اهتمامهــا بأنوثتها وإغفال قدراتها الأخرى كإنسانة وكمواطنة.

ومــن ضمن الثقافــة التي تقدّم للمرأة، ثمة بالطبــع اهتمام بالغيبيات وتحضير الأرواح والتبصير والشــائعات وتفســير الأحلام وقراءة الطالع والحظ وغير ذلك من تركيز على أمور غيبية وتشويهية للوعي النسائي.

من البديهي القول إنه مطلوب رســم استراتيجيات تصوّب صورة المرأة لتغييــر الصــورة النمطية التقليديــة التي تقدّمها، ليــس فقط المجلات النســائية بل أيضاً المناهج المدرســية والفضائيات وكل وسائل الإعلام. فللإعلام دوره في عملية تشــكيل الوعــي، ولقد أثبتت التجارب أنه ليس هنــاك مجتمــع حديث يؤدي وظيفتــه بكفاءة دون نظام متقدّم لوســائل الإعلام، لا ســيما أن هــذا العصر أفرز ثقافة جديــدة في مجال حقوق الإنســان لا يقبل تهميش دور المرأة. نظراً للعلاقة العضوية بين تحريرها من كل أشــكال التمييز وتحقيق التنمية الشــاملة. والحقيقة أيضاً أنه لا يمكــن فهم واقــع المرأة في الإعــلام دون فهم أوســع للمجتمع والفضاء العــام الذي تتحرك فيه كما يؤكّد تقرير لليونســكو، باعتباره - كما يذكر - موضوعــاً معزولاً ومجتزأً. كما لو كان فــي الإمكان تحليل علاقة المرأة بوســائل الإعلام وصياغــة مقترحات جديدة لتغييرهــا من دون الرجوع إلى مجموع العوامل الاجتماعية المتضمنة، أي مجموع النظام الاجتماعي الذي تكسب فيه هذه العلاقة سماتها الخاصة وديناميتها الخاصة.

وإذا ما اســتثنينا المجلات الرخيصة التــي تعتمد على الإغراء والإثارة أو الشــائعات، فإن ثمة مقاربات عصرية لمشــكلات المرأة في العديد من

المجلات النسـائية. كما تبرز صورة جديدة أكثر عصرية للمرأة لم تظهر من قبل. وتلك الأنماط أوجدتها بالطبع المتغيرات التي دخلت على المجتمع في السـنين الأخيرة، والتي تعبّر عن تغيّرات بدأت تحدث في النظرة إلى دور المرأة في المجتمع. كما شهد الخطاب الموجّه إليها تطوراً عن السابق. وهذا يعود بالطبع إلى تنامي مستويات وعيها لذاتها وللتغيرات في واقعها الاجتماعي والمهني والأسري والتعليمي وغيره.

وإذا مـا قارنّا مثلاً بين صورة المرأة في سـتينيات وسـبعينيات القرن الفائـت بين مجلة «حواء» والمجلات النسـائية اليـوم، نلحظ تغيرات في مستوى وعيها وواقعها الاجتماعي وتغيرات على مستوى العلاقة بذاتها.

فإحدى الدراسات مثلاً قامت بدراسة لـ١٦ قصة قصيرة نشرتها مجلة «حـواء» بين عامـي ٦٧ و٧٧. وبرأيي أنه بالرغم مـن أن صورة المرأة في خطاب «حواء» كانت أقل تغريباً وأكثر التصاقاً وتعبيراً عن واقعها المرجعي الاجتماعي، فإن الدراسة توصلت إلى نتائج عديدة لافتة من بينها افتقار صورة المرأة إلى العقلية العملية، وانحسار دورها بالإنجاب، واعتبار نفسها فريسة للضعف إذا خسرت الرجل. كما قدّمت هذه القصص المرأة بشكل سـلبي، فهي دائماً بحاجة إلى عون وضعيفة القـدرة على اتخاذ القرار. تفتقـر إلى المبادرة، وخروجها من البيت للعمل نتيجة عوز اقتصادي. كما تُبرز هذه القصص الشـخصية الإيجابية والمستقلة والبنّاءة للمرأة، لكنها تظهرها في مواقف تدافع فيها عن قضايا تخصها تتعلق بها شخصياً مثل اختيار شريك حياتها ونادراً ما تصوّرها تدافع عن قضايا عامة.

والحقيقـة أن صورة المرأة في المجلات النسـائية الآن تعكس متغيرات في واقع المرأة ودورها وفي مسـتوى وعيها. فالمرأة الآن في مواقع القرار أكثر. وخروجها للعمل مثلاً هو بدافع التحقيق الذاتي أيضاً. وهي حققت نجاحات على الأصعدة كافة في العديد من المجتمعات العربية، وخطابها أكثر جرأة ووعياً للذات. وهي ليست مثلاً فريسة للضعف إذا كانت مطلّقة أو بـلا رجل. ودورها لم يعد ينحصر بالإنجاب، بل ثمة تمرد على الأدوار التقليدية في كثير من الأحيـان، وهي أكثر انخراطاً في القضايا العامة، وكي لا نظلم الصحافة النسائية بالمطلق ثمة إيجابيات لا بد من الالتفات إليها لأن الصورة ليست معتمة بالكامل:

. بعض المجلات تعلن انحيازها للحريات الفردية للمرأة المعاصرة، فيما أخرى ترسخ مفاهيم التبعية. هذا الخطاب يتباين بين مجلة وأخرى تبعاً لواقع وتقاليد كل بلد وتبعاً للمؤسسة أكانت رسمية أم خاصة. وثمة بالطبع عامل الرقابة الفعلية أو الضمنية والتي تختلف أيضاً بين بلد وآخر.

. هناك تبنٍّ أكثر لشخصية المرأة الفاعلة والمستقلة والقادرة على اتخاذ القرار، كما أن هناك إضاءة على أدوار مختلفة للمرأة غير محصورة بأدوارها التقليدية، وإن كانت هذه الإضاءة باهتة إلى حدّ ما.

. اهتمام أكثر بمراحلها العمرية المتعددة، والتركيز ليس فقط على فترات خصوبتها وإهمالها بعد تجاوز هذه المرحلة، وإن كان الاهتمام اللازم بالعمر المتقدم أو بالمراهقات غير كافٍ، إلا أن قيمتها الإنسانية والأنثوية لم تعد ملغاة بعد مرحلة الإنجاب، وهي أكثر احتراماً في هذا الخطاب.

. ثمة تحقيقات مثيرة حول قضايا المرأة أكثر جرأة وكشفاً لمسائل تخصّها وبمعالجات عصرية إلى حدّ ما، من مثل موضوعات الطلاق أو العنف ضد النساء أو التحرّشات الجنسية والخيانة الزوجية وغير ذلك... كما هناك إبراز لمشاكل المرأة في مجال العمل وفي القوانين والتقاليد والتشريعات وغير ذلك من الأمور.

. هناك حيّز أكبر للوعي الصحي والجنسي والتربوي والأسري تقدمه المجلات النسائية. وهذا أمر لا يمكن التقليل منه. وفي المجلات النسائية يكتب الخبراء وأهل الاختصاص من أطباء وتربويين وعلماء نفس واختصاصيين في الطب النفسي الجنسي. وثمة صفحات في مجلة «سنوب» مثلاً للتثقيف الجنسي العلمي ومواضيع عن العلاقات الزوجية، بما يخدم الوعي الجنسي والصحي والنفسي والأسري، ربما يقدّم فهماً علمياً للجسد وفهم أسراره وكذلك فهم الآخر. وفي هذا تقدّم بعض وسائل الإعلام بما يحمل من الوعي ومن رياح التغيير بفضل بعض الإعلاميين والإعلاميات الواعين بقضية المرأة عموماً، ووعيها لجسدها وصحتها وأنوثتها في محاولة جادة لتغيير صورتها أمام ذاتها، وتغيير علاقتها بنفسها وبجسدها وتحسين صورته السلبية وعدم إلغائه أو

إهماله. وعلى الرغم من أننا نلاحظ أن تلك الجهود تعدّ جزئية ومحدودة في خضمّ الكمّ الهائل الذي يتطرق لمثل هذه القضايا المهمة، أو تلك المواضيع التي تظهرها كزوجة سلبية وجسد متلقٍ يتناسب مع صورتها في المجتمع الذكوري الاستبدادي. وهذا يتناقض مع واقعها الحقيقي ومع دورها. هذا الدور الذي بدأ يطلع به عدد لا يستهان به من النساء في الفترات الأخيرة.

. هناك تزايد لعدد الأقلام النسائية والبعض منها يعد بالكثير. كما تجدر الإشارة إلى أن المجلات النسائية ساهمت في زيادة حرية التعبير، والمسافة بين النساء في العالم العربي من خلال المجلات صارت أكثر قرباً. والنساء لا يُقبلنَ للاطلاعِ على آخر ما أنزلته الأسواق في مجال العطور والتجميل، وإنما أيضاً لقراءة أقلام ومواضيع نسائية تهمّهن في هذا البلد العربي أو ذاك، كونهن يعانينَ من مفروضات اجتماعية وتمييزية وقانونية وأسرية...

. يتم انتقاد الصحافة النسائية بسبب تركيزها على قضايا مثل وسائل التجميل والماكياج والطبخ والديكور والرشاقة، وكأن ذلك إصرار على تقديم صورة للمرأة بشكل غير جدي. لا أرى في تناول مثل هذه الموضوعات مشكلة، فما المانع أن تعرف المرأة كيف تلبس أو «تتمكيج» أو كيف تطبخ أو كيف تهتم بزهورها وبيتها ورشاقتها الصحية؟ المشكلة ليست في المواضيع، بل في الاستغلال السيئ للتسويق التجاري. الثقافة في هذا الإطار مطلوبة لكن المشكلة هي في الصورة التي يرسمها الإعلام عن المرأة في أذهاننا. الخطورة هي في الخطاب الذي يعزز في ذهن المرأة النرجسية وذهنية التنافس مع الأخريات من خلال الشكل والجمال. المشكلة حين يحمل هذا الخطاب الثقافي الموجه للمرأة فكرة أن الجمال والأنوثة المصنّعة والمصطنعة هما المطلب الأهم والأساسي في حياتها، وتستحق أن تنفق من أجلهما الغالي والرخيص، وهما الطريق الأمثل والأفضل للنجاح في الحياة حتى الأسرية والاجتماعية والمهنية، في حين هناك تجاهل لحياتها الفكرية والثقافية كي تسمو بنفسها وتقوم بدورها المطلوب منها في المجتمع.

الخطورة ليست في المواضيع التجميلية والشكلية، لكن الخطورة في

الاستخدام السيئ للفانتازم من خلال الصور التخييلية والخدع التجميلية وفنون التصوير التي كلها تستغل الفانتازم الذي نصنعه ونعود لنسوقه ونتاجر به. وفي هذا يصف ستوارت أون ما أسماه بالثقافة «الحضارة الإعلامية» بقوله: «إن الثقافة الإعلامية لم تعد مجرد مملكة يدخلها الفرد بهدف المتعة، لكنها أصبحت عالماً يستهلك ضمير البشر». ويضيف: «أن الخيال هو المملكة التي يتم فيها الاستغلال الاقتصادي، لذلك يجدر بنا أن نثير الأسئلة فيما يتعلق باستعمار الخيال من قبل فئة من أولئك المسئولين عن صناعة الفانتازيا أو الوهم، حيث تتحول هذه المواد إلى وسائل لتراكم الثروة وأسلحة مهمة للسلطة لوضع الفرد الاجتماعي بل وللتعامل مع البشر بشكل عام».

الحقيقة أنه لا يمكن رؤية صورة المرأة كما تعرضها وسائل الإعلام النسائية المكتوبة بمعزل عن الإعلان والتيارات الاجتماعية والمؤثرات وشركات التسويق والصناعات الاستهلاكية. وفي تقرير ماكبرايد الصادر عن اليونسكو حول قضايا الاتصال (عالم واحد آفاق واحدة) إشارة لتقصير معظم وسائل الإعلام في العالم في تناول القضايا النسائية، واعتبرت الصورة التي تملكها هذه الوسائل عن المرأة صورة دونية وغير لائقة بها وخصوصاً في الإعلانات.

والحقيقة أيضاً أنه لا يمكن إغفال دور الإعلان في استمرار المجلة أو في مدى نجاحها الاقتصادي أو توقفها. فالإعلان سلطة اقتصادية في عملية إنتاج وترويج مجلة، وهي بذلك تتحكّم بطريقة غير مباشرة بالمادة الإعلامية. ومن خلال تجربتي مثلاً أذكر أن أحد المعلنين احتجّ ذات مرّة على تبويب إعلانه ضمن لقاء أجرته المجلة مع المناضلة سهى بشارة بعد خروجها من السجن من إسرائيل. ورفض دفع ثمن الإعلان بحجة أنه لا يريد إدراجه ضمن موضوع مع «خرّيجة سجون» على حدّ تعبيره! وفي عالم يكاد يكون الإعلام هو السلطة الأولى من حيث صناعة الأفكار وبناء الشخصيات، تأخذ صورة المرأة بعداً إشكالياً في إعلان الصحافة النسائية، كما تأخذ قضاياها بعداً إشكالياً في هذا العصر عندما يحاول الإعلام عرضها وتسويقها والاستفادة منها.

إن معظم الدراسات تركّز على صورة المرأة في الإعلان وخصوصاً تلك

المرتبطة باستغلالها في الإعلانات التجارية. ومن نافل القول إنه لا يمكن رؤية صورة المرأة كما تعرضها وسائل الإعلام بمعزل عن الإعلان. والمرأة فـي هذا الإعلان صورة برّاقـة إن على غلاف المجلـة أو في صفحاتها الدعائية والإعلانية لمنتوجات استهلاكية مختلفة للشركات العالمية وغير العالميـة. وهي لا تلبس المجوهرات لتصير أكثر أناقة وأنوثة وإنما لتصير قيمتها بمـا تملك. وتتحول بالمقابل فتنة الأنوثة إلى سـلعة لشـدّ انتباه الجمهور بغضّ النظر عن اعتبارها الإنسـاني. وحين تكون السـلعة هي القيمة الاجتماعية، فإن هذا امتهان كبير لدور المرأة في الحياة والمجتمع وتهميش لها ولمكانتها باسم التطور والأنوثة المصنوعة. والمعلنون يستخدمون بالطبع الأسـاليب النفسية للتأثير في عملية التسويق، فالإعلان يدعوها إلى أن تجعل نفسها في دور المرأة التي حصلت على أمنية بشراء السلعة. وهو يدعوها إلـى الاقتناء لجذب الرجل وكذلـك لتكون الأجمل والأكثر أناقة، والفاتنة التي تدير الرءوس وتسرق الألباب. ويتلاعب هذا الخطاب بتهويمات المرأة حول الأنوثة كما يتلاعب بحسـها التنافسـي، يعزز الأنا ويضخمها إلى حدّ المرض، لذلك لا تكون المشـكلة حين نخاطبها أن تكون أجمـل أو أكثر أناقة، لكن المشـكلة حين نخاطبها أنهـا الأجمل والأكثر حضوراً، حيث الصورة التي تحتلّ رأسها وتشوّه وعيها لذاتها، في أنها إن لم تكن الأكثر فتنة فهي بلا قيمة ولن يلتفت إليها أحد ولن تحقق وجودها في الحياة وسعادتها وذاتها ونجاحاتها.

وقد أوضحت الكثير من الدراسات ضرورة الإسراع في اتخاذ خطوات إيجابيـة لتفعيل دور المرأة والتركيز على رفـع كفاءة الأداء وتنمية الوعي الاجتماعـي والنسـائي والوطني وربطهـا بقضايا مجتمعهـا، وضرورة استهداف تشكيل رأي عام نسائي واع مستنير، يتبنى أفكاراً جديدة تسمح بتحسين صورة الذات وإحداث تغيراتٍ في المواقف التقليدية وعلى رأسها قضايا المرأة. لكن من نافل القول أن العولمة حوّلت طبيعة وتركيبة الإعلام مـن أداة لقضايا المرأة إلى شـركات خاصة عابرة للقـارات، فأصبحت ثقافة الاسـتهلاك هي السائدة. ففيما كان النقاش حتى الماضي القريب منصبّاً على الصور التي تبعثها أو ترسّخها وسائل الإعلام، صار المطروح اليوم هـو اغتراب الصورة التي تطرحها المجلات عن واقع المرأة، وكذلك

الفضائيات والتلفزيونات، بل دخلت صورة جديدة تمثل معظم النساء العربيات المستهلكات على التشبّه بها. كل ذلك حال دون تحوّل أو تغيّر حقيقي في صورتها عن دورها في المجتمع وفي الواقع، فسادت ثقافة التسطيح والتفاهة تحت غطاء المتعة والتسلية والترفيه. ومن هنا فإن المجلة الأكثر مبيعاً لا يعني أن القيمة الصحافية والفائدة التي تقدّمها هذه المجلة أكثر من غيرها. لذلك فإن الانسياق للتفاهة وتشويه وعي المرأة يتم في أغلب الأحيان تحت شعار تقديم مادة محبّبة للمرأة بالدرجة الأولى.

وبالرغم من أن هناك تقدماً ما قد حدث في صورة المرأة في بعض المجلات النسائية وخصوصاً في التحقيقات والمقابلات والمواضيع المختلفة، فإن المجلات النسائية لم تقم بعد بمسئولياتها الإعلامية تجاه قضايا المرأة والتنمية وتجاه حقوقها. والحقيقة أن الأمر لا يعود إلى ثقافة الترويج والاستهلاك، فحتى هذه تعيد إنتاج صورة تقليدية ما للمرأة في المجتمع. فتقسيم الأدوار والقيمة الإنسانية وغيرها من القيم قائمة على التصورات التي يتبناها المجتمع بفعل القيم الاجتماعية والتقاليد الموروثة، بالإضافة إلى القيم الاستهلاكية التي طرأت. ثم إن وجود ثقافة للتمييز في القيمة بين الجنسين قائمة على منظومة تربوية تقليدية ونظرة المجتمع للمرأة. ثم هناك النظم والقوانين العامة والمفاهيم والرقابات وعدم السماح للحديث في الممنوعات، والمؤسسات الإعلامية التي تعيد إنتاج صورة المرأة النمطية. وأيضا إن القائمين على هذه المؤسسات رجال وأصحاب مشاريع تجارية، وإن اختلف الخطاب الموجه إلى المرأة بين مؤسسة وأخرى تبعاً للبلد وتقاليده وقوانينه. ففي حين تمنع بعض المجلات سفور المرأة أو تخضع المجلة لمحظورات في المواضيع أو الصورة، تدافع أخريات حتى عن الحريات الشخصية، لكنها بالمقابل تغرق صفحاتها باستباحة الجسد وتسويقه. وفي كل هذه الشروط والعوامل يمكن القول إن صورة المرأة في هذه المجلات عموما تتوزّع على ما يلي:

- صورة المرأة الجسد: المستلبة بالشكل الأنثوي بما تنتجه الشركات العالمية بهدف التسويق التجاري الذي يستغل الجنس والإغراء لأهداف تجارية. كما أن التركيز هنا على الجميلات وليس على المتفوقات أو

الجامعيات أو نساء الطبقات الاجتماعية الشعبية. والتسويق لا يتم بمعزل عن ثقافة الاستهلاك العصرية وكذلك الاستناد إلى موروثات تقليدية لصورة المرأة المطلوبة والتي تحتاج إلى ثقافة اجتماعية لتغييرها. وهنا لا بد من الإشارة الى أن هذه الثقافة التسويقية العصرية تجعل التكنولوجيا والتطور في خدمة التخلف، والمعاصرة في خدمة الماضوية، والاستهلاك في خدمة المفاهيم الرجعية والتقليدية.

. صورة المرأة التقليدية: مقابل تعميم الصورة النمطية للجمال والأنوثة والاستهلاك، تُظهر هذه المجلات إلى حدّ كبير صورة المرأة التقليدية وصورتها النمطية في الأمومة. والصورة هي صورة الأم الضعيفة والمتفانية، وكأن هذه الصورة جزء لا يتجزأ من طبيعتها الأنثوية والتي تؤدي بها إلى التضحية بنفسها وبلا حدود من أجل إسعاد الآخرين، الذين لا تتوقع منهم مقابلاً نظير ما تقوم به من تضحيات. فالصحافة النسائية مازالت أسيرة نظرة المجتمع الذكوري، فهي تكرس في معظمها صورة المرأة التي هي صنيعة ذكورية حيث هي ضعيفة، أو حيث هي موضوع جنسي وليست فاعلاً في المجتمع، وهي الجميلة التي يتنافس على اقتنائها الرجال، ترتفع قيمتها بمقدار ما ترتفع نسبة جمالها. بمعنى أن الرجل يدفع بالمرأة إلى إعادة إنتاج الصورة التي صنعها لها، حيث تصبح المرأة أسيرة استيهامات الرجل حولها، بل أسيرة ما تتماهى به من استيهامات الرجل. وكذلك الأمر على مستويات صورها الأخرى في الأمومة والزواج والحب وغير ذلك. وبذلك تعيد المجلات النسائية إنتاج الصورة الذكورية التقليدية بدون أية نقدية أو جرأة إعلامية لطرح القضايا بما يسمح بتشكيل وعي نسائي جديد. وباسم التقاليد والأعراف نعيد إنتاج الصورة، وباسم الاستهلاك نتماهى بالصورة المصنوعة. ومأزق الإعلام النسائي هنا هو مأزق الثقافة النسائية التي يتم الترويج لها لتكون ذاتها هي المحور، وجسدها هو الموضوع، ومأزق صورتها السلبية التي يتم الترويج لها أيضاً بلجوئها إلى الغيبيات والتبصير لحل أمورها، ومأزق افتقارها إلى هوية أنثوية إنسانية عصرية وأصيلة في آن. إنها الصورة الطاغية التي تخشى فقدان جمالها أو تقدمها في السنّ وفقدان دورها كمحققة لرغبات الرجل الذي قد تفقده إذا فقدت جمالها وشبابها. وهي في هذا

تتحرّك في أدوار عديدة رُسمت لها من كونها أنثى شرقية.

إن المجـلات النسـائية المعاصرة لا تقوم في النهايـة بدورها المطلوب في دفع سـيرة المرأة نحو التحرّر الذهني من أسـر الحريم والتطلع إلى المشـاركة في حركة المجتمع العربي، بل فيها مـن الثغرات ما يعمل على سـجنها في أسـر الاسـتهلاك، وبما يعيد إنتاج صورتها النمطية كأنثى دميـة من مقتنيات الرجل فـي الكثير من خطاب هذه المجلات، كما فيها من الثغرات، على الرغم من بعض الإيجابيات، ما يعمل على تشويه وعي المرأة بما يجعلها في شـبه قضية كما يجري من تطورات في واقع المرأة في شتى المجالات.

وإزاء ذلك مطلوب اسـتراتيجيات تساعد على تنمية وعي المرأة لذاتها ومشـكلاتها بكل جرأة وحقيقة وفتح صفحاتها، أو على الأقل بعض منها للدراسـات أو الموضوعات لتحريرها من سـجن صورة الأنثى السـلبية والمتلقيـة وصورة «الحرمة» التـي يُحرّم عليها خطاب لغـة العقل ليبقى دورهـا مقصيـاً وملغيًا. كما المطلوب التركيز على النسـاء المضيئات في تاريخنا وفي حاضرنا والتركيز على الثقافة، التي هي غائبة في المجلات النسـائية أو حاضرة من بـاب رفع العتب. والمطلوب مناقشـة قضاياها الأسـرية والقانونية والاجتماعية والزوجية بجـرأة. وواقعها في قوانين الأحوال الشـخصية وفـي المجتمع بما يخدم وعيهـا وحقوقها. والتركيز علـى تنمية قدراتها، وأن تعكس على الأقل تقدمها الحاصل في المجتمع، ورسـم اسـتراتيجيات إعلامية تصحح الصورة السلبية بما يخدم وعيها وقضاياها المعاصرة وهويتها، والعلو بالمهنة إلى ما يليق بمكانتها الإنسانية كشريك في بناء المجتمع والأسر والأوطان والمستقبل.

# الصفحات الثقافية وأثرها في الرأي العام

جمانة حداد *

إن كان سؤالكم لي في إطار هذه الندوة: هل للصفحات الثقافية أثر في الرأي العام؟ وما الذي ينبغي لها أن تفعله كي يكون حضورها أكثر فاعلية في حياتنا العامة؟

أما الخط العريض لجوابي لكم فهو: ليست الصفحات الثقافية منابر سياسية أو اجتماعية، ولا حتى تربوية أو تعليمية، كي يكون لها تأثير مباشر وفوري في الرأي العام، وكي يظهر هذا الأثر جلياً من خلال النتائج التي يتركها في هذا الرأي العام.

للذين يعتقدون أن دور الصفحات ينبغي له أن يأخذ هذا المنحى سيخيب أملهم للوهلة الأولى لأن المسألة الثقافية أكثر تعقيداً وتركيباً والتباساً. فالصفحات الثقافية، على أهميتها، ليست محاضرات وندوات ولقاءات وقراءات، على غرار ما تفعله الأحزاب والجمعيات لتلقين مريديها وأتباعها الأفكار والنظريات والفلسفات. وليست في المقابل صفوفاً مدرسية ولا جامعية، تنقل إلى الطلاب الآداب والعلوم والمعارف، ليتخرجوا عندما

* مسئولة القسم الثقافي في جريدة «النهار» اللبنانية.

يحين الوقت حاملين شهادات في الاختصاصات المختلفة.

قد يستهجن البعض ما أذهب إليه من تقليلٍ لأهمية الأدوار التي ينبغي أن تضطلع بها الصفحات الثقافية، وخصوصاً في العالم الثالث والدول النامية التي يحتاج فيها الرأي العام احتياجاً ماساً إلى التلقين والتثقيف والإرشاد عبر نشر المواد الأولية التي تندرج في إطار العملية التربوية. وقد يرى البعض الآخر أن الدور الأساسي لأي صفحة ثقافية يقتصر على نقل هذه المعارف الثقافية وتبسيطها ونشرها لتكون ذات أثر مباشر في تعميم مفهوم التنشئة العامة.

لكني أعتقد من جهتي أن المسألة الثقافية عموماً، هي في مكان آخر، وسأضرب صفحاً عن هذا الجدل غير المجدي لأتصدى للقضية من جانب أراه جوهرياً في غمرة التحديات التي تواجه حياتنا الثقافية في العالم العربي.

لا بدّ أولاً من تبديد الالتباس الذي نعرفه معرفة أكيدة لكننا نتغافل عنه ونقع فيه جميعنا. فنحن نسمّي هذه الصفحات صفحات ثقافية ويكون بعضنا يعني شيئاً محدداً في هذه الثقافة، كأن نسمّي الجزء الذي هو الأدب مثلاً باسم الكل الذي هو الثقافة. الأدب والفن والفكر والنقد والفلسفة والجدل العقلي هي عناصر جوهرية في خضم العملية الثقافية الواسعة التي ليس لها حدود، ولا تقتصر على جانب دون آخر. وإذا كانت الصفحات الثقافية تسمّي نفسها كذلك لكنها تولي الشعر والرواية والرسم والنحت والمسرح والفنون الأخرى الاهتمام الأساسي في التغطية الثقافية، دون الجوانب الأخرى، فلأنها تعتقد أنها بذلك تفي عملها حقه وتقوم بواجبها حيال هذا النوع من العمل الصحافي.

أنا أعتقد أن العملية الثقافية هي كل متكامل، وتتصل أولاً وأخيراً بأحوال الخلق والإبداع والفكر والرياضة الذهنية، وبإعمال النقد العقلي في هذه المجالات.

وبقدر ما يقوم عمل الصفحة الثقافية على الكشف عن المضيء والخلاّق في هذه المجالات المشار إليها، بحيث تكون كشّافة مواهب وطاقات، وبقدر ما تواصل احتضان العلامات والكفاءات هنا وهناك، وبقدر ما تتصدى للإشكاليات والأسئلة الثقافية المسكوت عنها، فإن عملها تالياً، ينبغي أن

ينصبّ على بلورة الروح النقدي، وعلى إخضاع كل شيء لسلطان العقل وأسئلته، وعلى إدخال الثقافة النقدية في مجمل نواحي العيش والحياة والتأمل مطلقاً.

أنا من جهتي، أفهم دور الصفحة عملاً متكاملاً، متشعباً، ومركّباً. إنها جهد معرفي خلاّق يتولاه أشخاص معرفيون. وهذا يفتح أمامنا النقاش حول واقع الصفحات الثقافية. فإلى أي حد نحن معرفيون في صفحاتنا الثقافية؟ وإلى أي حد نحن نلاحق المضيء والخلاق؟ وإلى أي حد نحن نفتح نوافذ على الجديد والمغاير والمختلف؟ وإلى أي حد نحن نمارس عملية نقدية معرفية شاقة ومتواصلة، من أجل بلورة مفاهيم معيارية، في كل شيء، لدى الرأي العام؟

هذه الأسئلة تشغلني شخصياً، كمسئولة عن القسم الثقافي في جريدة آلت على نفسها منذ أربعة وسبعين عاماً أن تكون العملية الثقافية فيها جزءاً جوهرياً من مفهومها للعمل الصحافي والإعلامي، وللعمل السياسي والمجتمعي والفكري والإبداعي، إيماناً منها بأنها صاحبة دور تاريخي في هذه المجالات كافة. وخصوصاً في نشر ثقافة الحداثة والحرية والسؤال والخلق والنقد والعقل.

يشغلني أيضاً أن انتمائي إلى بلدي، إلى هذا البلد بالذات، الذي هو لبنان، بما هو وطن ثقافي ومختبر للأسئلة وللاختلاف والتنوع والثقافات والحضارات والإبداعات، علّمني ألاّ أكتفي بتغطية ما يجري فيه، وعلّمني أن همّ الحداثة هو همّ بنيوي يندرج في صميم العيش وجوهر الوجود، ولا يكتفي من الحداثة بما هو أدبي وفني وحياتي فحسب. وعلّمني الإرث الثقافي للبنان هذا أن أكون معنية إلى أقصى الحدود بما يجري في العالم العربي وبما يعتمل في دواخله من أسئلة ثقافية وحضارية، وعلّمني أيضاً أن أكون معنية بما يتحرّك ويتحوّل في العالم كله، وبما يطرح من أسئلة وما يفور من جدل ونقاش، في كل المسائل وعلى كل المستويات.

إذا كان للصفحات الثقافية فرصة ما في تكوين أثر حقيقي وراسخ في الرأي العام، فينبغي لها في الدرجة الأولى أن تعكس رؤية وموقفاً ومنهجاً مسئولاً وموجّهاً، أي ألا تكتفي بتقديم تغطية نقدية «وديعة» لشئون الخلق، بل أن ترشد القارىء وتثير القضايا وتخترع الحدث. ويتحقق ذلك بناء

علـى قاعدة مهنيـة وأخلاقية وفكرية تكون مزيجا مـن المعرفة والرصانة والجرأة في آن واحد: معرفة تعكس الإلمام العميق بشـئون الخلق والمتابعة المتواصلة لقديمه وجديده، رصانة طالعة من جدّية المعالجة ورغبة الاطلاع وبُعـد النظر، وجرأة موقـفٍ تكون موضوعية وفي محلّهـا، من دون تجنٍّ أو افتعـال مجاني، مما يتيح للصفحة الثقافيـة أداء الدور المطلوب منها، وتحقيـق حضـورٍ فاعل في الرأي العـام، لا الرأي «المثقف» فحسـب، بل «الشـعبي» أيضاً إلى حد ما. ويتلخّص جوهر هذا الدور في إثارة الأسئلة ومحاولة تقديم إجابات عنها، وهو دور لا يزال متفاوت الحضور في غالبية الصفحـات الثقافية العربية. وتحـول دون أداء هذا الـدور عموماً نقاط الضعف الآتية:

أولا: غيـاب الحافز وحس المسـئولية، وأداء العمل الثقافي كـ«وظيفة» بحتة بمعزل عن أي شغف أو هواجس.

ثانيا: النقص في الأهلية والكفاية والجدارة لدى البعض.

ثالثا: النقص في الإمكانات المادية المتاحة للقسم الثقافي.

رابعـا: وخصوصاً: تراجع المعيار الأخلاقي في النقد وتفشـي المحاباة والتملّق والنفاق والانتقام والمحسوبية والجبن والعشائرية و«بيع» المقالات التقريظية لجني مصالح خاصة.

لذلك يجب أن نسـعى في الدرجة الأولى إلى تحقيق شـروط «إيقاظ» صفحتنـا الثقافية وهزّها وإنهاضها من كبوتها، بـدءا من إثارة الحوافز، وتقـويم طريقة توزيع المهمات والمسـئوليات، والمسـاهمة فـي «التأهيل» المنهجي لأسـلوب العمل، والاسـتقبال الدائم لعناصر جديدة شابة وكفيّة بهدف «تغيير دماء» القسـم، والاسـتعانة الموزونة والمدروسة بمقالات من بلـدان أخرى، لكي نمنـح القارئ فكرة عما يجـري ثقافيا خارج محيطه المحلي، ونتمكّن بذلك من مرافقة الحدث أولا، واختراعه ثانيا.

أما مرافقة الحدث الثقافي، فمن الضروري أن تتحلّى ببساطة الجوهر. أي أن تخاطب القارئ بأسـلوب واضح وعميق فـي آن واحد، «متواضع» ومباشر، وأن تتخلّى عن الإنشائية والفوغائية وتغليف اللغة النقدية بالغموض والالتباس وتقنية «الكتابة على الكتابة»، وكذلك عن العشـوائية و«تمسيح الجوخ» والتبخير وإطلاق الأحكام الجائرة (سلبا وإيجابا)، وذلك لكي نعيد

الاعتبار إلى المعيار النقدي فـي مقاربة الموضوعات الأدبية والفنية وطرح الأسئلة حولها. وقضية طرح الأسئلة هذه مهمّة بدهية ملازِمة للكتاب الذي نقرأه، وللمعرض والمسـرحية اللذين نشـاهدهما، وللعمل الموسيقي الذي نستمع إليه، وللقضية التي نعطي رأينا فيها.

أيضًـا، ينبغي ألا تكتفي الصفحات الثقافية في رأيي بالحضور النقدي وبمرافقة النشاطات الراهنة في الأدب والرسم والمسرح والموسيقى وغيرها. وبطرح مسـألة أو إثارة جدل أدبي أو فني أو فكري أو أكاديمي أو فلسفي. وباغتنام ذكرى معيّنة للحديث عن كاتب أو شـاعر أو موسـيقي أو رسّـام راحل، وبإلقاء الضوء في شـكل منهجي ومنتظـم على الجوانب الحيّة من تراثنـا الفني والأدبي والفكري، وبإجراء مقابلات وتسـجيل رأي أو موقف معـيّن من قضية راهنة أو كتاب لافت أو حـدث مهمّ... إلخ. فهذه كلها من «بدهيات» العمل الثقافي وروتينه. بل ينبغي للصفحات الثقافية أن تحرّض كذلك على نشـاطات ومناقشات خلّاقة من شأنها تحريك الحياة الثقافية فـي المدينة. ويتحقّق ذلك من خـلال إثارة قضايا أدبية وفنية وفكرية ذات بعـد ثقافـي - مجتمعي تهمّ إنسـان اليوم. ولا يمكن تحقيـق ذلك إلا إذا كنّـا مزوّدين بالمعرفة اللازمة والبحث المسـبق والتطلّع إلى الأمام والجرأة الموضوعية، وأحيانا أيضا «الوقاحة» المبرّرة حيال بعض المسـلّمات الأدبية والفنيـة والفكرية القائمة، لكـي تواكب الصفحة الثقافيـة تطوّر العصر وتخرج من هـوّة الجمود والتكرار وتتمكّن مـن مخاطبة الأجيال الجديدة و«إحياء» حياتنا الأدبية والثقافية بحقّ.

أخيرا وليس آخرا، ينبغي للصفحة أن تكون أكثر شمولية وتنوّعا وأفضل تمثيلا للشـئون الثقافية المحلية والخارجية على حد سـواء، وهي مسألة تهمني في شـكل خـاص وأحاول أن أحرص عليها فـي صفحة «أدب فكر فن» في «النهار». فأنا أؤمن بضرورة جعل الصفحة منبرا رحبا، وشـموليا بقـدر الإمكان، يعكس التنوّع والتعدّد ويثير الفضول ويرويه على السـواء. وبيتاً لأسـماء عربية وعالمية راسـخة، كما للتجارب الواعدة عند الأجيال الشابة. إنني مقتنعة بأن من المهم للغاية تغطية العالم العربي والأجنبي «من الداخل»، آخذة في الاعتبار عاملي التنويع والتوازن (أي اجتناب تخصيص كتلـة كاملة لاختصاص معيّن، بل توسّـل التنويع لكـي يجد كلّ ذي اهتمام

ثقافي ما يرضيه، وكذلك اجتناب التركيز على نشـــاطات منطقة أو بلدان على حساب أخرى مهملة). هذه التقارير المكتوبة من داخل البلدان العربية والأجنبية تهدف إلى نقل مشاهد حيّة من الحياة الخلاّقة فيها: الإصدارات والنزعات الجديدة، حضور اللغة والثقافة، مسائل جدلية راهنة... إلخ. من المهم أيضا اختيار كتّاب أجانب غير معروفين على نطاق واســع وتقديمهم وتقديم أعمالهم، مما يمنح القارىء قاعدة معلومات أولية وتمهيدية، يمكنه أن يوسّعها بدوره فيما بعد مختاراً من الكتّاب أولئك الذين يثيرون اهتمامه (وهنــا يتجلى دور الصفحة الثقافية فــي التحريض على المعرفة)، على أن يتم ذلك كلّه خصوصـــا بناء على معيار معرفي ونقدي أكثر صرامة وجرأة وجديّــة: أي عدم الاكتفــاء بالمواكبة بل العمل على تشــكيل ضمير نقدي متبصّر وشجاع ومشـــرّف، يكافىء عند الضرورة ويعلن الرأي المضاد عند اللزوم، يسائل ويتحدّى ويواجه ويحاسب و«يُحسَب له حساب».

فضلا عما ســبق، هناك أيضا عاملان أراهما جوهريين في زمننا هذا: الأول هو ضرورة إدخـــال التطور التكنولوجي في صلب الصفحة الثقافية، على غرار ما نفعله مثلا في «النهار» من تخصيص زاوية للأدب الالكتروني تلقي الضـــوء كل مرة على موقع ثقافي جديد علـــى الانترنت، وأيضا عبر طـــرح موضوعات وقضايا موصولـــة بالعصر الحديث، مثـــل أدب الخيال العلمـــي، والكتاب الالكتروني...، إلخ. فضــــلا عن ضرورة توجيه المحررين إلـــى كتابة مقالاتهم على الكومبيوتر لما فيــــه من منهجية مماثلة من فوائد عملية أبرزها عنصر توفير الوقت.

أمـــا العامل الثاني فهو طريقة إخراج الصفحـــة الثقافية، التي نادرا ما تُعطى الاهتمام الذي تســـتحقه، فـــتبدو الصـــفحات ككشـــكول متاهيّ أو كـ «صحن ســـلطة» يغرق فيـــه القارىء ويضيع. نحن يا ســـادة في زمن الصـــورة والعين، ومن المهم جدا أن يرافق الشـــكل المضمون ويبرزه. لذلك أحرص شـــخصيا على الاعتناء بإخراج الصفحة وطريقـــة تركيبها العامة بهدف جعلها أكثر ترتيبا وتنظيما وأفضل تقســـيما وجاذبية (مما قد يلفت عـــين القارىء ويؤمّن الراحة لها بعيدا عن العشـــوائية والفوضى المتعِبتين، ويبرز الموضوعات ويسهّل عملية الاستدلال إليها).

ختاما، سوف أســـتعرض سريعا بعض الخطوط العريضة والموجزة حول

مفهومي الخاص لدور المسئول عن الصفحة الثقافية، لكي يكون لها حضور أكثر فاعلية في حياتنا العامة، علما أن نجاح مهمة كهذه يرتبط في الدرجة الأولى لا بالعمل الفردي بل بالجهود الجماعية المبذولة على كل الأصعدة:

* إبداء موقف أدبي مسئول وشجاع وذي حضور، يجسّد دور الصفحة في الحياة الثقافية المعاصرة.

* تصميم خطة عمل الأسبوع وتنسيقها.

* توزيع المهمات المتعلقة بالزوايا الثابتة.

* الإشراف على صدقية المقالات كي لا تتعارض مع سياسة الجرأة الحكيمة التي ننادي بها.

* إجراء الاتصالات اللازمة محليا ودوليا لتغذية الصفحة ودعمها وجعلها منبرا للتنوّع واجتناب التحيّز والشللية.

* المتابعة الدقيقة والحثيثة للصفحة شكلا ومضمونا.

* الاطلاع المتواصل على الحياة الأدبية والفنية، اللبنانية والعربية والعالمية، لتوجيه الزملاء إلى مواكبة الحدث المناسب.

* تنظيم لقاء أسبوعي مع جميع أعضاء فريق العمل بغية استنباط أفكار جديدة وإثارة الحوافز وتبادل الآراء (Brainstorming)، بالإضافة إلى لقاءات دورية مع كلّ من الزملاء على حدة لمتابعة نشاطهم.

* توطيد العلاقات مع المؤسسات والمراكز الأدبية والثقافية في لبنان والخارج.

أنا أفهم دور الصفحة الثقافية على هذا النحو المعقّد والمركّب، وعندما تأخذ الصفحة على عاتقها مثل هذه المسئوليات، فإنها تكون بذلك تتحدى ذاتها باستمرار، وتبحث دائماً عما يجعلها تتخطى ذاتها ولا تكتفي بها، وهي بذلك تصنع لنفسها سقفاً ثقافياً عالياً وتفتح بيتاً يستقبل مختلفين واتجاهات ومتناقضات، وتناقش وتعالج وتبدي الرأي وتكشف النقاب وتحرّك مناخاً راكداً وتقض المضاجع، فتخلق تدريجياً حالاً من اللقاء الخلّاق المتوالد باستمرار وبتجدد، فتصنع من جراء هذا التراكم مكاناً مادياً ومعنوياً، لا يكون محض منبر وملتقى فحسب، بل يصبح وطناً.

ويهمنّي أن أقول لكم إن عملنا الثقافي في جريدة «النهار»، واعني من بيروت، يجتهد في توليد وطن ثقافي متعدد الهوية والوجه والتوجّه. هذا ما

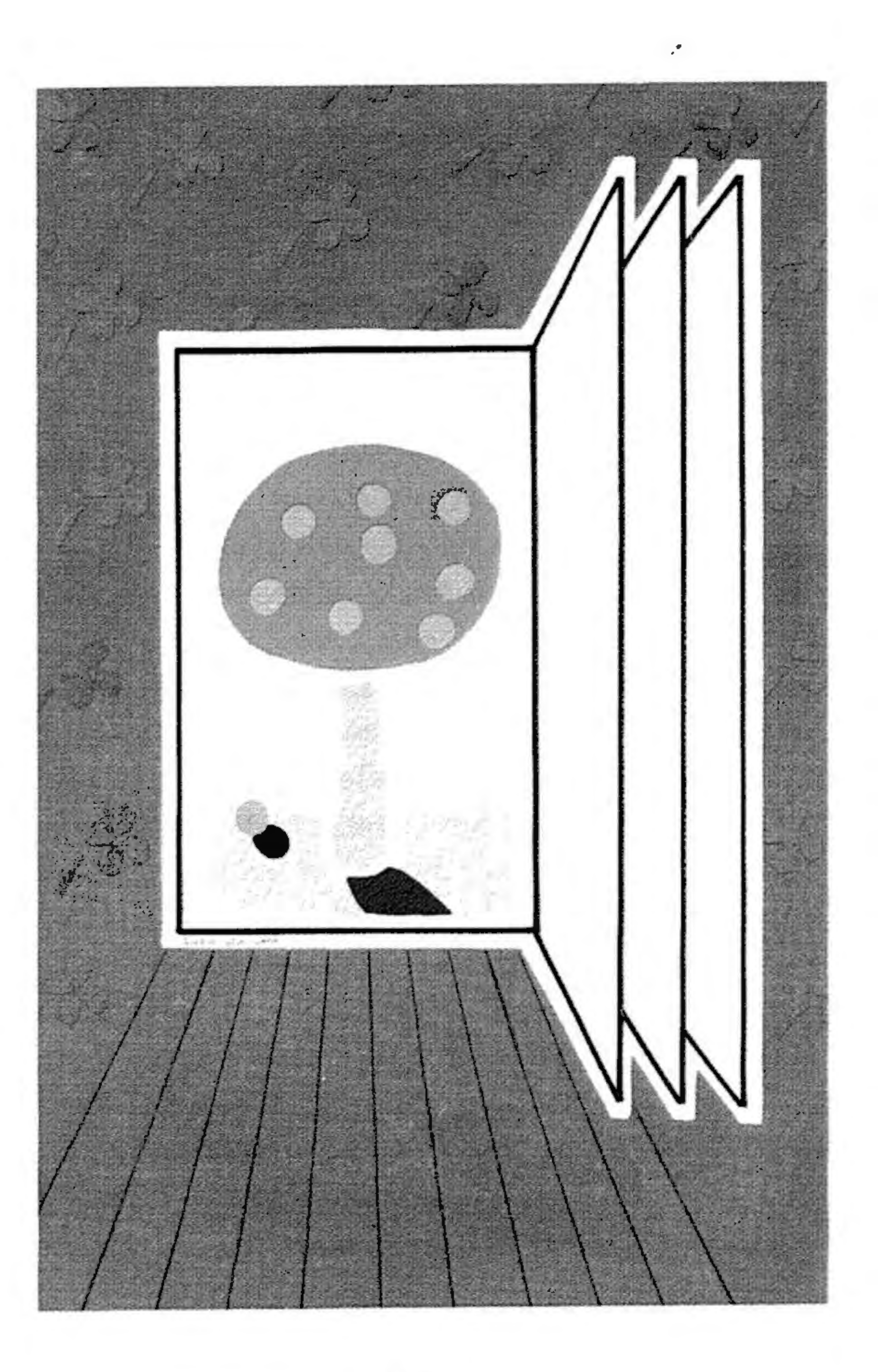
تطمح الصفحة الثقافية في جريدة «النهار» الى أن تنتجه وأن تصنعه يومياً. فهي تضع أمـــام عينيها هذه المهمة: أن تكون مكاناً يلتقي فيه الأدب والفن والفكر والســؤال النقدي من الأرض المحلية ومن الجوار ومن أنحاء العالم. لبلورة عملية تلاقح خلاق تنجب جيلاً خلاّقاً من المواطنين والقراء.

من هم مواطنو هذه الصفحة الثقافية - الوطن؟ إنهم مواطنون يتصفون بهوية مضافة، هي الهوية الثقافية الإنســانية التي تتخصص بتلقي المعرفة الخلاّقة واستيعابها وبلورتها في نشر عملية تلاقح (تسميم) ثقافي تطاول هذا الرأي العام الذي يتحدث عنه سؤال هذا اللقاء.

هــذه هي الصفحة الثقافية التي نصنعها يومياً في بيروت. فنحن نطمح بتواضع إلى أن نكون صفحة تشبه العاصمة الثقافية وتشبه الوطن الثقافي، مواطنوه ليسوا فقط الأدباء وأهل الفن بل الرأي العام بكامل نخبه.

في هذا المعنى لا تعود الصفحة الثقافية مجرد منبر سهل وفي المتناول. إنهــا مختبر. ومن طبيعة المختبر أن يكون بيت الذات والآخر في آنٍ واحد. وأن يكون منفتحاً ورحباً ومتعدداً ومتنوعاً. وألاّ يكتفي بنفســه. وألاّ يطمئن إلى ما هي عليــه هذه النفس. بحيث يصنع مناخاً تتوالد فيه حيوات ليس في الضرورة أن تكون مستنســخة ومتآخية بــل خصوصاً كثيرة ومختلفة. وفـــي المختبر تتفكك الحيوات الخاصة وتنحلّ في مياه بعضها البعض، من دون أن تفقــد ماهياتها وجواهرها، لتصير كائنــات جديدة، هي الكائنات الأولى لكن مضافاً إليها كل ضوء وخلق جديدين.

في غمرة ما يتهــدد الأوطان، وخصوصاً ما يتهدد وطني الصغير لبنان، من أخطار وتحديات، أخذنا على أنفسنا في صفحتنا الثقافية أن نشيّد لنا وطناً لا يســتطيع أيّ خطر أن ينــال منه: إنه وطن الثقافة والخلق والبحث والحرية والسؤال والانفتاح على الآخر. ولا يستطيع أي طغيان، مهما بغى، أن ينال منه في شيء.



## المحور الرابع

# المجلات الثقافية في مصر محاولات التحديث والتأصيل


- صلاح عيسى
- عز الدين نجيب
- احمد عبدالمعطي

# الدوريات الثقافية ومشروع النهضة العربية

صلاح عيسى *

## ١- عن الدوريات الثقافية

يأخذ التعريف القانونى للصحيفة بوحدة العنوان ودورية الصدور، ويعتبر كل مطبوع يصدر بعنوان ثابت وبشكل دورى صحيفة، حتى لو كان لمؤلف واحد.

وفى هذا السياق فإن المجلة الثقافية، هى المطبوع الذى يجمع بين هذين الشرطين، فيصدر بشكل دورى - اسبوعى أو شهرى أو فصلى - وباسم واحد، ويتخصص - فضلا عن هذا - فى المسائل الثقافية.

وتنقسم الدوريات الثقافية من حيث التخصص - إلى نوعين، الأول: هو المجلة الثقافية العامة، التى تهتم بكل الأنواع الثقافية، فتجمع بين الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.. والثانى هو المجلة الثقافية المتخصصة، كالدوريات الأدبية التى تركز اهتمامها على الأدب وحده، أو على فرع منه، كالشعر أو القصة أو النقد الأدبى، والدوريات الفنية التى تهتم بالفنون أو بفرع أو أكثر منها، كالسينما والمسرح

* كاتب من مصر.

والتليفزيون والفنون التشكيلية والدوريات العلمية، التى تتخصص فى العلوم أو فى احدها كالطب والزراعة وعلوم الفضاء..الخ.

وفى إطار هذا التعريف يمكن القول إن «روضة المدارس المصرية» التى أصدرها «رفاعة الطهطاوى» بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٧٨ هى أول دورية ثقافية عربية وأن أقدم هذه الدوريات التى لا تزال تواصل الصدور حتى الآن، هى «الهلال» التى وصل عمرها هذا عام ٢٠٠٦ إلى ١١٤ سنة.

كما يمكن فى الإطار ذاته أن نرصد بعض الملاحظات العامة التالية ذات الصلة بموضوع هذه الورقة:

الأولى: أن الدوريات الثقافية كانت فى الأغلب الأعم صحافة نخبة .. تتوجه إلى عدد محدود من القراء مع استثناءات قليلة، لعل من أبرز ما درس منها، مجلة «الرسالة» التى أصدرها أحمد حسن الزيات بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٥٢ والتى شهدت رواجا وصل بتوزيعها فى سنوات صدورها الأولى إلى عشرين ألف نسخة أسبوعيا، وهو رقم كبير جدا بمقاييس توزيع الصحف فى تلك السنوات، ولعل من أبرز الدوريات التى حققت رواجا ملحوظا ولا تزال تواصل الصدور مجلة «العربى» التى ارتفع عدد المطبوع منها فى بعض مراحل حياتها إلى ما يجاوز المائة ألف نسخة .

الثانية: إن متوسط أعمار الدوريات الثقافية كان ينحو تدريجيا نحو الانخفاض، مما يدل على انكماش سوق قرائها، ومع أن بعضها قد واصل الصدور بانتظام لعدة عقود كان من أبرزها «المقتطف» التى استمرت تصدر لمدة ٦٧ سنة -بين ١٨٨٥ و ١٩٥٢- إلا أن بعضها الآخر لم يعش سوى سنوات قليلة، ومنها «السفور» (١٩١٥ - ١٩٢٥) و«الفجر» (١٩٢٥-١٩٢٧) والسياسة الأسبوعية التى لم تعش كمجلة ثقافية سوى أربع سنوات تحولت بعدها إلى مجلة سياسية عامة، بل إن بعضها مثل «الغد» لم تنتظم فى إصدارها الأول (٩٥٣-٩٥٤) إلا لثلاثة أعداد وهو ما حدث فى إصدارها الثانى (١٩٥٩)

الثالثة: أن الدورية الثقافية ظلت حتى النصف الأول من القرن العشرين من حيث الملكية مشروعا اقتصاديا فرديا يعتمد على حماس أصحابه للقيام بدور ثقافى أو إبلاغ رسالة مما يدفعهم لتحمل مخاطرة تمويله على الرغم من أنه لم يكن يحقق إلا هامشاً محدوداً من الربح،

ويعتمــدون فى ذلــك على جهود تطوعية أو شــبه تطوعيــة من الأدباء والكتــاب والمثقفــين الذين كانوا يســاهمون فى تحريرهــا بلا أجر أو مقابل مكافآت رمزية، وعلى موارد أخرى محدودة منها بعض الاعلانات التجارية ودعم حكومى يتمثل فى اشتراك بعض الهيئات الحكومية بعدد من النسخ توزعها على العاملين فيها أو تودعها فى مكتباتها وعلى حصة من الإعلانات القضائية التى يفرض القانون على أصحابها نشرها على نفقتهم مثل «البيوع الجبرية» و«التفليســات»، وكان القسم الأعظم منها هو إعلانات «فقد الأختام» التى كانت الدوريات الثقافية تنشــرها عادة فى صفحتها الأخيرة فى إشــارة غير مقصــودة، إلى أن الأمية هى أحد أســباب عجز أصحاب هذه الدوريات عن العثور على قارىء يضمن لها مواصلة الصدور.

وبســبب مصارع الدوريات الثقافية تحت وطأة العجز المالى وانكماش ســوق قرائها الذى وصل إلى ذروته بتوقف مجلتى «الرسالة» و«الثقافة» عن الصدور عامــى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ دخلت الحكومات العربية إلى مجال إصدارهــا الدوريــات الثقافيــة باعتبارهــا الأقدر علــى تحمل نفقات وخســائر هذا النوع من المطبوعات، فصدرت مجلة «الرسالة الجديدة» -١٩٥٤- لتحل محل «الرســالة» عن «دار التحرير للطبع والنشــر» وهى دار الصحافة المملوكة - آنذاك- للدولة لتحل محلها بعد خمس ســنوات مجلة «المجلة» التى صدرت عن وزارة الثقافة المصرية عند انشــائها فى عام ١٩٥٨ وتتالت منذ ذلك الحين الدوريات الثقافية التى تصدر بتمويل مباشر أوغير مباشر من الحكومات العربية حتى كادت الدورية الثقافية المملوكة ملكية خاصة تختفــى وإذا صدرت لا تعيش طويلا. وكان لذلك - بالطبع- جوانبه الإيجابية القليلة وجوانبه السلبية الكثيرة.

الرابعــة : أن الطابع الغالب علــى الدوريات الثقافية التى صدرت فى الأقطــار العربية هو طابع المطبوعة الثقافية العامة التى تهتم بكل فروع الثقافة، وتجمع بين الاهتمام بالعلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. ومع أن الدوريــات الثقافية المتخصصة فى أحد هــذه الفروع كانت من بواكيــر المطبوعات الثقافية فإن الغلبة فى عــدد العناوين ظل للدوريات العامة وهو ما اضطر «المقتطف» التى صدرت فى البداية كمجلة ثقافية

تهتم بالعلوم وحدها إلى توسيع نطاق اهتماماتها لتشمل الآداب والعلوم الاجتماعية وغيرها من الأنواع الثقافية.. بحكم أن الدورية الثقافية العامة أكثر قراء.

ومع تطور المعارف والتوسع فى التعليم الجامعى واتساع نطاق التخصص فى العلوم والفنون وبروز الاتجاه فى صناعة الصحافة نحو الاهتمام بالمطبوعات المتخصصة لسد الاحتياجات الثقافية المتزايدة، توسع نطاق تخصص المطبوعة الثقافية العربية فلم تعد تقصر اهتمامها على مجال ثقافى كالآداب أو العلوم والفنون، بل أصبحت تتخصص فى فروع هذا المجال، ففى الآداب مثلا أصبح لدينا مجلات متخصصة فى الشعر وفى القصة وفى النقد الأدبى، وفى العلوم أصبح لدينا مطبوعات تتخصص فى الطب وأحيانا فى فرع منه مثل «الطب النبوى» أو علوم الفضاء أو الالكترونيات، وفى العلوم الاجتماعية أصبح لدينا مجلات فى التاريخ وعلم النفس والاقتصاد.

وتعددت مستويات تخصص المطبوعة من حيث القارىء الذى تستهدفه. فالمجلة «الطبية» مثلا قد تكون عامة تتوجه إلى المرضى، وقد تكون مجلة أكاديمية متوجهة إلى الأطباء وتنشر أبحاثا فى الطب أو فى أحد فروعه لا يستطيع أن يفهمها غير المتخصصين، وتنوعت مجلات الأطفال من حيث الفئة العمرية التى تتوجه إليها فأصبحت هناك مجلات للطفل قبل سن المدرسة وأخرى له قبل سن المراهقة فضلاً عن مجلات تتوجه للفتيات أو المراهقين الصغار ومع تطور الاهتمام بالفنون صدرت مجلات للفنون الشعبية وللموسيقى .

خامسا : ومع أن المواد المترجمة عن آداب اللغات الأخرى كانت - ولا تزال- بعض ما تهتم المطبوعة الثقافية، سواء كانت عامة أو متخصصة، بنشره، فقد برز الاتجاه لإصدار دوريات ثقافية تتخصص فى نشر المواد المترجمة من لغة أو أكثر من لغة، كان من أبرزها مجلة «المختار من ريدرز دايجست» وهى الطبعة العربية من المجلة الأمريكية المعروفة، وقد صدرت من القاهرة بين ١٩٤٤ و ١٩٤٧ ورأس تحريرها «فؤاد صروف» ثم صدرت مرة أخرى بين ١٩٥٦ و ١٩٦٧ برئاسة تحرير «محمد زكى عبدالقادر» ومجلة «الشرق» التى صدرت من القاهرة بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٠

وتخصصت فى نشر مختارات من الثقافة السوفييتية، فضلاً عن مجلات مثــل «الآداب الأجنبية» التى صدرت فى ســوريا و«الثقافة العالمية» التى تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة فى الكويت.

٢- عن المشروع النهضوى العربى

وربما لا يكون العثور على تعريف لـ «مشــروع النهضة العربية» ميسرا بالقدر نفســه الــذى عثرنا به على تعريف تقريبــى للمجلة، أو الدورية، الثقافية، ومع ذلك يمكن القول ـ بشكل تقريبى كذلك ـ بأن هذا المشروع، هو مجموع الأفكار والممارسات والنظم والسياسات التى استهدفت ـ منذ بداية القرن التاسع عشر ـ النهوض بالأقطار العربية من أوضاع التخلف الاقتصادى والاجتماعى والسياســى والفكرى، التى كانت تســودها منذ العصور الوســطى، إلى أوضاع قريبة ممــا حققته الدول الأوروبية، التى عرفت ثورتين ســاهمتا فى تقدمها، هما ثورة البخار والثورة الصناعية، حالــت ظروف الأقطــار العربية ـ التــى كانت معظمها آنــذاك، إيالات عثمانيــة - دون اللحاق بهما، فتدهورت أوضاعها، إلى أن نبهتها صدمة الاحتلال الفرنسى لمصر، إلى مدى ما وصلت إليه من تخلف، واكتشفت ـ عبر مقاومتها له ـ أنها تشكل جماعة وطنية متميزة، عن الكيان العثمانى الــذى كانت تابعة له، وعن بقايا المماليك الذيــن كانوا يتوارثون حكمها، فشــرعت، منذ بدايات القرن التاسع عشر، وبشكل متدرج، فى بناء دول وطنية عصرية، مستقلة وديموقراطية.

ولأن مؤســس المشــروع كان قائدا عســكريا هو «محمد على الكبير»، فقد شكل بناء جيش وطنى موحد يتكون من ابناء البلاد، ويخضع لقيادة الدولــة، بذرته الأولى التــى تفرعت عنها بعد ذلــك كل ملامح النهضة من إنشــاء المدارس المدنية، إلى بناء المصانع ومن شــق الطرق، إلى بناء السفن، ومن تنظيم الرى وإقامة القناطر إلى إرسال البعثات إلى أوروبا، ومــن إلغاء نظام الالتزام إلى اســتصلاح الأراضى البــور وتوزيعها على قــادة الجيش وأعيان البــلاد، ومن تنظيــم الادارة الحكومية، إلى اتباع سياســة اغلاق السوق، ومن إنشاء الترسانة البحرية، إلى إنشاء المطبعة الأميريــة وإصدار الصحف بما فى ذلك المجلات الثقافية إذ كان الهدف من انشــاء كل هذه المؤسســات وتنفيذ كل هذه المشــروعات، هو خدمة

الجيــش، وتوفير ما يحتاج إليه من إمكانات مادية وبشــرية ولوجســتية للقيام بمهمته الأساسية.

ومع أن فائدة هذه المؤسســات لم تقتصر فى عهد «محمد على» على الجيــش وحده، إذ اســتفادت الحيــاة المدنية بجانب منهــا، إلا أن هذه الفائدة تعاظمت بعد هزيمته فى آخر حروبه وتوقيعه معاهدة عام ١٨٤٠ التى قلصت حجم وتسليح الجيش، مما وسع من نطاق نشاط مؤسسات النهضة، وخاصة فى عهد إسماعيل، الذى استأنف العمل فى مشروعها، بالســعى لتأكيد اســتقلال مصر الذاتى، والعمل على تحديث أوضاعها الاقتصادية والفكرية والسياسية، لتكون - كما قال - قطعة من أوروبا: من التوســع فى زراعة القطن وقصب الســكر، إلى إقامة المحالج والمعاصر، وغيرها من الصناعات ومن التوسع فى التعليم وإرسال البعثات، إلى مد خطوط الســكك الحديدية وشق قناة السويس وتوسيع الطرق وتخطيط المدن.. ومن إنشــاء دار الأوبرا، إلى إصدار أول مجلة ثقافية عربية هى «روضة المدارس المصرية».

ولم تكن النكســة التى لحقت بمشروع النهضة فى آواخر عهد محمد على، هى آخر النكســات التــى تلقاها، إذ تعــددت العقبات فى طريقه فعرقلت مسيرته، واضطرته فى بعض الأحيان للتراجع لأسباب. بعضها محلــى يتمثــل فى تجــذر التخلف وما يرتبــط به من تقاليــد وعادات ومنظومات بدوية وريفية للقيم، فضلا عن التطور البطىء لقوى الانتاج، وانتشــار الأمية، وغيرها من العوامل التــى منحت قوة إضافية للتيارات المحافظة المعادية لمشروع النهضة.

ومن بين الأســباب الدولية التى ســاهمت فى إلزام مشــروع النهضة موقــف الدفاع، أن الأقطار العربية، ما كادت تشــرع فــى التخلص من التبعية العثمانية، حتى وقعت أسيرة للاحتلال الأوروبى، وأصبحت ساحة للصراع بين المعسكرات الدولية المتحاربة، خلال الحربين الكونيتين اللتين شهدهما القرن العشرون، ثم خلال الحرب الباردة التى تبعتهما.

وكان أول الذين استفادوا من ذلك، هم المحافظون العرب، الذين ربطوا ربطا متعســفا بين النموذج النهضوى الأوروبى، الذى سعى رواد الحداثة الأوائل للتبشــير به، وبين جيوش الاحتلال الأوروبى التى اجتاحت البلاد

العربية والإسلامية، لينتقل «مشروع النهضة على النمط الأوروبى» . فى وجدان العوام وأقسام من النخبة ـ بفضل دعاية المحافظين النشطة، إلى خانة الأعداء، ويشيع الاعتقاد بأنه «مشروع تغريبى» يسعى لاحتلال الأمة وغزوها ثقافيا .

وكان من الآثار السلبية لذلك اتساع الهوة بين رؤية المحافظين والمجددين العرب لمشروع النهضة ، لنفاجأ فى نهاية القرن العشرين بأننا أمام مشروعين يكادان يكونان متناقضين.

وكان من بين مظاهر الارباك الذى أحدثه الاحتلال الأوروبى للاقطار العربية، لمسيرة مشروع النهضة، نشوب الخلاف بين النخب العربية. حول ترتيب أولويات النهضة، والخلل فى تحالفاتها الذى قادها أحيانا للتحالف مع أعدائها وهو ما نجد نموذجا له. فى الخلاف الذى نشب بين التيار الذى يمثله الزعيم الوطنى «مصطفى كامل» . فى بداية القرن الماضى والتيار الذى كان يمثله ـ فى الفترة ذاتها ـ «أحمد لطفى السيد».

فقد كان مصطفى كامل يرى أن الأولوية فى مشروع النهضة، ينبغى أن تكون لهدف التحرر من الاحتلال حتى لو أدى ذلك للتمسك بالسيادة التركية الشكلية على مصر، أو للتحالف مع حاكم مستبد هو «الخديو عباس حلمى الثانى» - الذى كان ينقم على المعتمد البريطانى أنه جرده من سلطته الديكتاتورية وتصدى لفساده - ومع أن «مصطفى كامل» كان ،كما يقول الأستاذ «غربال»، أول زعيم مصرى يتلقى تعليما مدنيا خالصا ،فقد اضطره حرصه على شعبيته لافساح صفحات «اللواء» للهجوم على دعوة «قاسم أمين» لتحرير المرأة، كما اضطره تحالفه مع «الخديو عباس» لمساندة الشيخ «عبدالخالق السادات» فى الدعوى التى اقامها ضد «الشيخ على يوسف» لأنه تزوج من ابنته وهو غير كفء لها، حرصا منه على الاحتفاظ بـ تأييد العوام والمحافظين لدعوته لجلاء بريطانيا عن مصر، أولا، وقبل أى شىء.

وعلى الجانب الآخر، كان «لطفى السيد» يرى أن الاحتلال جاءت به ظروف دولية مرتبه، وسوف تذهب به ظروف دولية مرتبة كذلك، وأن الأولوية ينبغى أن تكون لمشروع النهضة، بنشر التعليم واصلاح الاقتصاد

وتوســيع اختصاصات وحدات الحكم المحلى، ونشــر الفكــر العقلانى وتحرير المرأة.

ومــن بين مظاهر هذا الارتباك - كذلك- ما لاحظه الأســتاذ «أحمد بهاء الدين» الذى تنبه إلى التناقض فى مواقف أعلام النخبة المصرية فى بداية القرن الماضى من مسألتى الاستقلال الوطنى والتقدم الاجتماعى، إذ رصــد أن الثوريين المتشــددين فى العداء للاحتــلال كانوا يقفون فى معســكر المحافظين اجتماعيا، وأن المعتدلين فى المســألة الوطنية كانوا - علــى الصعيــد الاجتماعى - كانوا مــن الثوريين الذيــن يدعون إلى الاستنارة.

ومــن بينها أيضا أن المشــروع النهضوى العربى بــدأ فى ظل القبضة المركزية القوية للدولة القومية التى أسسها «محمد على الكبير» وأدارها بشــكل فردى على النحو الذى دفع الإمام «محمد عبده» إلى وصفه بأنه «كان مزارعــا ماهرا وصانعا مقتدرا ومحاربا شــديد البأس ولكنه كان لــروح مصــر قاتلا» مدللا على ذلك بأنه «لم يترك رأســا يســتتر فيها ضمير: أنا .. إلا ونقاها عن رأس صاحبها».

ومع أن المشروع شهد - فى مراحل تالية- ارتاء قبضة الدولة المركزية عن عنق النخبة الثقافية إلا أن ذلك لم يترك لهذه النخبة فرصة واسعة للتنفــس بحرية، إذ كان إيقاع النهضــة الاجتماعية والفكرية بطيئا، مما أبقى ظــل المحافظين قائمــا كفزاعة اجتماعية، تعــوض ارتخاء قبضة الدولة، لتظــل النخبة محاضرة بين مطرقتهم وســندان الحكم المركزى خلال سنوات طويلة عادت فى نهايتها قبضة السلطة المركزية لتشتد فى الجولة الثانية من محاولات إحياء مشروع النهضة على عهد تصاعد المد القومى التحررى فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى.

٢- عن دور المجلات الثقافية فى مشروع النهضة

وعنــد أى تناول للعلاقة بين المجلات الثقافيــة والنهضة العربية فى مصــر، أو رصد للدور الذى لعبته هذه المجلات فى إذكاء الروح الوطنية وبلورة الشــخصية القومية خلال القرن العشرين، لابد من التوقف عند عدد من الملاحظات الأساسية.

الأولى: أن الصحافة المصرية والعربية بشــكل عــام لعبت دورا مهما

ومؤثرا فى تخليق مشــروع النهضة العربية خلال القرنين التاســع عشر والعشــرين، وكانت المنبر الذى أذاع من فوقه أعلام هذا المشروع دعوتهم إليه، وتحاوروا مع بعضهم بعضا حول تفاصيله، وحشدوا حوله الانصار، كما كان . كذلك . أهم المنابر التى اعتلاها المحافظون ليقاوموا مشــروع النهضــة ويحولوا دون زحفه وليوجهوا من فوقه ســهام الاتهام بالخروج عن التقاليد والمروق من الملة، للنهضويين العرب، ويحشــدوا الرأى العام فى مواجهتهم.

ويعود السبب فى هذا إلى عوامل من أهمها أن العرب، عرفوا الطباعة والصحافة فى الوقت الذى القيت فيه البذور الأولى لمشروع النهضة فى الأرض العربية، عبر المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسى، لمصر بين عامى (١٧٩٩ . ١٨٠١) التى انتهت بتأسيس دولة «محمد على»، لتكون الصحافة . التى عرفها المصريون عبر ما أصدرته الحملة الفرنســية من صحف ومنشــورات أثنــاء الغزو . إحدى أدوات الدعوة لهذا المشــروع، فتتالى إصدار الصحف فى عهد محمد على وخلفائه. ليتســع تدريجيا هامش الحرية أمامها، ويتسع . بالتالى . تأثيرها. حتى إن العقد الأول من القرن العشرين، شهد تحول ثلاث شــركات تأسست لاصدار الصحف، إلى ثلاثة أحزاب سياســية، ليضاف بذلك إلى مشروع النهضة أحد أهم العناصر التى كانت تنقصه.

ويصعب . فى هذا السياق . وضع حد فاصل بين الدور الذى لعبته فى هذا المجال الصحــف العامة، والدور الذى لعبتــه المجلات الثقافية، إذ ظلت المادة الثقافية تحتل قســما ملحوظا من صفحات الصحف العامة لسنوات طويلة، لأسباب من بينها أن مجتمع قراء الصحف ظل مقصورًا خلال تلك الســنوات على النخبة المثقفة فى بلاد عربية كانت تســودها الأمية الألفبائية والثقافية، فضلا عن أن الركود السياسى فى مجتمعات مغلقــة، لم يوفر للصحف العامة، مادة إخبارية فى الشــئون السياســية والاقتصادية تشــغل صفحاتها.. فخصصت قســما منها للمواد الأدبية والثقافية.

ولا يخلــو من دلالة، أن أول صحيفــة عربية، وهى «الوقائع المصرية». التى أصدرها محمد على عام ١٨٢٨ . كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين،

أحدهما لنشر قرارات الوالى وأخبار الدولة، والثانى «القسم الأدبى» الذى كان ينشر فصولا من كتب التراث، ثم تطور بعد ذلك لينشر مقالات فى الفكر السياسى والاجتماعى، خاصة بعد أن أسندت رئاسة تحريرها إلى عدد من أعلام النهضة العربية، كان من بينهم «رفاعة الطهطاوى» و«أحمد فارس الشدياق» و«حسن العطار» و«صالح مجدى» والشيخ «محمد عبده»..

ومن مظاهر تداخل تاريخ ودور كل من الصحف العامة والمجلات الثقافية أن عددا من مشروعات إصدار صحف عامة بدأت كمشروع ثقافى، فقد صدرت «المقتطف» فى بيروت عام ١٨٧٦ كمطبوعة شهرية ثقافية، قبل أن ينتقل بها أصحابها إلى القاهرة عام ١٨٨٥، ليصدر أحد أصحابها الثلاثة، وهو «شاهين مكاريوس» عام ١٨٨٦ مجلة ثقافية شهرية أخرى هى «اللطائف». وفى عام ١٨٨٩ أصدر الفرسان الثلاثة «المقطم». كجريدة «يومية سياسية تجارية أدبية»، وبرر. فارس نمر. الذى أدار تحريرها، إصدار هذه الصحيفة العامة، بأنه كان «ثمرة البحث عن إيجاد الوسائل الكفيلة بإدارة حركة مطبعة «المقتطف» لنستعين به على سد نفقاته ونفقاتنا لأن اصدار «اللطائف». الأدبية. لم يحقق هذا الغرض».

وكانت «المؤيد». أحد أهم وأكبر الصحف اليومية السياسية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. هى الخطوة الثانية فى مشروع صحفى بدأه صاحبها «على يوسف» عام ١٨٨٧ باصدار اسبوعية ثقافية هى مجلة «الآداب»، ظلت تصدر لمدة عامين قبل أن تترك الساحة لمشروع الصحيفة اليومية.

ومن الشواهد على هذا التداخل بين تاريخ ودور الصحف السياسية العامة، والمجلات الثقافية، فى التبشير بمشروع النهضة، أن بعضها حرص على أن يصدر أسبوعيات يخصصها للشئون الثقافية، وكانت «المؤيد» من أوائل الصحف التى لجأت إلى ذلك، إذ أصدرت عام ١٩٠٧. وبعد ١٨ سنة من صدورها. مجلة ثقافية هى «المؤيد الاسبوعى» التى استمرت تصدر لمدة ثلاث سنوات.

ومن أبرز الأسبوعيات الثقافية التى صدرت عن صحف يومية

«السياسـية الاسـبوعية» . التى أصدرها «د محمد حسين هيكل» . عام ١٩٢٦ ـ عن جريدة «السياسـة» . و«البلاغ الاسـبوعى» التى صدرت فى العام نفسه عن جريدة «البلاغ» هذا فضلا عن ملاحق ثقافية كانت توزع مع بعض الصحف اليومية، فى أحد أيام الاسـبوع، من أشـهرها «ملحق الجمعـة» الذى أصدرته جريدة «الأهرام» فى سـتينيات القرن الماضى، وتبعتها صحف عربية أخرى كثيرة.

والحقيقـة أن الصحـف العامة ظلت خلال النصـف الأول من القرن العشرين، تكاد تكون ـ من حيث التخصص ـ صحفا نصف إخبارية/ نصف ثقافية، إذ كانت تفرد قسـما مهما من صفحاتهـا للمواد الثقافية، ربما يصل إلى النصف، تشـمل صفحات لـلأدب والفكر والصناعة والزراعة والفكر السياسـى والاجتماعى والتاريخ وشئون الاجتماع وقضايا المرأة، كمـا كانت كل منها تحرص على اسـتكتاب كبار الكتـاب والمفكرين من أعلام النهضة فى كل هذه المجـالات، وتتنافس فى دعوتهم للكتابة على صفحاتها، بل إن ضيق صفحات «السياسة اليومية» عن استيعاب كتابات الحشد الكبير من كبار الكتاب الذين اتخذوها منبرا للتعبير عن آرائهم، مع حرصها على نشر كتاباتهم، كان وراء تفكير «د محمد حسين هيكل» فى إصدار «السياسة الأسبوعية» كمجلة ثقافية مستقلة.

فضـلا عن ذلك فإن الصحف العامة لم تكن تبخل على المواد الثقافية بصدر صفحتها الأولى، بل كانت تخصصها فى كثير من الأيام، لدراسات جادة، ومتسلسـلة فى الأدب، واللغة والعلوم والقانون والطب والاجتماع والآثار. أو لعرض الكتب والأفكار الحديثة، فضلا عن القصائد الجديدة لأعلام الشعراء العرب المعاصرين، مثل «شوقى» و«حافظ» و«مطران».

والحقيقـة أن الفصـل الحاد بين الدور الذى لعبتـه الصحف العامة، والمجلات الثقافية فى التبشير بمشروع النهضة قد ينتهى بنا، إلى إهمال تأثير بعض أعلام النهضة، إذ يصعب معه أن نجد أثرا لرجل مثل «أحمد لطفى السيد» فى مشروع النهضة، لأن جهوده فى هذا الصدد، اقتصرت على ما كان يكتبه، أو ينشـره لغيره مـن تلاميذه على صفحات صحيفة يوميـة عامة، هى «الجريدة» بينما لا نجـد له أثارا كافية على صفحات الدوريات الثقافية التى عاصرته.

ومع التطور فى أوضاع المجتمعات العربية سياسيا واجتماعيا خرجت من حالة الركود التى كانت تسودها، فتدفقت المادة الاخبارية على الصحف العامة، ومع دخول شرائح جديدة ممن تلقوا تعليما متوسطا إلى سوق قراء الصحف، بدأت هذه الصحف تركز على النواحى الاخبارية، باعتبارها الوظيفة الأساسية لها، وتسعى لتوسيع نطاق قرائها، باستقطاب اشباه المتعلمين عبر تبسيط لغتها واهتماماتها، لتتراجع المادة الثقافية وتنحسر تدريجيا عن صفحاتها، وعبر رائد هذه الاتجاه «محمد التابعى» عن موقف أصحابه فى افتتاحية العدد الأول من صحيفة «المصرى» عام ١٩٣٦، التى أعلن فيها أن مهمة الصحف هى تزويد القارئ بالأخبار، ومتابعة ما يهمه من شئون، وأن عهد نشر قصائد «شوقى» و«حافظ» و«مطران» و«الزهاوى» فى الصفحة الأولى للصحيفة قد انتهى إلى غير رجعة، وأنه لن ينشر فى الصفحة الأولى من «المصرى» أية قصيدة، حتى لو كانت لـ «ابو تمام» أو «البحترى».

ومن البديهى أن المجلات الثقافية لم تكف خلال تلك السنوات . وما بعدها . عن التبشير بمشروع النهضة.

ومن الصحيح أن قراء الصحف العامة . خلال المرحلة التى كانت فيها «نصف إخبارية/ نصف ثقافية» كانوا . أساسا . من النخبة..

لكن من الصحيح . كذلك . أن تحول الصحف العامة إلى صحف شعبية، وتراجع تأثير المجلات الثقافية، قد حرم مشروع النهضة من دعم غير منكور، كانت الصحف العامة تساهم به. على العهد الذى كانت تفتح فيه صفحاتها لمناقشات جادة . وحادة . من نوع المعارك الفكرية التى دارت حول كتب مثل «تحرير المرأة» لقاسم أمين، و«الاسلام وأصول الحكم» لعلى عبدالرازق، و«الشعر الجاهلى» لطه حسين.

# المجلات المصرية والسلطة بين الصراع والاستقلال والتبعية

عزالدين نجيب *

نبذة تاريخية:

إذا كان تاريخ أول مجلة دورية جامعة في مصر يرجع إلى عام ١٨٢٨ - وهو عام صدور «الوقائع المصرية» في عصر محمد علي - فإن تاريخ أول مجلة ثقافية هو عام ١٨٧٠ حين صدرت «روضة المدارس المصرية» التي أسسها رفاعة الطهطاوي، أول مصري يطل على الثقافة الأوربية ويعمل على نقلها إلى القارئ المصري والعربي، وأسند رئاسة تحريرها إلى ولده علي فهمي، وكانت معنية أساسا بالشعر والأدب، وبترجمة بعض الأصول والفروع من فكر الفرنجة وآدابهم وقوانينهم وسلوكياتهم إلى العربية، استطرادا لما أورده الطهطاوي في كتابه ذائع الصيت «تخليص الإبريز في تلخيص باريس».

ويمكن القول إن «روضة المدارس» هي الأم الشرعية لعشرات المجلات الثقافية التي توالت بعدها مثل: «المقتطف» لصاحبها يعقوب صروف وفارس نمر ١٨٧٦، و«الهلال» التي أصدرها جورجي زيدان ١٨٩٢، و«المجلة المصرية» لأنطون الجميل ١٩١٠، و«البيان» لعبد الرحمن البرقوقي ١٩١١، و«الفجر»

* كاتب وفنان تشكيلي من مصر.

١٩٢٥، و«الشاعر» ١٩٣٠ و«المجلة الجديدة» ١٩٢٨، و«أبوللو» ١٩٣٢، و«الرسالة» ١٩٣٣، و«مجلتي» ١٩٣٤.

وفي خضم الحرب العالمية الثانية - التي كانت مصر مسـرحا لبعض فصولها - صدرت عدة مجلات أخرى حول الأدب والفن والفكر، منها «الرسـالة» لأحمد حسـن الزيـات ١٩٣٩، و«التطور» لأنور كامـل ١٩٤٠، وفي عـام ١٩٤٢ أصبح الفنان رمسـيس يونان سـكرتيرا لتحرير «المجلة الجديـدة» التي كان يصدرها المفكر سـلامة موسي، ثم أصبح يونان رئيسا لتحريرها عام ١٩٤٣، وقد أفردت مسـاحات أكبر للفنون التشـكيلية، لكنها ربطت بين الفن وبين مختلف القضايا الفكرية والسياسـية والإبداعية، من منظور ثوري معارض للنظام الاسـتبدادي ولسيطرة الإقطاع ورأس المال، الأمر الذي آدي إلى توقفها عام ٤٤ بأمر عسكري ، وإلـى ملاحقة البوليس لرئيس تحريرها حتى هرب من مصر عام ١٩٤٥. أما أول مجلة متخصصة في الفنون التشـكيلية بشـكل كامل فكانت «صوت الفنان» لمحمد صدقي الجباخنجي ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢.

وبعـد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ظهـرت مجلات ثقافية عديدة مثل: «الرسـالة الجديدة»، «الوطن»، «الشـهر»، «الكاتب»، «الفكر المعاصر»، «القصة»، «الشعر»، «المسـرح»، «السـينما»، «الثقافة الشـهرية»، «الفنـون»، «سـنابل»، «فصول» - والأخيرة فصلية - «القاهرة»، «إبداع»، «الشموع»، «العصور الجديدة»، «سطور»، «أدب ونقد»، وجميعها شـهرية، ثم «أخبار الأدب» و«القاهرة» وهما أسبوعيتان، وأخيرا «المحيط الثقافي» الشهرية، و«فنون مصرية» الفصلية اللتين صورتا أوائل الألفية الثالثة، و«ضاد» التـي صدرت عن إتحاد الكتاب، و«بورتريه» المتخصصة في الفنون التشكيلية، وقد صدرتا ٢٠٠٦.

### توجهات وغايات

غيـر أن هذه القبيلة المتلاحقـة الأجيال والمتعددة الألـوان والأطياف، تتعدد كذلـك في التوجهات والغايات، ما بـين التنوير والتأصيل والتغيير، لكنها جميعا - بشـكل أو بآخر - تدخل في علاقة مع السـلطة الحاكمة، بين التبعية الكاملة أو التناقض أو الصراع أو السير على الصراط المستقيم... إن بالحياد أو التقية، وفـي كل الحـالات - وفيما عدا المجلات المملوكة للدولـة - فإن جميع المجلات الأهليـة تضع هذه العلاقة نصب عينيها، أيا كانت غاياتها بين التنوير والتأصيل

والتغييـــر، بما يجعل هذه الغايات نســبية ومتغيرة لدى كل نــوع، وفقا للظروف والمتغيرات السياسية والثقافية في العلاقة مع النظم الحاكمة.

ويسعى النوع الأول إلى التعريف بخبرات الثقافة الإنسانية بروافدها المختلفة، ونقلها إلى القــارئ العربي، إن بالعرض والتحليــل، أو بالترجمة والتلخيص، ما يحــدث تراكما معرفيا، وذاكــرة ينطلق منها القارئ مع أنــوار العقل إلى عوالم شاســعة، لكن بغيــر بوصلة تهديه كي يختار من بين آفــاق الثقافات المختلفة ما يناســب حاجات الإصلاح في مجتمعه، وبكلمة أخــرى: بغير موقف فكري تجاه الحيــاة والإصلاح، هذا على الرغــم مما تضمه مواد هذا النــوع من محاولات للتطبيق على واقعنا العربي.

ويهــدف النوع الثاني مــن المجلات الثقافية - وهو التأصيل - إلى الاكتشــاف جذور موروثنا الفكري وثقافتنا العربية وتعميقها، ومحاولة إســقاطها على واقع العصــر الحديث، كمنطلق لإصلاحــه على هديها، في مواجهــة «ثقافة الآخر» ومتغيرات العصر، ويتفاوت أثر هذا النوع بين الدعوة إلى تثبيت وتكريس الماضي أو إعادة إنتاجه ثقافيا، بما يؤدي إلى قطيعة مع روح العصر، وبين اتخاذه بوصلة للســير على هديها بانفتاح على العصر بقوانينــه ومتغيراته، بغية الحفاظ على شــخصية الثقافة العربية، بما تحمله من خصوصية تميزها في مســارها نحو التقــدم والنهضة، أو بما يجعل مهمتها تحقيق رســالة ثقافيــة بمنزلة: «فلاحة للنفس الإنســانية، فالثقافة إخراج للإنسان من تناهيه ونزعته المادية إلى النزعة الروحيــة، والقضاء على النفس الأمارة بالســوء إلى النفــس المطمئنة، ومن هنا فإن رســالة المجلات الثقافية هي إشــاعة الذوق الرفيع والقيم الروحية وترقيق المشــاعر ( ... ) فإذا تحققت الثقافة بهذا المعنى فلن يكون هناك غزو ثقافي... فلا خوف»

ويســعى النوع الثالث - وهو التغيير - نحو طرح القضايا الجذرية للفكر في مجــالات التطور الإنســاني وتطبيقاته العملية في مختلــف دول العالم على مر التاريخ، مستجيبا لقوانين العلم ومناهج الجدل ووحدة التراث الإنساني، ومسلحا بإيمــان قوي بأن الثقافــة انعكاس لظروف موضوعية متغيــرة، يتفاعل بداخلها إنســان الفكر والقيم والحراك الاجتماعي والعلاقات الطبقية ومظاهر السلوك الانســاني، بقدر ما هي موقف اختياري للإنسان، قادر على تغيير البنى التحتية للمجتمــع، مادامت توافرت لديه القناعــة بضرورة تغيير الواقع نحو غد أفضل،

وقادر كذلك على الدفع نحو وحدة الشعوب العربية لبلوغ أهداف قومية مشتركة تحقق النهضة الشـــاملة، ومن ثم... فإن المجلات الثقافية من هذا النوع غالبا ما تتبنى تيارات ثورية أو قومية من الفكر الأيديولوجي أو من الأدب والفن المحليين أو العالميين، وتعمل على بثها داخل نســيج الثقافة العربية، بغض النظر عن مدي قدرة هذا النســيج على التواشج معها واستيعابها، وغالبا ما تدب الخلافات بين هذا النوع من المجلات وبين السلطة، وربما تنتهي بإغلاقها، إلا إذا كانت الدعوة إلى التغيير متوافقة مع فكر النظام.

### بين الأربعينيات والستينيات

وحســبنا أن نعرض هنا لنموذجين من هــذا النوع من المجلات، أحدهما يعبر عــن عصر الأربعينيات، بما يحمله من مخاض ثوري عنيف تمثله مجلة «التطور» اليســارية ذات الفكر التروتســكي، برئاســة أنور كامل، والآخر يعبر عن عصر الســتينيات، بما يحمله من مد اشــتراكي ودعوة للقومية والوحدة، وتمثله مجلة «الكاتب» برئاسة أحمد عباس صالح.

كانــت مجلــة التطور - التي صــدرت وتوقفت عام ١٩٤٠ بعد صدور ســبعة أعداد لا غير - هي لســان حال جماعة الفــن والحرية، التي تركت بصمة قوية في مسار تجديد الحركة التشكيلية في مصر آنذاك، بإيمانها المطلق بالسريالية ثــم بالتجريد، بالرغم من أفكارها الثورية مثل حــق الجماهير في الفن والخبز والحريــة فــي الوقت ذاتــه، غيــر أن لغة الخطاب السياســي قــد غلبت على موضوعاتهــا، تعبيرا عن فكــر قادتها... «فهم يؤمنون بالتطــور الدائم والتغيير المســتمر، ويقاومون الأســاطير وقيم الاســتغلال، ويعملون علــى تغيير المجتمع المصري» المريض فاقد الاتزان «، ويدعون من أجل ذلك إلى حركة فكرية جديدة، على الرغم من أنهم يقرون بعدم تقديمهم برنامجا معينا لحل مشــاكل المجتمع، إلا أنهم في المجلة يقدمون هذا البرنامج بالفعل».

أما مجلة الكاتب، التي أصدرتها وزارة الثقافة في أول ابريل ١٩٦١ وأغلقت في الســبعينيات، فتقول في افتتاحية عددها الأول: «ننشيء منبرا جديدا متواضعا، لعله يعين المثقفين على رد اعتبار الثقافة في مواجهة أخطار تهددها، منها تمييع شخصيتنا، وإذابة حضارتنا القومية في تيارات أجنبية بهرجها عارض، وعجمتها واضحــة، بحجة تخلفنا الثقافي، والحل عندنا هو توكيد ثقافتنا القومية، وإبراز

دورهـــا الايجابي في بناء أمتنا، وفي بناء العالم، ومن الأخطار أيضا: عزلتنا عن تيارات الفكر العالمي باسم الاكتفاء الذاتي، والحل عندنا هو توكيد وحدة الثقافة الإنســانية، ووحدة الضمير الانساني، الحل عندنا هو الأخذ والعطاء، ومن هذه الأخطار: عزل الثقافة عن الحياة باســم العلم للعلم، والفن للفن والأدب للأدب، والحل عندنا هو توكيد صلة الثقافة بالحياة، ومن الأخطار كذلك: تفتيت الثقافة باســم التخصص، الذي يزين للعالم الأمية فـــي الآداب والفنون، ويزين للأديب والفنان الأمية في العلوم، وينتهي بفصل الخبرة عن القيم، وبتجزئة الإنسان في المواطنية، والحل عندنا هو توكيد تكامل المعرفة والقيم الإنسانية، ومن الأخطار: تحطيم التراث باســم التقدم والتطور، وشل التقدم باسم المحافظة على التراث، ومـــن الأخطار: الفصام القائـم بين ما هو خاص وما هو عـــام، وهو يتجلي في الابتـــذال في بعض الثقافة الرفيعة باســم الجماهيرية من جهـــة، وفي احتقار الثقافة الشـــعبية باسم الصفوة الممتازة من جهة أخري، والحل عندنا توكيد حق الجماهير في ثقافة الصفوة الممتازة.

والحـــق أن هذا التوجه الـــذي قامت عليه وطبقته بأمانـــة مجلة الكاتب، كان ســـمة مشـــتركة بين العديد من المجلات الثقافية في تلك الحقبة - الســـتينيات - تتســـق مع التوجهات العامة لنظام ثـــورة ١٩٥٢ في ذروة انتصارها قبل هزيمة يونيو ٦٧، مثل مجلات: الطليعة، المجلة، الهلال، الفكر المعاصر، الفنون، المسرح، دراســـات اشـــتراكية... إلخ، إذ كانت انعكاسا لمشـــروع نهضوي شامل للمجتمع، مؤمـــن بالعدالة الاجتماعية وبالوحدة العربية، متحـــرر من كوابح ثقافة الماضي أو مـــن الأيديولوجيات السياســـية الجاهزة، أو من مركـــب النقص تجاه الثقافة الوافـــدة، بـــل كثيرا ما كنا نجد فيها مناظرة ندية مع هذه الثقافة على مســـتوى الفكر ومستوى الإبداع معا، كما نجد فيها تأثرات واضحة بمعطيات هذه الثقافة الغربية بغير تبعية فكرية أو تقديس لها، أو انسلاخ عن جذور الثقافة العربية.

### بين الإغلاق والإفلاس

لقـــد كانت أغلب المجـــلات الثقافية قبل يوليـــو ١٩٥٢ مملوكة لأفراد، ضحوا تضحيـــات هائلة كي تســـتمر في الصدور علي الرغم من مضايقات الســـلطات السياسية والأمنية، وعلي الرغم من قلة الجمهور الذي يشتريها أو يشترك فيها لطابعهـــا النخبوي، فوق ما تتعرض له من أزمـــات مالية لعجز عائد التوزيع عن

تغطيـة النفقات، حتـى أن «المجلة الجديدة» اضطرت أوائل عام ١٩٤٢ إلى رفع ثمنها قرشا - لتصبح بثلاثة قروش، وأن تصدر كل أسبوعين بدلا من كل أسبوع ونشـرت إعلانات تستنجد فيها بقرائها أن يسارعوا بتسديد اشتراكاتهم معاونة لها على القيام بمهمتها، وبعد ذلك بشـهر تقريبا نشـرت اعتذارا للمشـتركين والقراء تقول فيه: «سـتضطر المجلة الجديدة - بالنسـبة للمتاعب القاسية التي تحيط بها - إلى أن تصدر مؤقتا مرة واحدة في الشهر وفي حجم صغير. والمجلة تأمل من أصدقائها أن يسـتمروا على معاونتها في أوقات الشدة حتى تستطيع المثابرة على القيام بواجبها، ومع ذلك لم تسـتطع الصمـود، وأغلقتها الحكومة برصاصة الرحمة عام ١٩٤٤!!

وينطبـق مصير الإفلاس على مجلتي «المقتطف» و«صوت الفنان» عام ١٩٥٢. وعلي مجلتي «الثقافة» و«الرسالة» عام ١٩٥٣..... وقد كتب الزيات في افتتاحية آخـر عدد صدر من «الرسـالة» فـي ٢٣ فبراير ١٩٥٣ يقول بعنوان: الرسـالة تحتجب:

«كانت الرسـالة منـذ فحش غلاء الورق وفداحة نفقات الطبع تكفي نفسـها أو تخسـر قليلا، وكنا نواجه هذه الحالة بالتعفف والتقشـف والصبر فنستساغ مرارتها، فلما شاعت الضرائب ألا تعقل، وأرادت الحكومة ألا تعلق، وقررت وزارة التربية والتعليم ألا تشـترك، أخذت الخسائر تنمو والأزمة تشتد والأمل يضعف، فلم نجد بدا من الاذعان لمشيئة القدر».

وقد كتب طه حسـين والعقاد ينعيان الرسـالة والثقافة ويأسـفان لتوقفهما، فقـال طه حسـين في مقال بالأهرام فـي ٢٢ فبراير ١٩٥٣ بعنـوان «لا بأس»: احتجبت الثقافة منذ شـهور واحتجبت الرسالة أمس، فلم تبك عليهما أرض ولا سماء!... ثم قال: كم أحب أن تفكر الثورة في هذا كله. وكتب العقاد في الأهرام أيضا في ٢٥ فبراير ١٩٥٢ تحت عنوان «وأي بأس» قال فيه: إن المجلات العلمية لا تقـوم دون معونة الدولة أو الجامعات أو تبرعات نصراء العلوم، واختتم يقول: إنها خسـارة محزنـة أن تحتجب المجلتان الرائدتان لصحافـة الأدب في العالم العربي كله بعد أن صابرتا نحو عشـرين سنة، ويقول الدكتور عزالدين إسماعيل فـي مقال بمجلة الآداب البيروتية حين تعرض بدوره - وهو يرأس الهيئة العامة للكتـاب - لأزمة مالية أدت إلى تعثر بعض المجـلات التي تصدر من الهيئة: ولا يدري إلا الله كم كسبت مصر من وراء مجلتي الرسالة والثقافة في الوطن العربي

على الرغم من ضآلة المعونة التي كانتا تحصلان عليها من وزارة التربية والتعليم في شكل اشتراك لا يزيد على ٦٠٠ نسخة من كل عدد.

ولا تقتصـــر أســباب ظاهرة احتجــاب المجلات الثقافية فــي مصر أو قصر عمرها - ســواء بالنســبة للمجلات الحكومية أو الأهلية - على مشكلة التمويل، بل ترتبط بعوامل شتى على رأسها: ضيق وانحسار هامش حرية إصدار المجلات أو حرية التعبير، ما يجعل بعض المجلات المســتقلة تصدر بطريقة غير شرعية، وتظل ملاحقة من الأجهزة الرســمية ومهددة بالإغــلاق، ومنها ضعف الحراك السياسي والثقافي للمجتمع، وضآلة عدد القراء مع تناقص اهتمامهم بالقضايا الثقافيــة، خاصة خلال ربع القــرن الأخير، في مقابل نمــو أزمات واهتمامات أخــرى للمجتمع، ومنها أزمة التعليم العام والتعليم الجامعي، التي أفرزت أجيالا مســطحة الوعي، فاقدة الثقافة، رافضة للشــأن العام، هــذا إضافة إلى توقف الدولة بدرجة كبيرة عن دورها في دعم المجلات التي تصدرها الجمعيات الأهلية أو الأفراد.

ويبلغ هذا القصور درجته القصوى بالنسبة لإصدار مجلات الفنون التشكيلية بوجــه خاص، حتى بين المجلات المتخصصة التي تصدرها وزارة الثقافة، لضيق شــريحة القراء المعنيين بهذا المجال، ما يعني خســارة ماديــة محققة لمثل هذه المجلات، وقد ســاعد ذلك على تفاقم أعراض العزلــة والغربة بين هذه الفنون وبــين المجتمع، حيث لــم تتح الفرصة لبنــاء قاعدة تثقيفية للثقافة التشــكيلية للأجيال المتتالية، فنشــأت في شــبه أمية بصرية وجماليــة، يعاني منها - أول من يعاني - الفنانون والنقــاد، حيث انصرف عنهم الجمهور، فأصبحوا يقيمون معارضهم وينشرون مقالاتهم لنخبة ضئيلة غير مؤثرة.

### منطلقات فكرية

و إذا تطرقنــا لمحتوي المجلات الثقافية قبل ١٩٥٢، نجد أن مواد الفن والأدب تتجاور مع المواد السياســية وتتكامل معها بشــكل عضوي، وبالرغم من أن شعار «المجلة الجديدة» كان: مجلة الكفاح والتجديد الاجتماعي، فقد كانت ذات اهتمام كبير بالفنون والآداب، وكان ثلاثة من فرســانها فنانين تشكيليين وهم: رمسيس يونــان، كامل التلمســاني، فؤاد كامل، أصحاب أســاليب أدبية رفيعة المســتوي باللغتين العربية والفرنســية، ومهارات نقدية عالية للأدب والسينما والموسيقي،

إلى جانب قدراتهم النقدية المتميزة للفنون التشكيلية، فضلا عن تنظيراتهم السياسية المبنية على فهم عميق للنظريات والتيارات السياسية في المنطقة وفي العالم، وهو ما تشهد به كتاباتهم وبياناتهم الثورية المنشورة، خاصة ضد الدكتاتورية والنازية والفاشية، أو ضد الرأسمالية والإمبريالية، أو ضد التمييز الطبقي والتمييز ضد المرأة والمناداة بمساواتها بالرجال، وكانوا يضطرون في أغلب الأحيان لتوقيع مقالاتهم بالأحرف الأولى أو بأسماء مستعارة لأسباب مفهومة بالطبع.

أما في الفنون والآداب فلم يكن كتاب المجلة الجديدة بحاجة إلى التخفي، لأن النقد فيها لم يكن يهم الحكومة، ومع ذلك أثاروا قضايا مهمة، مثل دور الأدب والفن في الحياة، والفنون التشكيلية في القرن العشرين، كما فجروا معارك ثقافية أثارت ردود أفعال قوية مثل: تخلف الفناء العربي، البرج العاجي لتوفيق الحكيم، فكر عباس العقاد .... الخ، كل هذا فيما كانوا يواصلون إبداعاتهم التشكيلية بالأسلوب السريالي الذي اتخذوه تعبيرا عن الثورية مثلما كان الأمر في باريس آنذاك تحت قيادة الشاعر والمفكر أندريه بريتون والشاعرين أراجون وايلوار، وكان الشاعر المصري جورج حنين - وهو تروتسكي الفكر السياسي - همزة الوصل بين مجلتي التطور والثقافة الجديدة وجماعة الفن والحرية في القاهرة، وبين زعماء الحركة السريالية في باريس، حتى تحولت «الفن والحرية» إلى امتداد لتلك الحركة، كذلك بشر الفنانون المصريون الثلاثة - عبر مطبوعاتهم ومنشوراتهم - بالاتجاهات التكعيبية والتجريدية في الفن، فكسروا بذلك حالة الركود الثقافي المخيمة على مصر على مدي ربع قرن سابق وأقاموا المعارض لجماعة الفن والحرية على امتداد السنوات من ١٩٤٠- ١٩٤٥ كتطبيق عملي على أرض الواقع للأفكار والأساليب الثورية التي نادوا بها.

ومع اختلاف المنطلقات الفكرية لأصحاب الإصدارات المختلفة، جاءت توجهات ومضامين المجلات الأخري، في إطار الأنواع الثلاثة التي أشرنا إليها من قبل ( التنوير والتأصيل والتغيير )، لكن أيا كانت الاختلافات بينها أو التناقضات والتوافقات مع السلطة، فقد كانت جميعا تعبر عن تطلعات أجيال المثقفين والمبدعين نحو الانفتاح الفكري والسياسي والثقافي، بعيدا عن قيود المجتمع المصري والعربي المغلق آنذاك، ونحو تعميق الروح الوطنية والقومية، واستنهاض القيم الايجابية في التراث لتكون ذخيرة في معركة التقدم والنهضة، ونحو إعلاء

شأن الإبداع والتذوق الجمالي لكافة الفنون والآداب، مع تغيير المفاهيم الجمالية السـائدة حتى ذلك الوقت، والدعوة الي تجديد الشعر والقصة والفن التشكيلي بما يتواكب مع روح العصر.

ومـن ذلك: ما سـارت عليه مجلة صـوت الفنان قبل أن تلفظ أنفاسـها في عـام ١٩٥٢. وهو ما يعبر عنه الشـعار الذي اتخذته مـن أول عدد لها، وهو أن الفـن ضرورة للقاعدة العريضة من الناس وللنهضة الفنية الحديثة معا، فجمعت مقالاتها بين تاريخ الفن والتعريف بمدارسـه ومذاهبه وأعلامه وتقنياته، وبلغت حد تقديم دروس في الرسـم والتصوير الزيتي والتشريح، وإقامة المسابقات بين الهواة فيها، وقدمت متابعات نشـطة لحركة المعـارض الفنية آنذاك بمعالجات نقدية مبسطة تصل إلى فهم عامة القراء، واستطاعت في هذا السياق استقطاب عدد من كبار الكتاب والفنانين والمفكرين للكتابة فيها. من أمثال الناقد بدر الدين أبو غازي، الشـاعر إبراهيم ناجي، الفنانون راغب عياد، محمد حسـن، سـعد الخـادم. أبو صالح الألفي، سـعيد الصدر، محمد عـزت مصطفي، عبد الغني الشـال، كوكب يوسف، الي جانب صاحبها محمد صدقي الجباخنجي الذي كان يجمع بين مواهب عدة.

لكـن دور الأفراد والجماعات الثقافية توقـف تماما بعد ثورة ١٩٥٢، في ظل حساسـية النظام السياسـي الجديد تجاه حرية التعبير لدي المثقفين. وتصاعد أزمة الثقة المتبادلة بين الطرفين، والتي امتدت منذ ذلك العهد حتى اليوم. لكن ثمة اسـتثناءات قليلة استطاع فيها المثقفون كسـر الدائرة التي حاصرت حرية التعبير، وأصدروا بعض المجلات محدودة الانتشـار والعمر أيضا. مثل «جاليري ٦٨» التـي أصدرها مجموعة من الأدباء والفنانين الشـبان عقب هزيمة ٦٧، ثم مجموعة إصدارات «الماستر» في السبعينيات حول الأدب والفن والفكر بامكانات طباعية متواضعة وبغير تصاريح رسمية.

وبالرغـم من أن المجلات الثقافية التي ظهرت واحتجبت كالشـهب قد تجاوز عددها ٣٠ مجلة فترة السـبعينيات، من خلال الإحصائية التي نشرت في كتاب «النقد التشكيلي بين الناقد والمجتمع» ، فان فترة الثمانينيات شهدت ظهور عدد من المجلات الثقافية المسـتقلة مثل: الشموع، سـطور، العصور الحديثة، المنار، أدب ونقد، أخبار الأدب.... بعد أن أرخي النظام قبضته بعض الشيء عن حرية إصدار المجلات الثقافية ولو بتصريح من قبرص.

إلا أن نظـام حكـم عبـد الناصر قد نجح فيمـا لم تنجح فيـه نظم الحكم في السـبعينيات والثمانينيات، وهو اسـتقطاب أبرز القامات والرموز الثقافية واسـتيعابها في مؤسسـاته ومجلاته الثقافية، ومن هنا نلاحظ أن حريتهم في التعبير عن قناعاتهم المسـتقلة قد تعرضت للكثير من الكوابح والأزمات. بل ومن التلـون أيضا بألوان تنسـجم مع ما هو مطلوب، وان لـم تمنع تلك الكوابح قدرة البعض منهم على بناء مساحات مشتركة واسعة. بينهم وبين النظام، مع قدر من التنازل - كبر أم صغر - أو مع قدر من حيل التعبير بالرمز والمجاز.

وكان الفكر الاشـتراكي هو الأرض المشـتركة بين الجانبين، فهو الذي أنطلق منـه كل من نظام عبد الناصر تحت عنوان: الطريق العربي للاشـتراكية، وقوي اليسار الماركسـي، بعد أن قبل أصحابها - وهم مازالوا في السجون والمعتقلات - حل تنظيماتهم الشـيوعية واسـتنكار ما قاموا به وتأييـد عبد الناصر - في مقابل الإفراج عن المسـجونين جميعا، وانضمامهم إلى تنظيم السـلطة «الاتحاد الاشتراكي العربي» عام ١٩٦٣، وتوليهم أهم المناصب بوزارة الثقافة، مثل هيئات الكتاب والمسرح والسينما والثقافة الجماهيرية. وإلحاقهم ككتاب وأساتذة بارزين بالمؤسسـات الصحفية والمعهد الاشتراكي ومنظمة الشـباب وغير ذلك، ونظرا لامتلاكهـم مواهب مؤثـرة في مجالات الأدب والفن والكتابـة الصحفية والفكر السياسـي - لا ترقى إليها مواهب المحافظين والليبراليين آنذاك - فإن الصفقة التـي عقدوها مـع النظام كانت تصـب في مجراه أكثر ممـا تصب في مجري الأهداف البعيدة لفكرهم السياسـي، حيث وظفوا مواهبهم للترويج لسياسـات النظـام الناصري، ولما كان هذا النظام يحظـى بجماهيرية طاغية، فقد وجدت كتاباتهم وممارسـاتهم الثقافية في الواقع أرضا خصبة، وسـاعدت على التحام أقوي بـين الجماهير النظام، لأن تلك الكتابات والممارسـات كانت تتبني أحلام النـاس وأمانيهم في المسـاواة والعدالة الاجتماعية، وفي مشـروعات التصنيع والبناء كمشروع السـد العالي، وفي مقاومة الاسـتعمار والإمبريالية، ومساندة قضايـا التحرر الوطني من العالم الثالث، وفي إشـعار المواطن بالعزة والكرامة، وإعلاء شأن قوى الشعب العاملة وتولي العمال والفلاحين نصف مقاعد البرلمان تعبيـرا عن الديمقراطية، حتى وإن انتهي دورهم عنـد حدود التأييد والموافقة على سياسات النظام!

وفي المقابل... سمح النظام للمثقفين بممارسة حريتهم في المجالات الثقافية والإبداعية في الأدب والمسرح والسينما والفنون التشكيلية، بما في ذلك حرية التجريب في آخر أشكال الحداثة، مثل مسرح العبث، واتجاهات السينما الجديدة والشعر الحديث والقصة الطليعية والمدارس التجريدية والتكعيبية والسريالية - وحتى الدادية - في الفن التشكيلي، بل ودعمها بالتمويل وقاعات الفن والمتاحف ودور العرض ومنافذ النشر من مجلات وكتب، لهذا يقال دائما بأن فترة الستينيات تعد فترة الازدهار الحقيقي للثقافة والإبداع الفني، وأن الكتاب والفنانين عاشوا خلالها عصرهم الذهبي، طالما نأوا بأنفسهم عن العمل ضد النظام وسياساته، أو عن إحياء منظماتهم السرية السابقة.

إن هذا المناخ هو ما أتاح لكاتب ومفكر اشتراكي مثل أحمد عباس صالح أن يرأس تحرير مجلة الكاتب، ويستكتب فيها أكبر الأقلام والمواهب الأدبية والفنية والنقدية، وما أتاح لكاتب ليبرالي جريء مثل أحمد بهاء الدين أن يرأس مؤسسة دار الهلال بكافة إصداراتها، ليجعل مجلة المصور منصة ليبرالية «في حدود سياسة الدولة بالطبع» وليجعل من مجلة الهلال منارة للفكر والمعرفة، وساحة لعرض وتحليل اتجاهات الفنون التشكيلية، وما أتاح لأديب ينتمي بفطرته إلى البسطاء وإلى قيم العدل والكرامة الإنسانية مثل يحيي حقي أن يرأس تحرير مجلة المجلة، لتحتضن أحدث التجارب والمغامرات الأدبية لشباب الشعراء وكتاب القصة والنقد، وهذا المناخ هو كذلك ما أتاح لمفكر يعد أحد قادة الاستنارة مثل فؤاد زكريا أن يرأس تحرير مجلة الفكر المعاصر، لتكون ساحة لعرض الأفكار الجديدة والرؤى الفلسفية والجمالية والقضايا الجدلية الساخنة، بما تتضمنه من مواجهات مع الاتجاهات الأوربية والسلفية معا بنظرة نقدية، وهو ما أتاح لكاتب سياسي مثل لطفي الخولي أن يرأس تحرير مجلة الطليعة الصادرة عن مؤسسة الأهرام، لتكون منصة للفكر الاشتراكي والتنويري، ولتناقش قضايا التحرر والتقدم والديمقراطية، ولتعرض شتي التجارب الثورية في دول العالم بنظرة نقدية لمواقف قادتها من شعوبهم وطلائعها الثورية، وقد حرصت على أن تضم ملحقا للأدب والفن يستقطب أقلام أهم النقاد والمبدعين في شتي مجالات الإبداع... وهذا المناخ هو ما جعل مبدعين كبيرين خارجين لتوهما من سجن الواحات بتهمة الشيوعية يرأسان تحرير أهم مجلتين أسبوعيتين منذ عام ١٩٦٤ حتى وفاتهما، أحدهما الكاتب الأديب صلاح حافظ، الذي رأس تحرير

روزاليوسف، والثاني هو الفنان التشكيلي وكاتب السيناريو الموهوب حسن فؤاد، الذي رأس تحرير مجلة صباح الخير، فجمعا في المجلتين خيرة الأدباء والشعراء والنقاد والرسامين، فضلا عن الكتاب الصحفيين والمحررين والتقدميين، وجعلا من مؤسسة روزاليوسف مدرسة متميزة تتجاوز مفهوم العمل الصحفي الذي يعالج قضايا آنية عابرة، نحو مفهوم العمل الثقافي الذي يتفاعل مع كافة ظواهر المجتمع وقضايا الفكر والجمال في آن واحد.

كما أن هذا المناخ نفسه هو ما سمح للفيلسوف الماركسي محمود أمين العالم أن يتولى رئاسة الهيئة العامة للكتاب، ليحدث نقلة نوعية في إصداراتها من كتب ومجلات ضمت كل أطياف المعرفة والتجارب الإنسانية.

لكن هذا الزواج المصلحي بين المثقفين والسلطة لم يصمد طويلا، وسرعان ما انهار بعد هزيمة ٦٧، وتخلص عبد الناصر من مراكز القوى المناوئة له، ومن بينها المركز الذي كان يحمي اليسار، ولم يعد الزعيم بحاجة إلى مهادنات مع قادتهم أو لدعمهم في معركته لإعادة بناء الدولة والقوات المسلحة، وللاستعداد لاستئناف الحرب ضد إسرائيل واسترداد الأرض والكرامة المصرية والعربية، فليس صحيحا أن الرئيس السادات هو الذي تخلص من قوى اليسار في الثقافة والصحافة والعمل العام، بل ربما كان قد بدأ حكمه بعكس ذلك كمناورة لإخلاء الساحة أمام حكمه الجديد من أي قوى مناوئة، فلجأ إلى تعيين وزيرين بحكومته من أكبر زعماء الحركة الشيوعية وهما المرحومان فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله، ثم كان أسرع من عبد الناصر في التخلص منهما بعد استتباب الأرض تحت قدميه!... وما إن دخل في تنفيذ سياسة الانفتاح الاقتصادي ثم في مفاوضات فك الارتباط مع إسرائيل، التي انتهت بالزيارة لتل أبيب ومعاهدة كامب ديفيد، حتى كانت الساحة الثقافية ومجلاتها ومنابرها قد خلت تماما من المثقفين اليساريين، إلا من قبل منهم التعاون معه، أو على الأقل لم يهاجم سياسته.

في تلك الفترة توقفت مجلات الكاتب والطليعة والفكر المعاصر ودراسات اشتراكية، كأكبر منابر ثقافية للفكر التنويري والليبرالي والاشتراكي، بل توقفت إلى جانبها مجلات بعيدة عن الفكر

السياسي ومعنية بقضايا الأدب والفن والإبداع مثل مجلات: المجلة، القصة، المسرح، السينما، الشعر، فنون... والسبب أن القوة الفعالة فيها كانت في أغلبها من مثقفي اليسار، وقد حاول النظام إصدار مجموعة من المجلات الجديدة لتحل محل تلك المجلات في وزارة الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام في النصف الثاني من السبعينيات، مثل مجلتي الثقافة والرسالة، في محاولة لإحيائهما بعد توقفهما عام ٣٥٩١، ومجلة المسرح التي كان يرأس تحريرها د. رشاد رشدي، وكان معروفا بخصومته مع الشيوعيين والاشتراكيين وغيرها من المجلات، لكنها سرعان ما تعثرت ثم توقفت، لافتقارها للكفاءات الإبداعية والتحريرية التي توافرت للمجلات السابقة، حتى ولو فتحت صفحاتها للمبدعين من ذوي الميول اليسارية، فقد ظلت باهتة الإبداع هزيلة الصوت.

لقد تفاقمت على مر السنين وتبادل أنظمة الحكم في مصر أزمة الثقة بين المثقفين والسلطة، ما أدى إلى علاقة متوترة وملتبسة طوال الوقت بين الجانبين، وإلى عزوف كل منهما عن التعاون مع الآخر، بل إلى وجود نظرة بعدم الارتياح من جانب المثقفين غير المؤيدين للنظام تجاه الذين يتعاونون معه، وانعكس ذلك سلبيا على مناخ الحركة الثقافية طوال السبعينيات.

### مجلات الشوارع الخلفية

وفي مواجهة هذه الأزمة برزت على السطح ظاهرة «مجلات الشوارع الخلفية» التي كان يصدرها المثقفون على نفقتهم الخاصة، دون الحصول على تصريح رسمي من السلطات المختصة، وهي مطبوعات صغيرة الحجم فقيرة الإخراج قليلة التكاليف محدودة النسخ، وكان أغلبها يطبع بمطبعة الماستر أو بمطابع بدائية، وتوزع وتتداول بشكل يدوي، لكنها كانت ذات تأثير هائل على المثقفين خاصة من أجيال الشباب، التي أشبعت احتياجها لثقافة أخرى في مقابل الثقافة الرسمية، ووجدت فيها متنفسا لنشر إبداعاتهم الجديدة، ومن بين هذه المجلات والنشرات «إضاءة ٧٧» وكانت تشرف عليها

مجموعة من شـعراء الحداثة، من بينهم حلمي سـالم ورفعت سلام وحسـن طلب وجمال القصـاص، و«آفاق ٧٩» وكان يشـرف عليها الفنان التشـكيلي والناقد الراحل محمود بقشيش، و«خطوة» وكانت هيئـة تحريرها تتألف من كاتب القصـة الراحل يحيي الطاهر عبد الله والمفكر نصر حامد أبو زيد والروائي الراحل إسـماعيل العادلي والناقد سيد البحراوي والأكاديمية أمينة رشيد وكاتب هذه السطور، ومنها كذلك مجلة «المواجهة» وكانت تصدرها لجنة الدفاع عن الثقافة القوميـة وترأس تحريرها الأديبة الراحلـة لطيفة الزيات، وكان من بـين هيئة تحريرها الأديبة رضوي عاشـور والناقدة فريدة النقاش، ومنها أيضا مجلة «مصرية» التي كان يصدرها الفنان التشكيلي عبد العزيز جمال الدين... وتلك مجرد أمثلة سـريعة، فهناك العديد من الإصدارات الأخرى بطباعة الماستر قد تحتاج إلى دراسة مستقلة.

وكان لهذه المجلات الفقيرة تأثيرها القوي في تأكيد الاسـتقطاب بين مثقفي السـلطة والمعارضين لها، فقد تميزت بنبرة نقدية عالية لسياسات نظام السـادات الاقتصادية وموقفه من القضايا الوطنية والقوميـة والديمقراطية، وفـي ميدان الثقافة دأبـت على مقاومة التطبيع الثقافي مع إسرائيل وعلى تعميق ثقافة المقاومة وعلى البعد العربي للثقافة المصريـة، وعلى تصويب التوجه الثقافي نحو الغرب بتأصيـل الثقافة الوطنية، وفي ميـدان الإبداع تبنت أصواتا جديدة ذات نزعات تجريبية متحررة في الشـعر والقصة والمسرح، وهي ما مثلت رؤية جيل جديد متجاوز لرؤى جيل السـتينيات، اسـتطاع أن يعلن عنهـا بقوة وحرية عبر هذه الإصدارات، حتى أصبح أصحابه اليوم من أهم الأصوات الإبداعية في المجالات المختلفة.

وبالرغم من أن المناخ الذي أدى إلى ظهور تلك المجلات شبه السرية في السـبعينيات قد تغير في الثمانينيات وما بعدها، باتساع هامش الديمقراطية وحرية التعبير وسـماحه لمختلف الآراء والاتجاهات أن تنشـر عبر وسـائل النشـر والإعلام الحكومية أو الأهلية، فقد ظل الحاجز قائما أمام المثقفين الراغبين في إصدار صحفهم ومجلاتهم المسـتقلة، باشـتراط توافر مبالغ تتجاوز المائة ألف جنيه لتأسيس

شـــركة تصدر المجلة من خلالها، إلى جانب حتميـــة انتظار موافقة المجلس الأعلى للصحافة علـــى التصريح بها، وكثيرا ما كان يرفض أو يتجاهل الرد على طالبي التصريح لســـنوات وســـنوات دون إبداء الأســـباب، بالرغم من استكمال كافة الشروط المطلوبة منهم، والمثال على ذلـــك هو طلب الناقد الكبير الراحل شـــكري عيـــاد للتصريح بإصـــدار مجلة أدبية كون من أجلها بالفعل شـــركة مســـاهمة تضم عشرات المثقفين، ومات الرجل منذ أعوام طويلة ولم تصدر الموافقة من المجلس الأعلى للصحافة حتى اليوم!

ومرة أخرى ينقســـم المثقفون بين فئة قليلة أصرت على الاستقلال عـــن النظام بنشـــر إنتاجهم عبـــر مجلات وصحـــف أهلية محدودة الانتشار، مثل «سطور» و«الشموع»، أو صادرة عن مؤسسات صحفية مثـــل «أخبار الأدب» التي تصدر عن مؤسســـة أخبار اليوم برئاســـة الروائي جمال الغيطاني، و«أحوال مصرية» التي تصدر عن مؤسسة الأهرام، أو صحف أحزاب المعارضة التي لا تعطي للثقافة إلا هامشا بالغ الضالة، باستثناء حزب التجمع الوطني الديمقراطي الذي أصدر مجلـــة خاصة للثقافة والإبـــداع هي «أدب ونقـــد» وجريدة «العربي الناصري» التي اختصت قضايا الثقافة ببضع صفحات أســـبوعية، ومـــن هؤلاء الكتاب من اثر الهجرة بقلمه إلى المجلات العربية خارج مصـــر - خاصة بدول الخليج، ليس اتســـاع هامش الحرية بل غالبا لسخاء المكافأة والانتشار الواسع... أما الغالبية العظمى من الكتاب فقد ارتضت بالنشـــر من خلال مجـــلات وصحف وزارة الثقافة مثل «إبداع» قبل أن تتوقف عن الصدور منذ عدة سنوات لأسباب التمويل والبيروقراطية، و«فصول» التي تحولت من فصلية إلى نصف سنوية للسبب نفسه، و«المحيط الثقافي» الشهرية، و«فنون مصرية» الفصلية، و«القاهرة» الأسبوعية، وغني عن التوضيح أن هناك خطوطا حمراء في هذه المطبوعات التي تصدرهـــا وزارة الثقافة حول توجيه النقد المباشـــر إلى سياســـة الوزراء التي يثور حولها جدل شديد يمتد إلى درجة الإدانة من جانب كثير من المثقفين، وهو ما لا يســـمح بنشـــره بالطبـــع، مما يضع المثقف فـــي ازدواجية المبدأ بين ما ينشـــره وما

يعتقده بالفعل!

وقد انسحبت هذه الازدواجية إلى الجمعيات الثقافية الأهلية، بين من تحصل على دعم مالي من وزارة الثقافة ومن لا تحصل عليه، فعندما قررت جمعية نقاد الفن التشكيلي - على سبيل المثال - إصدار مجلة باسم «نقد» وحصلت على دعم مالي من الوزارة لإصدارها، ظهر أول عدد منها عام ٢٠٠٥ بغلاف تملأه صورة الفنان فاروق حسني وزير الثقافة، ويمتلىء في الداخل بصوره وصور لوحاته داخل مرسمه مع حديث مطول معه على بضع صفحات، ولم يتضمن العدد أي نقد لسياسة الوزارة في الفنون التشكيلية، بالرغم من أنها محل اعتراض الكثير من الفنانين والنقاد، بينما امتلأت صفحاته بنقد جارح إلى - حد الشتائم - لعدد من الأشخاص والقيادات في الحركة الفنية دون الإشارة الى أسمائهم، أو إلى وقائع تعني الواقع الثقافي أو تفجر قضايا عامة، وكان هذا سببا في انصراف أغلب المهتمين بالفنون التشكيلية في مصر عن المجلة، ومع ذلك استمر الدعم المالي من الوزارة لها لمواصلة الصدور!.... هذا في الوقت الذي يتم فيه تجاهل طلب جمعيات ثقافية جادة ومؤثرة في الواقع الثقافي لدعمها في تقديم أنشطتها وإصدار مجلاتها وهي تملك خبرات تاريخية فيها، مثل جمعيتي أتيليه القاهرة وأتيليه الاسكندرية للفنانين والكتاب وجمعية أصالة للفنون التراثية والمعاصرة وجمعية المأثورات الشعبية وغيرها.

وقد يقال إن مشكلة المجلات الثقافية هي مشكلة المثقفين في إصرارهم على العلاقة الأبوية مع الدولة، باعتبارها الراعي الوحيد لشئونهم والمسئول عن الإنفاق عليهم، ومن ثم تصبح له شرعية الأمر والنهي والتوجيه لهم، فيما يفترض أن يشب المثقفون عن الطوق، وأن يبحثوا عن آليات جديدة لضمان استقلالهم عن الدولة بما في ذلك عنصر التمويل التعاوني أو استقطاب الرعاة القادرين على دعمهم غير المشروط، وهو ما نراه في دول العالم المتقدمة، لكن إذا كان ذلك صحيحا فانه لا يمثل غير نصف حجم الأزمة، ولن يحقق حله خلاصا من الأزمة، اما نصفها الآخر فهو القراء، فإن قلة عددهم وتناقصه

المستمر يمثل أهم عنصر في انكماش المجلات الثقافية بل واختفائها في أغلب الأحيان بعد صدور أعداد قليلة منها. وقد أشـــرنا من قبل إلى الأســباب الجذرية لأزمة القاريء بين ضعف الحراك السياسي والثقافي العام للمجتمع ونمو مشــاكل واهتمامات أخرى أكثر حيوية للمواطـــن، وأزمة التعليم بمراحله المختلفة التـــي تنتج أجيالا فاقدة الوعـــي والتميز والقدرة على الإبداع أو الاختيار.... وأزمة وســـائل الإعـــلام والاتصال التي أصبحت موادها بديـــلا عن القراءة... إلى غير ذلك من الأسباب التي لا يسمح المجال هنا لتقصيها وتحليلها.

وربما يسوقنا ذلك إلى تحليل لمضمون الكثير من المجلات الثقافية الراهنة، لا ســـيما الثقافية المتنوعـــة أو العامة، فهي غالبا تقوم على التراكم الكمي للمعرفة، بغير توجه فكري يستوعب هذه المعارف نحو هدف قومي أو انســـاني، وكأنما نفترض أن المعرفة «تحصيل ساكن» أو أنها نهاية وليست بداية، فيما يفترض أن تكون المعرفة منطلقا إلى بناء موقف للإنسان من الحياة والوجود، يساعده على الاختيار على طريق التطـــور والتقدم والرقي الانســـاني... وحتى لو وجدنا بعض المقالات التي تســـتوعب هذا المعني وتســـعى إلـــى تحقيقه، فإنها لا تجد ما يؤازرها من مقالات أخرى بنفس العدد من المجلة، كي تخلق منظومة مترابطة لتوجه عام تبتغيه المجلة وتعمل على انتشاره، مثلما كان الحال في المجلات التي كانت تصدر بمصر قبل ثورة ٥٢ وبعدها على النحو الذي ســـبق الإشارة إليه، لكننا نجد مواد متجاورة بشكل فسيفسائي بلا رابط يجمعها أو منهج ينظمها.

يســـاعد على اســـتفحال الأزمة - جزئيـــا - ازدياد عدد المجلات المكسوة بطابع ثقافي زائف، يستعير أغلب مواده الخفيفة من أنماط اجنبيـــة عن طريـــق الانترنت أو الفضائيات، ويعني أساســـا بعنصر الإثـــارة المعلوماتية عن طريق الصـــورة، ويعمد إلى خلط الأوراق بين مـــا يقدم في الخارج وما يحدث على أرض الواقع في ظروف نوعية وثقافيـــة مختلفة، وهذا النوع - الذي كانت بعض المجلات الخليجية فاخرة الطباعة رائدة له - يبتلع الشـــريحة الأكبر من القراء، ويبتلع معهـــا قدرتهم الشـــرائية للمجلات الثقافية الرصينة ذات الأســـعار

المرتفعة نسبيا عن الإصدارات الثقافية السطحية، أما المجلات الثقافية المتخصصة، فيغلب على بعضها التخصص الدقيق، واللغة الاصطلاحية المتجاوزة لقدرة القراء على الاستيعاب، مثل مجلة «فصول» ومجلة «فنون مصرية»، ويغلب على البعض الآخر التراكم الفسيفسائي للمواد المنشورة مثل مجلة «المحيط الثقافي» التي تندر فيها النظرة النقدية للواقع الثقافي، أو الدراسات النقدية التحليلية للأعمال الإبداعية.

وقد نلاحظ في كلا النوعين من المجلات غياب التوازن في المواد المنشورة بين الموروث والوافد الثقافي من الخارج. وضآلة التوجه نحو التنوع الثقافي – غير الثقافة الغربية – للتعرف على شتى الثقافات في أنحاء العالم، كما قد نلاحظ انعزال التخصصات الثقافية في تلك المجلات في جزر منعزلة، لا تسعى لاكتشاف الوشائج المتبادلة فيما بينها، للتلاقي والتواصل والتكامل مع بعضها البعض، ما يضيق آفاق التنمية الثقافية حتى لدى النخبة.... وقد نلاحظ أخيرا غياب دور الفكر السياسي والتاريخي والسوسيولوجي، وكذلك دور الفكر السيكولوجي، والاثنولوجي والأنثروبولوجي عن التفاعل مع مجالات الإبداع الفني والأدبي وغيرهما إنطلاقا من وحدة المعرفة.

**المجلة الحلم**

وبعد.....

ماذا لو تركنا أنفسنا للحلم بمجلة ثقافية نموذجية المستوي؟.....

إن علينا أولا أن نحدد عدة أهداف عامة تتجه هذه المجلة نحو تحقيقها، وهي في تصوري كالتالي:

١- الدفع نحو بلورة مشروع متكامل للثقافة القومية يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، كما يربط بين مشكلات الواقع ومشكلات الثقافة والفن والفكر، واضعا في اعتباره مستجدات العصر، وعلى رأسها العولمة.

٢- خلق نموذج عربي في الإبداع الفني والأدبي متحرر من التبعية المطلقة للنموذج الغربي ومن نموذج الماضي العربي أو نموذج الواقع

المعيش، بل يتطلع نحــو إطار تعبيري يجمع بين هذه النماذج الثلاثة برؤى ذاتية خلاقة، قادرة على التواصل مع ذائقة المتلقي العربي، دون التنازل عــن حرية المبدع في المغامرة والتجريب والابتكار، حتى ولو تصادم مع القناعات السائدة.

٣- خلق وعي فكري كاشف ودافع نحو إدراك ذاتنا القومية، ونحو الارتفــاع إلى قيم أعلى ومجتمع أفضل، فــي مقابل الوعي الكوكبي الزائــف الــذي تحاول أن تعممــه العولمة في ســعيها لفرض هيمنة الرأسمالية والإمبريالية على العالم كخيار وحيد.

٤- بعث فكرة طه حســين في الثلاثينيات، حــول ضرورة البحث عن جوهر الثقافة المصرية والعربية في المقلين الشــرقي والغربي، باســتعادة ما أســهمت به ثقافتنا وما اســتقر من تراثنا القديم في صميم الثقافة البحر أوســطية، لنكون من جديد شــركاء في صنع ثقافــة العالم ولســنا مجرد مســتهلكين، وهو يجعلنــا قادرين على التصدي لهيمنة العولمة وللنمــوذج الأمريكي، والحيلولة دون تحقيق أهدافه بتنميط الثقافة والبشر.

٥- خلق عقلية نقديــة قادرة على فرز طوفان المعرفة الذي يصب ليــل نهار في عقــول الجمهور عبــر قنوات الاتصــال والفضائيات وتكنولوجيــا المعلومات بتأثيرها المتعاظم، وعلى مناقشــة هذه المادة المعرفيــة والاختيار من بينهــا في ضوء بوصلة تحــدد ما ينفع وما لا ينفــع النــاس في هذه المنطقــة، وهنا لا ينبغــي أن تكتفي المجلة بالترجمــة والعرض والنقل للأفكار والاتجاهــات، بل ينبغي وضعها موضع النقد والتحليل والاســتخلاص، وبعبارة أخري... فإن مهمتها هي طرح القضايا وتحليل الرؤى وتقويم الأزمات.

٦- التواصــل المســتمر مع منابــع الحضــارات التاريخية وقيمها الإنســانية والروحية والجمالية، وتعميق علاقــة القارئ بها جميعا، وذلك تأكيدا لذاتيته الثقافية، مع ربط هذه المنابع بالقيم الإنســانية المطلقة، متجاوزة حدود الزمان والمكان.

٧- النظــر إلــى المواد الثقافيــة المتخصصة في الفنــون والآداب بالفلسفة والعلوم...إلخ على أنها وحدة متكاملة وليست جزرا منعزلة

عــن بعضها البعض، أو عــن المجتمع في واقعه المتغير أو في صورته المأمولة، مع تأكيد العلاقــة الجدلية والتاريخية بين مختلف جوانب المعرفة والفنون، حيث يربط بينها عامل الفكر، وتتشــابك في تكوين الفرد والجماعــة، ومن ثم فإن الثقافة المتخصصة تصب في المركب الثقافي العام، والعكس صحيح أيضا.

٨- العمل على وصل القطيعــة المزمنة في عالمنا العربي بين الفن والجمهــور، والتي يعــود جذرها إلى ميلاد الفــن الحديث من رحم الثقافــة الأوربية ونموه فــي كنفها على امتداد ما يقرب من قرن، ما جعله يكبر مع الزمن كجذع شــجرة مائل نحــو الغرب، يصعب على الجماهير اســتيعابه وتذوقه، من هنــا ازدادت الفجوة بين الجانبين عمقــا مع الزمــن، دون أن تقابلها جهود جادة مــن النقاد والفنانين والمثقفين كأزمة تستوجب الحل، وهذا أحد الأسباب المهمة لانصراف الجمهور عن متابعة ما ينشــر من مادة نقدية، بتراكيب لغوية عسيرة على الفهم والذوق في المجلات والمطبوعات.

٩- ويســتدعي ذلك خلق لغة ميســرة للتواصــل بين المتخصصين والجمهور، تساعد على بناء تفاهم مشترك، بعيدا عن التقعر اللغوي والاستعلاء على القارئ بالمصطلحات والتراكيب المعقدة.

١٠-كمــا يســتدعي ذلك تأســيس قاعدة معرفية مبســطة حول الفنون المختلفة، بما يســمح باســتقطاب قاعدة أوسع من القراء من شــتى الأذواق والمســتويات الثقافية، وبما يســاعدها مستقبلا على اســتيعاب جرعات ثقافيــة وفنية أكثر تخصصــا وعمقا، ومن المهم أن يعتمــد هذا التوجه على الصورة، باعتبار أنها تمثل ثقافة العصر الحديث، وليســت مجرد وســائط ثقافية، وثقافة الصورة تتنوع بين الفنون التشكيلية وفنون السينما والتليفزيون والفيديو والفوتوغرافيا والســينوغرافيا ونتائج الكمبيوتر من صور إعلانية وإخراج صحفي وتوليــف بين شــتى المعلومات المخزنــة في ذاكرته، مما يســتدعي استجلاء الروابط الجمالية والمعرفية فيما بينها.

ويبقى السؤال الأصعب وهو: كيف يمكن تحقيق هذا الحلم؟

فــي اعتقادي أن مثــل هذه المجلة المنشــودة يصعب صدورها من

خلال الدولة، بسبب تبعية أي مطبوعة تصدر عنها لتوجهات النظام والأهواء وميول قادة المؤسسة التي تصدرها، ما يعني ضرورة سيرها على الصراط المستقيم الذي يضعه صاحب المال والإدارة، إضافة إلى عوائق البيروقراطية الحكومية المزمنة التي تتحكم في كل صغيرة وكبيرة، كذلك يصعب صدورها من خلال جهة ثقافية أهلية كجمعية أو نقابة أو جماعة من المثقفين، لافتقار هؤلاء جميعا إلى التمويل الفخم اللازمة لصدور واستمرار مثل هذه المجلة، التي لا يمكن للتوزيع في أي حال أن يغطي نفقاتها.

وينطبق ذلك بالطبع على دور النشر الأهلية أو شركات القطاع الخاص، لأن مثل هذه المجلة غير مضمونة الربح بل ربما كانت مضمونة الخسارة على الأرجح، فيما نعلم أن أي رأسمال خاص لن يغامر في مشروع خسارته أرجح من ربحه!.

ومن ثم، فإنني أرى أن الحل الممكن هو الجمع بين أكثر من طرف من هذه الأطراف، وذلك بدعم الدولة لإحدى الجهات الأهلية كي تقوم بإصدار المجلة على مسئوليتها، ولدينا نموذج عملي ناجح بالفعل، يتمثل في مجلة «ضاد» الأدبية الشهرية التي يصدرها بصفة شهرية منذ عام ٢٠٠٥ اتحاد الكتاب في مصر بدعم من وزارة الثقافة، ويرأس تحريرها الكاتب محمد سلماوي رئيس الاتحاد، واعتقد أنها تجربة جديرة بالدراسة، لأن تلك المجلة تحقق نسبة معقولة من الغايات التي ذكرتها، أو لنقل أنها تطمح لتحقيقها

إن هذا الدعم – إضافة إلى ما يؤدي إليه من تحرير القائمين على المجلة من إرضاء للذوق التجاري السائد أو لهيمنة أصحاب الإعلانات، أو الخوف من عدم القدرة على الاستمرار – من شأنه أن يخفض سعر النسخة عند بيع المجلة، بما يشجع شرائح اجتماعية عديدة على شرائها، وخاصة من الشباب ومحدودي الدخل، كما يشجع على طرحها في مواقع التجمعات الأكثر اهتماما بمثل هذه المجلات، كالجامعات ومراكز الشباب وقصور الثقافة بالأقاليم وما إلى ذلك.

ولن يتأتى للدولة تقديم مثل هذا الدعم إلا عبر إيمانها بأهمية الثقافة في التنمية المتكاملة للمجتمع، فالثقافة في هذه الحالة استثمار بشري عالي القيمة، يرتفع بمستويات المشاركة المجتمعية والممارسة الديمقراطية، ويستنهض القدرات الخلاقة لدى المواطن نحو الابتكار وتجاوز السلبية، التي تمثل العدو رقم واحد لكل مشروعات التنمية والتقدم.

# تجربتي في مجلة «إبداع»

أحمد عبدالمعطي حجازي *

لكـــي نتحدث عـــن «المجـــلات الثقافيـــة ودورها في الإصلاح الثقافـــي» يجب أن نتحدث عـــن المكان الذي تحتله المجلة الثقافية بين وســـائط النشر والاتصال في عالم اليوم، كما يجب أن نحدد ما نقصده بالإصلاح الثقافي.

والحديـــث عن المـــكان الذي تحتلـــه المجلـــة الثقافية يبدأ بالحديث عـــن المكان الذي تحتله الآن اللغـــة والكلمة المكتوبة بالـــذات. فليـــس خافيًا على أحـــد أن الثـــورات التقنية التي تلاحقت في العصـــر الحديث حوّلت العالم إلـــى قرية كونيّة كما يقال، وهناك من يرى العالم الآن أصغر من قرية، ويشبهه براحة يد مبسوطة يســـتطيع كل منا أن يتابع ما يحدث فيها. والفضل للقفزات الهائلة التي تحققت في وســـائط الاتصال،

* شاعر وكاتب من مصر.

واعتمدت على الصورة التي تحتل الآن المكان الأول كلغة عالمية قادرة على تحقيق التواصل بين البشر على اختلاف مواطنهم وثقافاتهم ولغاتهم.

ولا جدال في أننا جزء من هذا العالم، بل نحن في قلبه. فما يقال عن الدور الذي تلعبه الصورة في حياة غيرنا من البشـــر يقـــال عن الدور الذي تلعبه في حياتنا. وليس في وســـعنا أن نقاطع الصورة أو نخرج من حدود الدائرة التي تهيمن عليها.

لكننا نســـتطيع ألا نستسلم لها، وأن نتخذ منها موقفًا واعيًا فنعـــرف إيجابياتها ونعرف ســـلبياتها. نعرف مـــن ناحية أنها تجعل كل شـــيء في العالم حاضرًا ملموسًا، لكنها لا تقدم من الأشـــياء والظواهر والأحداث إلا جانبهـــا المرئي، وتعجز عن التوغل فيها وكشف أسرارها، واسترجاع ما كانت عليه، وتوقع ما سوف تئول إليه.

الصورة هي وعي الآلة. وشتان بينها وبين وعي الإنسان كما تمثلـــه اللغة التـــي تتميز عن الصورة بأنها ليســـت مجرد أداة للعـــرض، ولكنها أداة للفهم والتفكير والمراجعة، لأنها لا تصور ولا تصف فقـــط، وإنما تتذكر وتتخيل وتحلـــم وتتمنى وتتنبأ وتتوقع.

فـــإذا لم تكن الصورة هي نهاية المطاف بالنســـبة للعالم كله فهي ليست نهاية المطاف بالنسبة لنا نحن بالذات، لأنها فرضت نفسها علينا قبل الأوان، أعني قبل أن نجتاز مرحلة اللغة.

نحـــن لم نمتلك لغتنا القومية بعد، ومـــازال للغة دور حيوي متعـــدد الوجود تؤديه في حياتنـــا ولا يعوضنا عنه بديل آخر. فنحـــن لانزال متخلفـــين نعيش في عصر ســـابق على عصر

الصورة، بل سابق حتى على عصر اللغة. وماذا يكون عصر اللغة إلا أن يكون عصر المجتمع القومي؟ وماذا يكون عصر الصورة إلا أن يكون عصر المجتمع الدولي أو الأممي؟

نحن لم ننجح حتى الآن في الوصول إلى لغة قومية يتحقق فيها الشرطان: أن تكون لغة حية، وأن تكون في الوقت ذاته لغة مثقفة.لم ننجح في تحويل الفصحى إلى لغة حية، ولم ننجح في تحويل الدارجة إلى لغة مثقفة. ولهذا الفشل أسباب مختلفة منها أن الثقافة الرسمية التي تستخدم الفصحى لاتزال نشاطًا فوقيًا سطحيًا معزولاً عن عامة الناس. ولاتزال مسخَّرة لخدمة النظم السياسية القائمة، فهي من ناحية أداة دعاية، ومن ناحية أخرى أداة إملاء. وكونها أداة دعاية يجعلها خطابة بعيدة عن مقاربة الواقع وفهمه والتأثير فيه والعمل على تغييره. وهي ببعدها عن الواقع محرومة من أن تكون لغة حية. وكونها أداة إملاء يحرمها من أن تكون أداة للتواصل والحوار بين المواطن والمواطن، وبين الحاكم والمحكوم، وبيننا جميعًا وبين العصر الذي نعيش فيه.

هكذا فشلنا في إحياء الفصحى كما فشلنا في تثقيف العامية التي تستطيع أن تحقق لنا الاتصال في النطاق المحلي، لكنها لا تحققه في النطاق القومي. وتستطيع أن تلبي حاجاتنا العقلية في بعض المجالات، لكنها لا تلبيها في مجالات أخرى.

***

ثم ننتقل للحديث عن الإصلاح الثقافي الذي لا يتحقق إلا بإصلاح اللغة، والتخلص من هيمنة السلطات الحاكمة والاتجاهات السلفية، والاتصال الحميم بالواقع الحي من

ناحية وحضارة العصر من ناحية أخرى.

الإصلاح الثقافي لا يتحقق إلا بإطلاق الحريات السياسية، واحترام حقوق الإنسان، ومحاربة التطرف، والتزام العقل، وتمثل المناهج العلمية، وتشجيع النقد والمراجعة، والخروج من جاذبية الماضي، والاندفاع في طريق المستقبل، والإيمان بأن البشر جميعًا إخوة، وبأن الحضارة الإنسانية حضارة واحدة نسهم فيها جميعًا، وننتمي لها جميعًا.

وفي ضوء ما تقدم أتحدث عن دور المجلات الثقافية في الإصلاح الثقافي، وذلك من واقع تجربتي العملية في مجلة «إبداع».

***

و«إبداع» مجلة شهرية متخصصة في نشر الإنتاج الأدبي والفني ومتابعته، وتصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتّاب، وهي إحدى الهيئات التابعة لوزارة الثقافة المصرية.

وكان يرأس تحريرها الأستاذ الراحل الدكتور عبدالقادر القط منذ أن بدأ صدورها عام ١٩٨٢ حتى عرضت عليّ الهيئة التي تصدرها رئاسة تحريرها فاضطلعت بهذه المسئولية من أول سنة ١٩٩١ حتى اضطرتني العقبات التي صادفتها إلى تقديم استقالتي قبل عامين احتجبت فيهما المجلة. وها نحن قد فرغنا من أن ندفع للمطبعة مواد العدد الذي سنستأنف به إصدارها من جديد في أول الشهر القادم، على أن تصدر كل ثلاثة أشهر بصفة مؤقتة.

***

حين بدأنا العمل في المجلة في أول عام ١٩٩١ لاحظنا أنها

تلتزم في التحرير والنشر الحدود والقواعد التي تلتزمها معظم المطبوعات الصادرة عن المؤسسات الحكومية، فلا تحدد لنفسها اتجاهًا فكريًا، ولا تغامر بالاقتراب من القضايا الساخنة، أو بنشر المواد التي قد تتعرض للمنع، أو بنقد السياسات والمؤسسات الثقافية في البلد الذي تصدر فيه والبلاد التي تدخلها، وهي إذن لا تكتب أسماء بالذات، ولا تتجه لجمهور بالذات.

والنتيجة المنطقية للالتزام بهذه القواعد هي ضعف المادة التي تنشرها أو فتورها أو طابعها المحايد، وبالتالي تواضع عدد النسخ التي توزعها. وقد خرجنا على هذه القواعد جميعًا فلم نلتزم بأي منها.

لقد صدرنا العدد الأول (مارس ١٩٩١) ببيان أعلنا فيه أن حرية الفكر هي قضيتنا الأساسية. ولم نكف عن تأكيد هذا البيان بالأعداد التي خصصناها لمقاومة التطرف الإرهاب والدفاع عن حرية التفكير والتعبير، سواء وقع العدوان على هذه الحرية، من الداخل أو من الخارج، ومن جهات رسمية أو غير رسمية.

في الثامن من يونيو، ١٩٩٢ سقط الكاتب المصري فرج فودة قتيلاً برصاص الإرهابيين المنتمين للجماعة الإسلامية، وقد خصصنا العدد السابع من المجلة الصادر في الشهر التالي (يوليو ١٩٩٢)، للتنديد بهذه الجريمة النكراء، وفي هذا العدد نشرنا مقاطع مختارة من المناظرات، التي جرت بين فرج فودة وبعض المتحدثين باسم الجماعات الدينية. كما نشرنا البرقيتين اللتين أرسلهما الزعيم اللبناني وليد جنبلاط إلى

اتحاد الكتّاب المصريين ووزير الثقافة المصري يندد فيهما بالجريمة ويعزي أسرة الشهيد وزملاءه.

وفي يوليو ١٩٩٣ ضم العدد السابع ملفًا عن الشاعر الروائي الجزائري الطاهر جاووت الذي اغتاله الإرهابيون في الجزائر.

وفي أكتوبر ١٩٩٤ ضم العدد العاشر ملفًا عن الكاتبة البنغالية تسليما نسرين بعد نجاتها من بطش المتطرفين الأصوليين.

وفي الشهر التالي نوفمبر ١٩٩٤ خصصنا العدد كله لنجيب محفوظ الذي تعرض في الرابع عشر من الشهر السابق (أكتوبر ١٩٩٤) لمحاولة اغتيال بالغة النذالة والوحشية.

وفي سبتمبر ١٩٩٦ ضم العدد التاسع ملفًا خصصناه لقضية الأستاذ المصري نصر حامد أبو زيد الذي تعرض للاضطهاد في الجامعة، وقضت إحدى المحاكم بتطليق زوجته بصفته مرتدًا، فاضطرا للهجرة معًا إلى هولندا!!

وكما عالجنا قضية نصر حامد أبو زيد، وتسليما نسرين عالجنا قضية سليمان رشدي، ونشرنا على الملأ ما وقع في أيدينا من برقيات الوشاية بنا والتحريض علينا، التي أرسلها بعض أساتذة الجامعة لبعض المسئولين المصريين.

وأصدرنا عددًا عن «فقه المصادرة» - يونيه ١٩٩٩ - وقفنا فيه ضد الحملة المتطرفة التي انتهت بمنع قراءة بعض الكتب في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ومنها كتاب «محمد» للمستعرب الفرنسي مكسيم رودنسون، و«النبي» لجبران خليل جبران، و«الخبز الحافي» للقاص المغربي محمد شكري.

وكما حشــدنا كبار المثقفين المصريين والعرب وأقلامهم في وجه هذه الجرائم، عالجنا مسألة الإبداع والحرية من الوجهة النظرية، فنشــرنا عشرات من المقالات والدراسات حول الفن والدين، والفن والأخلاق، والفن والجنس، والفن والسياســة، فضلاً عن الوثائق الأجنبية، ونصوص المحاكمات الشهيرة التي جرت لبعض الأعمال الأدبيــة في أوربا وأمريكا، ومنها ديوان «أزهار الشــر» لشارل بودلير، و«عشيق الليدي تشازلي» ل هـ. لورنس، و«بوليريس» لجيمس جويس.

في هذه المعركة الطويلة، لم يكن المكســب أخلاقيًا فحسب يتمثل في الدفاع عن قضية عادلة وحشد القرّاء خلفها، وإنما كانت المكاســب كثيــرة. فقد اجتمعت علــى صفحات «إبداع» أســماء لم تجتمع في مجلة واحدة منهــا يحيى حقي، وثروت عكاشــة، ومحمود أمين العالم، وشــكري عياد، وفؤاد زكريا، ومصطفــى صفــوان، ومراد وهبــة، ورجاء النقــاش، وجابر عصفور، ومصطفى ناصف، ولطفي عبدالبديع، وفتحي غانم، وإدوار الخــراط، وجمال الغيطانــي، وأدونيس، وعبدالوهاب البياتي، ومحمود درويش، وســعدي يوســف، وصلاح فضل، وعبدالمنعم تليمة، وفاروق شوشــة، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وصبري حافظ، وأحمد مرســي، وعشرات آخرين من الكتّاب والشعراء والفنانين العرب والأجانب.

ومــن الطبيعي وقد أصبحــت «إبداع» منبــرًا لحرية الفكر وملتقى لهذه الأسماء وهذه العقول والمواهب أن يرتفع توزيعها مــرات عدة بالرغم من أنها أصبحت ممنوعة من دخول بعض البلاد التــي ضاقت بهذه الحرية. كمــا ضاقت بها في مصر

أيضًا جهات ومؤسسات منها مجلس الشعب الذي وقف بعض أعضائه يسائلون وزير الثقافة.

كيف تصدر هذه المجلة في بلد الأزهر الشريف؟

ولقد كانت هذه إشارة ترجمها المسئولون في الهيئة المصرية العامة للكتاب إلى صور من التضييق على المجلة أدت إلى تعثرها واحتجابها، واضطرتني لتقديم استقالتي حتى فوتحت أخيرا في إعادة إصدارها من جديد.

كتاب العربي ٦٩

# المحتويات (العدد ٦٩) ١٥ يوليو ٢٠٠٧

## أسعار النسخ وقيمة الاشتراكات

| | | | |
|---|---|---|---|
| الكويت | ادينار | الجزائر | ١٢٠دينارا |
| السعودية | ١٥ريالا | اليمن | ١٥٠ريالا |
| الأردن | ادينار | قطر | ١٥ريالا |
| سوريا | ٥٠ ليرة | سلطنة عمان | ١ريال |
| البحرين | ادينار | لبنان | ٥٠٠٠ ليرة |
| مصر | ٢جنيه | الإمارات | ١٥درهما |
| السودان | ٢٠٠, جنيه | المغرب | ٢٠درهما |
| تونس | ٢دينار | | |

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية
الاشتراك في الكويت ٥ دنانير
في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية
خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا.

## الاشتراكات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام
ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨
على طالب الاشتراك تحويل القيمة
بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

## مكتب العربي الرئيسي في الكويت

ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ١ - شارع ٤٧ - قسيمة ٣
هاتف البدالة 86 / 82 / (00965)2512081
فاكس: (00965) 2512044

P.O.Box: 748 / Al Safat Kuwait.
E.mail: alarabimag@alarabimag.net
www.alarabimag.net

المراسلات باسم رئيس التحرير

## مكـاتـب العربـي في الخــارج

القاهرة: الدقي - ٢٢ شارع البطل عدنان عمر صدقي
متفرع من شارع مصدق -
هاتف: ٣٣٧٢٩٣٨ (٠٢)
بيـروت: ص.ب ٧٠٨٢٧ أنطلياس / لبنان
هاتف: ٤٠٨٤٠٧ (٠٣)
فاكس: ٤٠٥٠٧٢ (٠٤)

كتاب العربي

# اصدارات كتاب العربي

| | |
|---|---|
| ١- الحرية | د. أحمد زكي ،يناير ١٩٨٤، |
| ٢- العلم في حياة الإنسان | د. عبد الحليم منتصر ،أبريل ١٩٨٤، |
| ٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة | مجموعة كتاب ،يوليو ١٩٨٤، |
| ٤- العروبة والإسلام وأوربا | د. محمود السمرة ،أكتوبر ١٩٨٤، |
| ٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع:الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي | مجموعة كتاب ،نوفمبر ١٩٨٤، |
| ٦ طبائع البشر | د. فاخر عاقل ،يناير ١٩٨٥، |
| ٧- حوار.. لامواجهة.. | د. أحمد كمال أبو المجد ،أبريل ١٩٨٥، |
| ٨- آراء ودراسات في الفكر القومي | مجموعة كتاب ،يوليو ١٩٨٥، |
| ٩- أضواء على لغتنا السمحة | محمد خليفة التونسي،أكتوبر١٩٨٥، |
| ١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال | مجموعة كتاب ،يناير ١٩٨٦، |
| ١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر | د. حازم الببلاوي ،أبريل ١٩٨٦، |
| ١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال | د. فخري الدباغ ،يوليو ١٩٨٦، |
| ١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده | مجموعة كتاب ،أكتوبر ١٩٨٦، |
| ١٤- المسلمون والعصر | مجموعة كتاب ،يناير ١٩٨٧، |
| ١٥- من أسرار الحياة والكون | د. عبد المحسن صالح ،أبريل ١٩٨٧، |
| ١٦- دراسات حول الطب الوقائي | مجموعة كتاب ،يوليو ١٩٨٧، |
| ١٧- خطاب إلى العقل العربي | د. فؤاد زكريا ،أكتوبر ١٩٨٧، |
| ١٨- المسرح العربي بين النقل والتأصيل | مجموعة كتاب ،يناير ١٩٨٨، |
| ١٩- الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة | مجموعة كتاب ،أبريل ١٩٨٨، |

| | |
|---|---|
| ٢٠- أندلسيات | محمد عبد الله عنان ،يوليو ١٩٨٨، |
| ٢١- ماذا في العلم والطب من جديد؟ | مجموعة كتاب ،أكتوبر ١٩٨٨، |
| ٢٢- الإسلام والعروبة في عالم متغير | د. عبد العزيز كامل ،يناير ١٩٨٩، |
| ٢٣- الطفل العربي والمستقبل( | مجموعة كتاب ،أبريل ١٩٨٩، |
| ٢٤- القصة العربية أجيال وآفاق | مجموعة كتاب ،يوليو ١٩٨٩، |
| ٢٥- تاريخنا... وبقايا صور | د. شاكر مصطفى ،أكتوبر ١٩٨٩، |
| ٢٦- الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟ | مجموعة كتاب ،يناير ١٩٩٠، |
| ٢٧- نافذة على فلسفة العصر | د. زكي نجيب محمود ،أبريل ١٩٩٠، |
| ٢٨- نظرات في الأدب والنقد | عبد الرزاق البصير ،يوليو ١٩٩٠، |
| ٢٩- الإسلام وضرورة التغيير | د. محمد عمارة ،يوليو ١٩٩٧، |
| ٣٠- الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين | مجموعة كتا ، أكتوبر ١٩٩٧، |
| ٣١- القصة العربية. | مجموعة من الكتاب ،يناير١٩٩٨، |
| ٣٢ - أرقام تصنع العالم | محمود المراغي ، أبريل ١٩٩٨ ، |
| ٣٣ - على جناح طائر | د. شاكر مصطفى ، يوليو ١٩٩٨ ، |
| ٣٤ - المسلمون من آسيا إلى أوربا | مجموعة من الكتاب ، أكتوبر ١٩٩٨، |
| ٣٥ - إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية | مجموعة من الكتّاب ، يناير ١٩٩٩، |
| ٣٦ - ثورات في الطب والعلوم | مجموعة من الكتاب ،أبريل ١٩٩٩، |
| ٣٧ - نبش الغراب في واحة العربي | محمد مستجاب ،يوليو ١٩٩٩، |

| | |
|---|---|
| ٣٨ - المثقفون والسلطة في عالمنا العربي | أحمد بهاء الدين ،أكتوبر ١٩٩٩، |
| ٣٩ - التعبير بالألوان | مجموعة من الكتّاب ،يناير ٢٠٠٠، |
| ٤٠ - حضارة الحاسوب والإنترنت | مجموعة من الكتاب ،أبريل ٢٠٠٠، |
| ٤١ - شهرزاد تبوح بشجونها | مجموعة من الكاتبات ،يوليو ٢٠٠٠، |
| ٤٢ - قوافي الحب والشجن | نخبة من الشعراء ،أكتوبر ٢٠٠٠، |
| ٤٣ - الطب البديل | د. محمد المخزنجي ،يناير ٢٠٠١، |
| ٤٤ - منمنمات تاريخية | سليمان مظهر ،أبريل ٢٠٠١، |
| ٤٥ - الإسلام والتطرف | نخبة من الكتّاب ،يوليو ٢٠٠١، |
| ٤٦ - الطريق إلى المعرفة | د. أحمد أبو زيد ،أكتوبر ٢٠٠١، |
| ٤٧ - إيقاع على أوتار الزمن | د. نقولا زيادة ،يناير ٢٠٠٢، |
| ٤٨ - دمار البيئة... دمار الإنسان | مجموعة من الكتّاب ،أبريل ٢٠٠٢، |
| ٤٩ - الإسلام والغرب | مجموعة من الكتّاب ،يوليو ٢٠٠٢، |
| ٥٠- ثقافة الطفل العربي | مجموعة من الكتّاب ،أكتوبر ٢٠٠٢، |
| ٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق | د. سليمان العسكري وآخرون ،يناير ٢٠٠٣، |
| ٥٢- جمال العربية | فاروق شوشة ،أبريل ٢٠٠٣، |
| ٥٣- كلمات من طمي الفرات | نخبة من الكتّاب ،يوليو ٢٠٠٣، |
| ٥٤- مرفأ الذاكرة | مجموعة من الكتّاب ،أكتوبر ٢٠٠٣، |
| ٥٥- مستقبل الثورة الرقمية | نخبة من الكتاب ،يناير ٢٠٠٤، |
| ٥٦- فلسطين روح العرب الممزق | نخبة من الكتاب ،ابريل ٢٠٠٤، |
| ٥٧- مراجعات في الفكر القومي | د. محمد جابر الأنصاري ،يوليو ٢٠٠٤، |

| | |
|---|---|
| ٥٨ الأندلس صفحات مشرقة | نخبة من الكتاب ،اكتوبر ٢٠٠٥، |
| ٥٩- الغرب بعيون عربية (الجزء الأول) | نخبة من الكتاب ،يناير ٢٠٠٥، |
| ٦٠- الغرب بعيون عربية (الجزء الثاني) | نخبة من الكتاب ،أبريل ٢٠٠٥، |
| ٦١- المعرفة وصناعة المستقبل | د. أحمد أبوزيد،يوليو ٢٠٠٥، |
| ٦٢- غواية التراث | د. جابر عصفور ،أكتوبر ٢٠٠٥، |
| ٦٣ - نبش الغراب ،المجموعة الثانية، | محمد مستجاب ،يناير ٢٠٠٦، |
| ٦٤- دائرة معارف العرب | جار النبي ،أبريل ٢٠٠٦، |
| ٦٥- حوار المشارقة والمغاربة ،الجزء الأول، | مجموعة من الكتاب ،يوليو ٢٠٠٦، |
| ٦٦- حوار المشارقة والمغاربة ،الجزء الثاني، | مجموعة من الكتاب ،أكتوبر ٢٠٠٦، |
| ٦٧ الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي | مجموعة من الكتاب ،يناير٢٠٠٧، |
| ٦٨ عن الدهشة والألم ٥٠ قصة بأقلام عربية | مجموعة من الكتاب ،أبريل ٢٠٠٧، |
| ٦٩ المجلات الثقافية مهمة الاصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الأول) | مجموعة من الكتاب ،يوليو ٢٠٠٧، |

# المجلات الثقافية
# مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧/٧/١٥
رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية :
Depository Number: 2007 /280
ردمك: ٥ - ٣٢ - ٣٨ - ٩٩٩٠٦- ٩٧٨ ISBU: 978 -99906-38-32-5

# هذا الكتاب

إن الدور الذي قامت به «العربي» ولاتزال، هو جزء من الدور الذي يفترض أن تقوم به أي مطبوعة ثقافية، وهو موضوع هذا الكتاب، ففي وقت تنتشر فيه الثقافة السريعة والسطحية، أصبح من المطلوب أن نحرص على كل المطبوعات التي تعزز من قيمة الثقافة العميقة، وتحث الشباب العربي على التمسك بقيمه وتراثه وهويته. وقد قامت المجلات الثقافية بهذا الدور في بواكير النهضة العربية، ومازال مطلوبًا منها مواصلته في مواجهة رياح العولمة. فالدور الذي تقوم به هذه المطبوعات من أجل تأصيل الهوية وسط عالم متغير، هو دور على جانب كبير من الأهمية، ولكن من المهم أيضًا أن تشارك هذه المطبوعات في عمليات الإصلاح التي نصبو إليها جميعًا.







المجلات الثقافية .. مهمة الإصلاح وسؤال المعرفة (الجزء الأول)


وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت